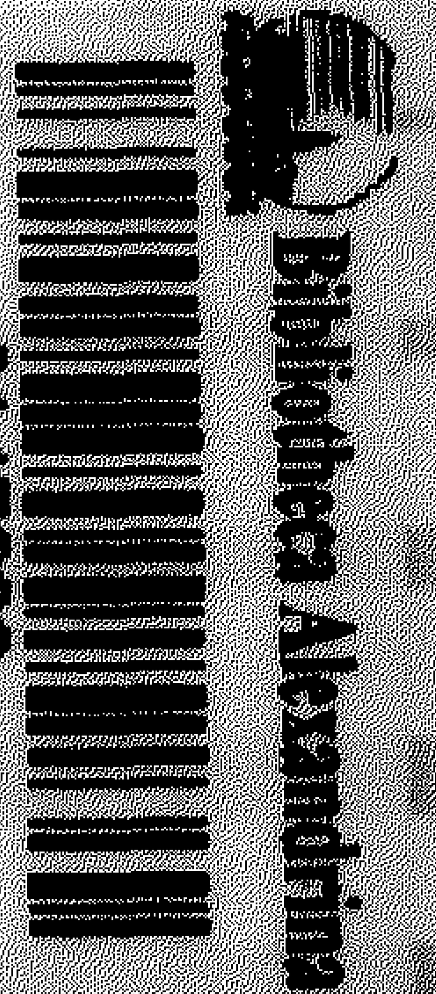


مالرو



ترجمة: زياد العودة

بول غايار



سلسلة أعلام ١١

الإشراف الفني: زهير الحمو

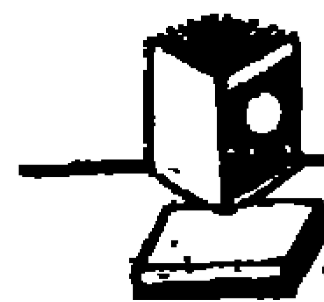
مالرو

سلسلة أعلام
« ١١ »

بول غايار

مالرو

ترجمة:
زياد العودة



منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٦٤

العنوان الاصلي للكتاب :

présence littéraire

malraux

pol gaillard

مالرو ــ Malraux/ بول غايار ؛ ترجمة إياد العودة . ــ دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٤ . ــ ٢٨٨ ص ؛ ٢٤ سم . ــ
(سلسلة أعلام ؛ ١١١) .

١ ــ ٨٤٣٫٩١٢٠٠٩ غ اي م ٢ ــ ٩٢٨٫٨ : مالرو : أندريه غ
٣ ــ العنوان ٤ ــ العنوان الموازي ٥ ــ غايار
٦ ــ العودة ٧ ــ السلسلة

مكتبة الأسد

الإيداع القانوني : ع ــ ١١١٣٦٠ / ١٠ / ١٩٩٤

«١»
السيرة والتاريخ

مالرو وزمنه
السيرة والتاريخ

« لا يكشِفُ التاريخُ ولا سيرةُ الكاتبِ عن نوعيةِ مؤلّفاته .

... إن الحياةَ ، كالتاريخ ، لاتحدِّدُ الأشكالَ ، بل تستدعيها » .

« أصوات الصمت »

« لا يُبنى الإنسانُ حسب التسلسلِ الزمنّي لحياته ... »

فالتجاربُ هي التي تحدِّدُ مواقفَ الإنسان .

« حديث لمالرو مع داستييه دولا فيجوري » .

« لقد بالغَ في إرشادي »

وأظنّ أن الإنسانَ يُستَدل عليه » من قيمته أكثر بكثير مما يستدل عليه من أسراره ، بحيث لا يسعني أن أتمسك بأسرار الذين أحبهم(١) في حكمي عليهم » .

« أشجار جوز الألتانبرغ » .

إن أندريه مالرو ، خلافاً للعديد من المؤلفين المعاصرين ، قد أظهر دوماً أقصى درجات التكتّم فيما يتعلق بحياته الخاصة ، شأنه في ذلك شأن

---

(١) إن الشخص (الشخصية الروائية) يتحدث هنا عن والده ؛ فهل يمكن أن يقول الشيء نفسه عن امرأة يحبها حباً عميقاً ؟ هذا مستبعد ، لأن في ما الحب توقاً لمعرفة الشخص الآخر جسداً وروحاً ، في أغلب الأحيان .

فاليري ، ومارتان دوغار ، ولسوف نحترم هذا الموقف الذي يبدو لنا لائقاً أكثر من أي موقفٍ آخر .

أما حياتهُ العامةُ ، ومؤلفاته فهي ، على العكس من ذلك ، ملك للجميع . وسنحاول أن نقدم هنا المعلومات السِّيرية والتاريخيةَ التي تتيح لنا وضعها في إطارها الصحيح بصورةٍ أفضل ، وذلك بالقدر الذي نتيقن فيه من معرفتها — و لكي نتناولها بالدراسة على نحو يعود بفائدةٍ أكبر (١) .

السيرة	التاريخ
١٩٠١ :	إن الكتّاب الثلاثة الكبار :

التاريخ

إن الكتّاب الثلاثة الكبار : بول فاليري ، وأندريه جيد ، ومارتان دوغار الذين سيعرفهم مالرو بوجه خاص أكثر من غيرهم ، يكبرونه سناً بكثير ؛ فقد ولد جيد عام ١٨٦٩ ، وفاليري عام ١٨٧١ ، ومارتان دوغار عام ١٨٨١ .

« لقد ذكرنا في هذا العمود وقبل كل شيء ، الحوادث التي لها صلةٌ مباشرة أو غير مباشرة

السيرة

١٩٠١ :

٣ تشرين الثاني : هو تاريخ ميلاد مالرو في باريس . وأول اسم له في الأحوال المدنية هو « جورج » ، وليس « أندريه » وهذا ما سوف يسهم إلى حدٍ كبير في إنقاذ حياته عام ١٩٤٤ ؛ فلقد أخطأ الغستابو في تحديد إضبارته .

إن أسرة مالرو من أصلٍ فلمندي ، وقد كان جدّه يعمل في صناعة السفن في دنكرك ؛

(١) سوف نذكر فقط بما باح به مالرو نفسه في « مذكراته المخالفة » ، أو في هذا الحديث أو ذاك من أحاديثه المنشورة .

التاريخ	السّيرة
بأحد مؤلّفات مالرو . أما عنوان الكتاب ، فنشير إليه بالحروف الثخينة (١) !	ولكنه خسر كل ثروته تقريباً في البحر (راجع : أشجار جوز الألتا نبرغ) .
	أما والده فيديرُ في باريس وكالةً لمصرفٍ أمريكي ، فيعرفُ مالرو خفايا الرأسمالية معرفة حسنة .
١٩٠٩ : تأسيس المجلة الفرنسية الجديدة N.R.F. ١٩١٤ : الحرب .	١٩٠٩ (٧ سنوات) : وفاة جدّ مالرو : « موت الفايكنغ العجوز » (انظر : المذكرات المخالفة)
١٩١٥ : ١٢ حزيران : الألمان يشنّون هجوماً بالغازات السامة على جبهة الفيستول . (انظر : أشجار جوز الألتابيرغ)	

(١) في النص الفرنسي طبعاً ، أما في ترجمتنا العربية هذه ، فنضعه بين قوسين .
(المترجم : زع)

التاريخ	السيرة
١٩١٧ :	

التاريخ

١٩١٧ :

آذار : الثورة الروسية الأولى وسقوط النظام القيصري.

تشرين الثاني: الثورة الروسية الثانية .

البلاشفة يستلمون السلطة .

كانون الأول : هدنة بريست – ليتوفسك .

١٩١٨ :

تشرين الثاني : سقوط الإمبراطورية الألمانية ، وهدنة ريتوند .

١٩١٩ : : في روسيا : الحرب الأهلية ، والتدخلات الأجنبية . إنشاء الأممية الثالثة . معاهدة فرساي .

في الصين : معاهدة فرساي تمنح اليابان الحقوق الألمانية في مقاطعة شانتونغ ، دون استشارة الصينيين .

السيرة

أندريه مالرو ينجز دراسته الثانوية في معهد كوندورسيه . وبعد انفصال والديه ، يسكن في منزل جدته في بوندي . أما والده فيحارب في سلاح المدرعات

وتصبح موضع إعجابه العميق ثلاثة أسماء هي : فيكتور هيجو ، وميشليه ، وميشيل أنجلو ، بين أسماء عديدة أخرى

١٩١٩ : (١٧ عاماً) .

مالرو يتبع محاضرات في متحف غيميه ، وفي مدرسة اللوفر اتباعاً حراً ، ويعمل لحساب الكتبي الناشر رينيه لوي دوايون ، ويدرس الأعمال الفنية الكلاسيكية والحديثة . .

١٩٢٠ (١٨ عاماً) :

مالرو ينشر في مجلة «المعرفة» الصغيرة لصاحبها ر.ل.دوايون، أول مقالة له هي : « في أصول الشعر التكعيبي » ، ثم ينشر في

التاريخ	السيرة
١٩٢٠ : الحرب الأهلية والتدخلات الأجنبية في روسيا . في الهند ، يشن غاندي حملة العصيان . وفي فرنسا ، ينعقد مؤتمر تور في كانون الأول . انشقاق الحزب الأشتراكي (الفرع الفرنسي من الأممية الشيوعية . . . . (بول فاليري ينشر « المقبرة البحرية » ، و« أزمة الفكر » ، وبروست ينشر « جانب غيرمانت » ، وتزارا : « البيانات الدادائية السبعة » .	مجلة أكسيون (العمل) مقالات عن لوتريامون ، وأندريه سالمون ، وينشر نصوصاً غير معروفة للشاعر جول لافورغ . ويكتب : « أقمار من الورق » .
١٩٢١ : نهاية الحرب الأهلية في روسيا ، وحدوث تمرد بحارة كرونشتات ، وإعلان السياسة الاقتصادية الجديدة (نيب) : أي العودة المؤقتة إلى بعض أشكال الرأسمالية ومنع الكتل في الحزب أندريه جيد ينشر : « إذا لم تمت البذرة » .	١٩٢١ (١٩ عاماً) مالرو يصبح مديراً أدبياً ، ومصمم كتب لدى سيمون كرا ، في طبعات « ساجيتير » التي ينشر فيها مؤلفات « لريفيردي وأ . جاري ، وماكس جاكوب ، وريمي دو غورمون . ويتعاقد مع بائع اللوحات كانفايلر ، وينشر لديه : « أقمار من الورق » الذي يهديه إلى ماكس جاكوب ، ويقدمه على النحو التالي : « كتاب صغير نجد فيه حكاية بعض النضالات التي قلما يعرفها الناس ، وكذلك حكاية رحلة بين أشياء مألوفة ، ولكنها

١٩٢٢ :

الجنرال تشين تشونغ يطرد سون يات سن من كانتون .

وتعيدُ اليابان شانتونغ إلى الصين

موسوليني يستولي على السلطة في إيطاليا .

روجيه مارتان دوغار ينشر الجزء الأول من عائلة تيبو .

١٩٢٣ :

في الصين :

كانون الثاني : سون يات سن يستعيد السيطرة على كانتون .

اتفاق بين الكيومنتانغ (الحزب القومي الصيني) والكومنتيرن (اللجنة الإدارية للأممية الشيوعية) .

شباط :

فشل الإضراب الكبير لعمال سكة الحديد الصينية ، لمنطقية كينهان (مقتل أربعة وأكثر من مئة جريح) .

غريبة » ، وكلها منسجمة مع الحقيقة ، ومزينة بصور محفورة على الخشب لفيرتان ليجيه » .
ويعلّق عليها مالرو اليوم قائلاً إنها « فخرُ المقهى » .

وتنشر دار نشر « إشارات فرنسا وبلجيكا » : « القنافذ المدجّنة » ، و« يوميات خيّاط لعبة تحريك الدمى » .

٢١ تشرين الأول : مالرو يتزوج كلارا غولد شميت .

١٩٢٢ (٢٠ عاماً) .

مالرو يسافر ، ويتردد على العديد من الفنانين كبيكاسّو ، ودوران ، وينشر في (أكسيون) ، والصحيفة الفرنسية الجديدة ، مقالاتٍ عن جيد ، وغوبينو ، وماكس جاكوب .

١٩٢٣ (٢١ عاماً)

مالرو يكتب مقدمة كتاب : « الآنسه مونك » لموراس .

التاريخ

حزيران :

المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي الصيني يقرر « دخول أعضائه في الكيومنتانغ ، مع الحفاظ على استقلالية الحزب الشيوعي في مجال السياسة والتنظيم » (انظر رواية : « الظافرون ») .

الاتحاد السوفييتي : أصبح ستالين أميناً عاماً للحزب .

المانيا : القطعان الفرنسية والبلجيكية تحتل الرور لتؤمن دفع التعويضات .

تضخم مالي متصاعد حتى شهر تشرين الثاني (الدولار يعادل أربعة مليارات من الماركات الورقية) ؛ فشل أول انقلاب لهتلر .

فرنسا : كوكتو ينشر : توما الدجّال ، ورواديغيه ينشر الشيطان في الجسد ، وجول رومان : كنوك .

السيرة

وفي أيلول ، تُلفتُ مقالةٌ ، لهنري بارمنتييه ، رئيس مكتب الآثار في المدرسة الفرنسية للشرق الأقصى ، تلفتُ انتباه مالرو إلى القيمة الفنية الكبيرة جداً لخرائب معبد بانتياي سري ، والذي يقع في قلب الغابة الكمبودية .

إن الميل إلى المغامرة ، والاكتشاف ، وحب الفن ، والحاجة الماسة إلى المال (فقد أفلس مالرو في البورصة) ، تجعله يقرر القيام بحملة تنقيب عن الآثار في كمبوديا . فيحصل على مهمة لذلك (ولربما تكون عبارةً عن موافقات فقط ؟) من وزارة المستعمرات ، ويكتب ماكس جاكوب « مهمة تعطى لمالرو ... أخيراً . إنه سيجدُ طريقة في الشرق . سيصبح مستشرقاً ، وينتهي به الأمر في

١٩٢٤ :

الصين : المؤتمر الأول للكيو منتانغ ، وتبني مبادىء الشعب الثلاثة ، الوحدة الوطنية والديمقراطية ، والاشتراكية .

السوفياتيان بورودين (غروزبرغ) وبلوشير (غالين) ينظمان الحزب والجيش ، وشان كاي شيك يدير الأكاديمية العسكرية في قامبوا (انظر : « الظافرون ») .

الاتحاد السوفييتي : وفاة لينين .

دستور جديد للاتحاد السوفييتي .

فرنسا : نصر انتخابي لتجمع اليساريين ، وهيريو يقرر الانسحاب من الرور .

إنشاء أولى الروابط المساندة للفاشية. أول بيان للسوريالية لأندريه بروتون .

الكوليج دوفرانس ، مثل كلوديل فقد خُلق مالرو للتدريس الجامعي » .

وفي كانون الأول ، يصل مالرو ، وكلارا مالرو ، ، وصديقهما لويس شوفاسّون إلى معبد بانتياي سري البوذي ؛ فلا يجدون فيه ما يثير الاهتمام فنياً ، وأبعد من ذلك المعبد بقليل (فالحملةُ بكاملها لاتستغرق أسبوعاً) يصلون إلى خرائب معابد قديمة ؛ فيجدون فيها بصورة خاصة ، وعلى أحد الأبراج التي لا تزال قائمة ، بعض المنحوتات الجميلة جداً لربّات حارسات .فيقطعونها بواسطة المناشير والروافع ، ويحملونها على عرباتهم ذات الدولابين ، فيصل إجمالي وزن الحجارة من ٨٠٠ إلى ١٠٠٠ كغ (انظر : « الطريق الملكية ») .

١٩٢٥ : الصين :

آذار : موت سون يات‌سن.

١٥ آذار : عامل صيني يُقتل على يد رئيس عمال ياباني في شنغهاي.

تظاهرات. « حركة ٣٠ أيار ».

٢٣ حزيران : تظاهرات في كانتون ضد الامتيازات الانكليزية والفرنسية، وسقوط (٥٠) قتيلاً في ٢٥ حزيران. إضراب عام في كانتون. (انظر « الظافرون »).

٥ تموز : إضراب عام في هونغ كونغ (انظر : « الظافرون »)

إضرابات في المدن الصناعية والمتظاهرون يطالبون بانهاء الاحتلال ؛ والسلطات القضائية الأجنبية و « بارجاع الامتيازات إلى الصين ».

تشكيل مجموعات معادية

في عيد الميلاد، يجري توقيف مالرو، وكلارا مالرو، وشوفاسّون في فنوم بنه، وتوجه إليهم تهمة السرقة.

١٩٢٤ (٢٢ عاماً)

دعوى فنوم — بنه (انظر دعوى غارين في : « الظافرون»)

مالرو يؤكد أن موقع بانتياي سري لم يكن وارداً في تصنيف الآثار، وأنه كان يمكن لأشخاص آخرين أن يذهبوا ليأخذوا التماثيل قبله، لو أدركوا جمالها، وقبلوا أن يتوغلوا في الغابة، ويطالب بملكية المنحوتات ؛ فيُحكمُ عليه بالسجن الفعلي، فيستأنف الحكم.

آب : يتدخل أندريه جيد، ومارسيل أرلان، وشارل دوبوس ومورياك، وأرغون وبروتون، وماكس جاكوب، وبولان، وغاليمار لصالح مالرو، بعد

للشيوعية داخل الكيومنتانغ وذلك في مدينتي شنغهاي وكانتون .

الهند الصينية :

نيسان : تمرد فلاحي كمبوديا في كرانغ ليو ضد الضرائب الباهظة .

تشرين الثاني : قضية متمردي كرانغ ليو .

(مقالات لمالرو في صحيفة « الهند الصينية المكبلة »

الاتحاد السوفييتي :

تروتسكي يُعفى من مناصبه كمفوض للشعب .

ايزنشتاين يخرج فيلم « الدارعة بوتمكين » ألمانيا .

هند نبزغ ، مرشح اليمين ، يُنتخب رئيساً بأغلبية /٥٠٠٠٠٠/ صوتاً فقط أكثر من ماركس ، مرشح الوسط والاشتراكيين .

إذ أن تيلمان لم ينسحب لصالح هذا الأخير .

أن استنفزتهم كلارا مالرو التي أفادت من قرار المحكمة بعدم وجود وجه للدعوى ضدها .

تشرين الثاني :

إعادة النظر بالدعوى في محكمة الاستئناف ، فيخفف الحكمُ على مالرو إلى عامٍ واحد من السجن ، مع وقف التنفيذ؛ فيطعن مالرو بالحكم عن طريق النقض ، ويعود إلى فرنسا ؛ لأن الدعوى تنقض لعيبٍ شكلي فيها ، ونحن نجهل تاريخ إصدار الحكم النهائي .

١٩٢٥ : مالرو يسافر مجدداً إلى الهند الصينية ، وينظم مع نغوين فو « حركة أنّام الفتيّة » ومع بول مونان صحيفة « الهند الصينية » التي تفضحُ بعنفٍ مختلف أشكال التعسف التي يقع الأناميون ضحيتها .

جيد ينشر : مزيفو النقود .

١٩٢٦ : الصين .

٢٠ آذار : حادث خطير لا يجري إيضاحه على نحو جيد بين شان كاي شيك والشيوعيين. وتقييد دور الشيوعيين في الكيو منتانغ .

تموز : الكيومنتانغ يشن حملة الشمال ، ويحرّر شا وهان كيو ، ونان شانغ ، ويحصل شان كاي شيك ، القائد الأعلى للكيو منتانغ ، على نفوذ كبير . أما الحكومة فتتخذ هان كيو مقراً لها .

فرنسا : هبوط قيمة الفرنك قيام حكومة بوانكاريه .

١٩٢٧ – الصين :

١٩ – ٢٣ شباط : إن الشيوعيين الذين يعتمدون على وصول جيوش الكيو منتانغ

وبرغم العديد من العقبات ، تشهد صحيفة الهند الصينية انتشاراً كبيراً ، بفضل دعم حركة « أنام الفتية » ، والقسم الجنوبي الفيتنامي للكومنتانغ لها .

آب : يتعين على صحيفة الهند الصينية أن تكف عن الصدور فتمنع عنها كل المطابع عملياً .

يتوجه مالرو إلى هونغ كونغ ثم إلى كانتون(١) ، فيضطلع فيها ، على ما يبدو لبعض الوقت، بمهام نائب مفوض للكيو منتانغ ، وكلف بالدعاية ، لدى بورودين (انظر « الظافرون ») .

لقد تمكن هو ورفاقه ، من الحصول على أحرف للطباعة ، فتعود صحيفة الهند الصينية إلى الصدور بامكانات موقتة ، وفي تشرين الثاني ، تحت العنوان الجديد : « الهند الصينية المكبلة» .

(١) انظر شهادة بول موران : أوراق الهدية ، صفحة : /١٧٠/

التاريخ	السيرة
القريبة جداً ، يحاولون القيام بانتفاضة لتحرير المدينة . ولا تتقدمُ جيوشُ شان كاي شيك فيسحق الجنرال الشمالي لي باو شينغ الانتفاضة .	كانون الأول :
١٠ – ١٧ آذار : يسار الكيومنتانغ يسحب من شان كاي شيك رئاسة المجلس السياسي .	حسب شهادة بول موران ، يمرض مالرو مرضاً شديداً فيقول عنه : « رأيته يدخل مثل شبح إلى المشفى الذي كنت راقداً فيه ، وكان شاحباً ، ومصاباً بالهزال ، وملاحقاً . كان مريضاً أكثر من جميع المرضى الآخرين بما لايقاس
٢١ آذار : بما أن جيوش الكيومنتانغ قريبة جداً ، يطلق الشيوعيون انتفاضة جديدة (انظر : « الوضع الإنساني ») .	(انظر : « الظافرون ») ويغادر مالرو سايغون ، وتستمر صحيفة « الهند الصينية المكبلة » في الصدور تحت إدارة نغوين فو .
٢٢ آذار : جيوش الكيو منتانغ تدخل إلى شنغهاي .	المدرسة الفرنسية للشرق الأقصى ترمّم معبد بانتياي سري وتصنفه ، فتعاد التماثيل إلى أمكنتها فيه . ١٩٢٦ (٢٤عاماً).
٢٩ آذار : الشيوعيون ينظمون بلدية مؤقتة .	كانون الثاني : يقول فالتر لانغلو : إنه من المؤكّد تقريباً أن مالرو يحضر بعض الاجتماعات العامة للكيو منتانغ ، في هونغ
١٢ نيسان : شان كاي شيك يعتقل ويذبح عدداً كبيراً من القادة	

العسكريين الشيوعيين (انظر : (« الوضع الإنساني ») ، ويفشل الإضراب العام الذي ينطلق لإنقاذهم ، ويعم القمع المناهض للشيوعية كافة أرجاء الصين ، وخصوصاً كانتون ، بعد قيام « كومونة كانتون » .

١٩٢٨ : الصين :

شان كاي شيك يحتل الصين الشمالية ، ويدخل إلى بكين ، ويتشكل جيش أحمر في هونان .

جيرودو يعرض مسرحيته « سيغفريد» وأندريه بروتون ينشر : « ناديا » .

١٩٢٩ :

الولايات المتحدة : ٢٤ تشرين الأول .

« الخميس الأسود » ، و« الأزمة » (ركود اقتصادي ، وبطالة ، وبؤس)

كونغ(١). وحين يعود إلى باريس يدير طبعات ألاسفير (على الكوكب) . والتي تنشر مؤلفات موزرياك ، وسامان ، وموران، وجيد ، وجيرودو .

آب : يتم نشر « إغراء الغرب » في دار غراسيّه ، (وكانت قد نشرت مقتطفات منه في نيسان) ، في « المجلة الفرنسية الجديدة » ، تحت عنوان « رسائل من صيني » .

١٩٢٧ : (١٥ عاماً)

مالرو ينشر : «كتابة من أجل دب يرتدي قطيفة مخملية» في مجلة («٦٠٠») ، و«رحلة إلى الجزر السعيدة » في مجلة « تجارة ») .

ويقدم في الكتاب الجماعي « كتابات » ، مع « أندريه شامسون ، وجان غرونييه ،

(١) تقدر جانين موسوز كذلك أن مالرو قد ذهب فعلا إلى الصين ، في بداية عام ١٩٢٦ ، بعد حديثها معه ، بتاريخ ١٨/٢/١٩٦٧ .

التاريخ	السيرة
الاتحاد السوفييتي : تروتسكي ينفى ، ويطرد بوخارين من المكتب السياسي ، ويجري تأميم الأراضي .	وجان بول جوف ، وهنري بوتي (البحث الهام) : « في الشبيبة الأوروبية » .
١٩٣٠ :	ويكلف لدى غاليمار بادارة الطبعات ، وبمعارض الفن ، ويحتج ضد منع فيلم : «الدارعة بوتمكين» ، في فرنسا .
الولايات المتحدة وألمانيا وانكلترا تعاني من «الأزمة» .	١٩٢٨ (٢٦ سنة) .
المانيا : فوز انتخابي للنازيين والشيوعيين .	مالرو ينشر « الظافرون » لدى غراسيه ، و« المملكة العجيبة » لدى غاليمار .
الهند الصينية : ثورات	« الظافرون » تلاقي نجاحاً كبيراً .
فرنسا :	١٩٢٩ (٢٧ عاماً) :
التصويت على التأمينات الاجتماعية :	نجاح « الظافرون » يستمر (مناقشات في المجلة الفرنسية الجديدة) ، ونشر مقاطع منها لم تصدر بعد في طبعة بيفور .
صدور البيان السوريالي الثاني :	١٩٣٠ (٢٨ عاماً) :
جيونو ينشر : «الحِلف» .	مالرو ينشر « الطريق الملكية » التي تقدم باعتبارها المجلد الأول
١٩٣١ :	
اليابان تحتل منشوريا :	
شان كاي شيك يسترجع بعض الأراضي التي تنازلت عنها الصين للأجانب ، ولكن	

امتيازات شنغهاي تظل على على حالها :

في إسبانيا : تحل الجمهورية محل الملكية .

سانت أكزوبري ينشر : « طيران الليل »

أراغون يترك الحركة السوريالية.

١٩٣٢ :

ألمانيا : إعادة انتخاب هندنبرغ : حل الرايخستاغ مرتين . انتخابات تموز : (النازيون يحرزون تقدماً) ، وفي تشرين الثاني (تراجع النازيين) .

الاتحاد السوفييتي :

نفي زينو فييف وكامينييف و« القضاء على الكولاك (كبار الملاكين)

جول رومان ينشر الأجزاء الأولى من روايته : « الرجال الحسنو النوايا » .

من « قوى الصحراء » ، ويسافر إلى الهند ، واليابان ، والولايات المتحدة .

انتحار والد مالرو) انظر : أخشاب جوز الألتا نبرغ و « المذكرات المخالفة » .

١٩٣١ (٢٩ عاماً) :

المعرض الغوطي — البوذي ، والمعرض اليوناني — البوذي ، (المجلة الفرنسية الجديدة) .

نقاش بين تروتسكي ومالرو حول « الظافرون »

مالرو يرجع الى الصين

١٩٣٢ (٣٠ عاماً) :

الأعمال الفنية القوطية — البوذية لهضبة البامير (المجلة الفرنسية الجديدة) مالرو يكتب مقدمة : « عشيق الليدي شاترلي » لـ هـ.د لورنس .

١٩٣٣ (٣١ عاماً) :

معرض فوتربيه (المجلة الفرنسية الجديدة) .

التـــاريخ

١٩٣٣ :

ألمانيا : هتلر يصبح مستشاراً للرايخ ، ويعلّق البرلمان ويُلغي الحكم الذاتي للاندير ، ويحل الأحزاب ، ويعتقلُ المناضلين في صفوفها :

٢٧ شباط : حريق الرايختساغ :

الولايات المتحدة :

روزفلت ينتَخب رئيساً ، فيخفّض قيمة الدولار بنسبة ٢٠٪ ، وهذا ما يسمى بالعقد الجديد (أي إصلاحات روزفلت الاقتصادية : م : ز . ع)

أراغون ينشر : « أجراس بال » .

١٩٣٤ :

ألمانيا : هتلر يوعز باغتيال روم ، وفون شليشر ، والعديد جداً من مناضلي الأحزاب

السـيرة

مالرو يقدم لـ : « المحراب » لوليام فوكنر

مالرو ينشر : « الوضع الإنساني » التي تلاقي نجاحاً كبيراً ويحصل على جائزة غونكور في كانون الأول .

١٩٣٤ (٣٢ عاماً) :

الحزب الشيوعي الفرنسي يطلب من مالرو أن يذهب إلى برلين ، برفقة أندريه جيد ، حاملاً العرائض التي جُمعت ضد اعتقال ديمتروف ؛ فيتجه الرجلان إلى برلين .

رسالة إلى غوبلز (٤ كانون الثاني) .

مالرو يرئس اللجان العالمية لإطلاق سلاح ديمتروف ، وتيلمان ، ويساهم في تأسيس الرابطة العالمية المناهضة للا سامية.

شباط : مالرو وكورنيليون مولينييه يطيران فوق اليمن ،

التـــاريخ	الســـيرة
السياسية . (« انظر : « زمن الاحتقار ») .	وفوق صحراء الدهناء ، ليحاولا اكتشاف العاصمة القديمة لملكة سبأ
النمسا : مقتل دولفوس ،	(مقالات في مجلة) : لانترانسيجان (المتشدّد) في أيار .
فرنسا : قضية ستافينسكي.	الالتقاء بأبي الهول في مصر .
الحركات المؤيدة للفاشية : يوم ٦ شباط الردّ عليه : في يوم ١٢ شباط . تجمعات باتجاه اليسار .	(انظر : تحول الآلهة) . وأثناء العودة ، تتعرض الطائرة لعاصفة عنيفة فوق الأوراس ؛ فيكتب مالرو : « العودة إلى الحياة » في بونّ (حالياً عنّابة :م:ز.ع) (انظر : « زمن الاحتقار » و«أشجار جوز الألتا نبرغ» » و« المذكرات المخالفة ») :
الاتحاد السوفييتي : يُعترف به من الولايات المتحدة ، ويدخل إلى جمعية الأمم .	آب : خطاب مالرو في مؤتمر الكتاب السوفييت في موسكو ، وخطاب تقريري في الميتيالبتية (جمعية التضامن) في باريس . الالتقاء بغوركي .
١٩٣٠ ــ ١٩٣٤ : خمس « حملات إبادة » يقوم بها شان كاي شيك ضد الشيوعيين تبوءُ بالفشل .	١٩٣٥ (٣٣ عاماً)
١٩٣٤ ــ ١٩٣٦ : ماوتسي تونغ يقود « المسير الطويل » (١٠ آلاف كيلو متر) (انظر : المذكرات المخالفة) وكافة	مالرو ينشر : « زمن الاحتقار » (غالّيمار) .

التــاريخ	السـيرة

القطعات الشيوعية تتجمع مجدداً شمالي شين سي .

١٩٣٥ ، المانيا : :

هتلر يُعيد تطبيق الخدمة العسكرية الإلزامية خلافاً لبنود معاهدة فرساي ، ويوقّع اتفاقية بحرية مع بريطانيا العظمى .

صدور التشريعات العنصرية تشريعات نورمبرغ .

فرنسا : تشكيل الجبهة الشعبية .

إيطاليا : موسوليني يهاجم إثيوبيا :

الاتحاد السوفييتي : «بدء التطهيرات الكبرى » .

جيرودو : يعرض مسرحية « حروب طروادة لن تقع » .

مالرو يقدم لـ : « الهند الصينية S.O.S » (أي نستغيث) . من تأليف أندريه فيوليس .

حديث مع د.هـ. لورنس .

خطاب في المؤتمر الدولي للكُتّاب من أجل الدفاع عن الثقافة ، في باريس .

مالرو يبدأ العمل في كتابه : « سيكولوجيا الفن »

١٩٣٦ (٣٤عاماً)

مالرو يقدم باللغة الفرنسية كتاب بوخارين : « المسائل الأساسية للثقافة المعاصرة »

حزيران :

خطاب في المؤتمر العالمي للكتّاب من أجل الدفاع عن الثقافة ، في لندن .

مالرو يشكل السرب العالمي « إسبانيا » ؛ ويجري مفاوضات من أجل تزويد حكومة الجمهورية بالأسلحة والطائرات . ويقوم بـ ٦٥ مهمة جوية . ويشترك في معارك ميدولان ، وطليطلة ،

١٩٣٦ ــ ألمانيا :

هتلر يعيد إدخال النظم العسكرية إلى رينانينا .

الاتحاد السوفييتي :

دعوى الـ١٦ (كامينييف، زيوفييف ...)

فرنسا :

انتصار الجبهةالشعبية في أيار ، الإضرابات الكبرى ، واتفاقيات مانيينون .

جيد ينشر : « العودة من الاتحاد السوفييتي »

ومارتان دوغار : صيف العام ١٤ (أي ١٩١٤) إسبانيا، شباط : انتصار الجبهة الشعبية .

١٧ ــ ١٨ تموز :

فرانكو ، وسانجورجو ، ومولا يتمردون على الجمهورية . ويحتل فرانكو بورغوس ،

ومدريد ، وتيروبيل (انظر : « الأمل ») ، ويُجرحُ مرتين ..

(١٩٣٧ (٣٥ عاماً)

مالرو يقوم بحملة دعائية في الولايات المتحدة الأمريكية لاحصول على الأموال والدعم لإسبانيا الجمهورية .

مالرو ينشر : « الأمل » .

كما ينشر في مجلة «فيرف » النص الأول لكتابه « سيكولوجيا الفن » .

١٩٣٨ (٣٦ عاماً)

رواية « الأمل » تقرأ وتناقش بشغف ، ويصبح مالرو صديقاً لبرنانوس . ويصور في إسبانيا « سيراد وتيروبيل » ، وتنشر مجلة « فيرف » نصوصاً جديدة له في الفن « سيكولوجياالنهضات» التمثيل في الشرق وفي الغرب . ويكتب : « دراسة حول لاكلو ، وهي التي ستُنشر في « لوحة الأدب الفرنسي » ، لدى غاليمار عام ١٩٣٩

التــاريخ

وسالامانكا ، وإشبيليه ، ويسيطر على باداجوز ، وإيرون ، وسان سيباستيان ، وطليطلة . ولكنه لا يتوصل إلى احتلال مدريد .

(انظر : « الأمل ») .

الألوية الأممية تتشكل في تشرين الأول .

١٩٣٧ — اسبانيا :

الجمهوريون الإسبان ، ينتصرون في غوادا لاجارا ، ويحررون مدريد . (انظر « الأمل ») .

انقسامات خطيرة جداً بين الجمهوريين :

فرانكو يستولي على بيلباو :

معركة يترويبل :

الاتحاد السوفييتي :

دعوى الـ١٧ (راديك ،

السـيرة

١٩٣٩ (٣٧ عاماً)

احتلال كاتالونيا ؛ ويتعين على مالرو أن يوقف إخراج فيلمه : « سييرا دو تيرويبل » ، ومع ذلك ، فهو يركّب الفيلم الذي يُفترض أن يكون ناجزاً في آب ، ولكن الرقابة تمنعه .

ومع أن مالرو مسرحٌ ، فهو ينخرط كجندي بسيط في سلاح مدرعات الهجوم ، في بروفان . ويكتب : « الحرب المثيرة للضحك » .

١٩٤٠ (٣٨ عاماً)

مالرو يشترك في الهجمات التي تشنها المدرعات ويروي أحد هجماته بصورة مطوّلة في : « أشجار جوز الألتانبرغ » ، ويقعُ في الأسر ، ولكنه ينقل من سانس إلى شارتر عملية أسره ، من خلال روايته : « أشجار جوز الألتا نبرغ » .

يهرب في تشرين الثاني متخفياً

بياتاكوف :..) ، محاكمة توكاتشيفسكي :

الصين : الحرب الصينية — اليابانية .

١٩٣٨ . إسبانيا :

فرانكو يستعيد يترويبل ، ويقسم أراضي الجمهورية إلى شطرين في فيناروز :

الاتحاد السوفييتي :

محاكمة الـ ٢١ (بوخارين وريكوف :..) التطهير الجماعي

ألمانيا : هتلر يحتل النمسا في آذار : ويتخلى مؤتمر ميونيخ عن أرض السو ديت إلى ألمانيا :

١٩٣٩ : فرانكو يستولي على برشلونة ، في كانون الثاني ، وعلى مدريد في آذار :

في زي نجار ويلتحقُ بالمنطقة الحرّة ، ويكتب إلى ديغول ، ويعرضُ عليه أن يقاتل في سلاح طيران فرنسا الحرة ، ولا يتلقى رداً ؛ فيظن أنه قد استبعد بسبب اشتراكه في حرب إسبانيا . وفي الواقع ، فان الشخص الذي كان مكلفاً بإيصال الرسالة قد ابتلعها قبل أن تعتقله قوات الشرطة .

وحسب شهادات إيمانويل داسيتيه ، وجان كاسّو ، يرفض مالرو حينذاك أن يدخل في صفوف المقاومة الداخلية التي قلما كان يؤمن بفعاليتها في تلك الفترة .

ويكتب : « الصراع مع الملاك » ، ويعمل في كتابه : « سيكولوجيا الفن » .

١٩٤٣ (٤١ عاماً)

مالرو يؤلف كتاباً عن ت. ا. لورنس ، ولا يتبقى منه غير فصلٍ واحد ، إلا أنه على

التــاريخ

آذار : سلوفاكيا تعلن استقلالها ، وهتلر يغزو بوهيميا.

٢٣ آب : الاتفاق الألماني–السوفييتي .

الأول من أيلول :

هتلر يهاجم بولونيا .

٣ أيلول : فرنسا وبريطانيا تعلنان الحرب على هتلر .

١٧ أيلول : الجيوش الروسية تحتل الأراضي البولونية الواقعة شرقي خط كيرزون .

تشرين الثاني : الجيوش الروسية تهاجم فنلنده التي تقاومها

١٩٤٠ – نيسان : هتلر يغزو الدانمارك والنرويج :

أيار : هتلر يغزو هولنده وبلجيكا وفرنسا :

حزيران : احتلال فرنسا

السـيرة

درجة كبيرة من الأهمية وهو : تأملات لورنس حول إخفاقه المضاعف : السياسي والأدبي » ، وهو يحمل عنوان : « أكان ذلك كل ما في الأمر إذن ؟ » ، وقد نُشر عام ١٩٤٦ .

وينشر القسم الأول من « الصراع مع الملاك » في لوزان ، في طبعات « أوبيني » . أما القسم الذي يحملُ عنوان « معسكر شارتر » فينشر في الجزائر في طبعة « فونتين » .

الألمان ينهبون مكتبة مالرو ، ويُتلفون تتمة : « الصراع مع الملاك » ، ونصوصاً أخرى عديدة في الفن .

١٩٤٤ (٤٢ عاماً)

إن مالرو الذي يطلق عليه رفاقه اسم بيرجيه بطل رواية : « أشجار جوز الألتانبرغ » ، يقود «١٥٠٠» رجل مقاومة ، في مناطق لو ، ودوردونيا ، ولاكورّيز .

التاريخ	السيرة
بكاماها ، وديغول يطلق نداء ١٨ حزيران ، وبيتان يوقع الهدنة ، وتحل الدولة الفرنسية محل الجمهورية الثالثة . تموز — آب : معركة انكلترا . ١٩٤١ ، نيسان : هتلر يغزو يوغسلافيا ، واليونان ، ويستولي حتى على كريت ، ويصل رومل إلى مسافة ١٠٥ كيلو مترات من الاسكندرية . حزيران : هتلر يغزو روسيا ، ويصل قبالة لينينغراد ويستولي على كييف ويتم إيقافه أمام موسكو . كانون الأول : اليابان تهاجم بيرل هاربور ، والولايات المتحدة تدخل الحرب .	في ٢٣ تموز ، يصاب مالرو بجراح ، وتعتقله وحدة ألمانية ، ويجعلونه يمرّ من أمام فصيل إعدام لإخافته . ثم ينقل إلى تولوز ، ويمثل أمام الغستابو الذي يعذّب رجال مقاومة أخرين أما هو فلا يتعرض للتعذيب ، وتختلط إضبارته باضبارة أخيه رولان (انظر : المذكرات المخالفة) . ويغادر الألمان تولوز على عجل لئلا يتعرضوا للانفصال عن الجيش : فيصبح مالرو طليقاً . أما شقيقاه رولان وكلود فيتم نقلهما ، ولا ينجوان من الموت . وتصابُ زوجته كلوتيس بجراح خطيرة في بريف — لاغايارد ، وتموت في المنتوصف الذي تنقل إليه . أيلول : مالرو يشكل فرقة الألزاس واللورين التي تتألف من ألزاسيين ولورينيين هاربين إلى القطاع

التاريخ	السيرة
أراغون ينشر : « انكسار القلب » .	الجنوبي ، ومن محاربي المقاومة السرية ، وتحرر الفرقة دانماري ، وسانت ـ أوديل ، وموطوس ، وتدافع عن ستراسبورغ .
١٩٤٢ :	١٩٤٥ (٤٣ عاماً)
اليابان تحتل جنوب شرقي آسيا بكامله .	٢٥ كانون الثاني : في مؤتمر حركة التحرر الوطني ، يساهم مالرو في تجنيب هذه الحركة الاندماج بالجبهة الوطنية (التي يقودها الحزب الشيوعي فعلاً).
هتلر يصل إلى القوقاز ، ويتوقف قبالة ستالينغراد .	« فمن الصواب حالياً أن تقول الحكومة : إن الحرب والثورة متناقضتان » (انظر : «الأمل») ،
تشرين الثاني : إنزال بحري أنجلو ـ أمريكي في أفريقيا الشمالية ، وهتلر يحتل المنطقة الحرة .	ويطالب مالرو بتأميم المصارف ، ويجتاز الرين مع وحدته ، ويدخلان إلى شتوتغارت ، وإلى نورمبرغ (انظر : « المذكرات المخالفة ») .
ألبير كامو ينشر : « الغريب » و « أسطورة سيزيف » ، ومونتيرلان يعرض مسرحية « الملكة الميتة » .	حزيران : انشقاق حركة التحرر الوطني ، أما مالرو ، الذي يشعر بالخيبة من جراء المساومات السياسية ، فلا ينخرط
١٩٤٣ ، شباط : أول هزيمة برية كبيرة	في المجموعة المؤيدة للاشتراكيين

للنازية في ستالينغراد ، وهجمات يشنها السوفيات .

تموز : إنزال يقوم به الحلفاء في صقلية .

الأدب السري : فيركور « صمت البحر » ،

أراغون : « ديانا الفرنسية » ، ومتحف غريفان » ، وإلوار : « في لقاء الألمان » وموررياك « الدفتر الأسود » .

سارتر ينشر « الوجود والعدم » ويعرض مسرحية « الذباب » ثم : « جلسة سرية »

أيار (١٩٤٤) ، وأنويْ يعرض : « أنيتغونا » .

١٩٤٤ :

مؤتمر أفريقي في برازافيل ، وديغول يعلن بسياسة فرنسية

ولا في المجموعة المؤيّدة للشيوعيين . كمايرفض الانضمام إلى المثقفين المتجمعين حول سارتر لتأسيس مجلة « الأزمنة الحديثة » بل يُحيي في قاعة بلييل ذكرى ليو لاغرانج ، وزير الرياضة ، وأوقات الفراغ لدى الجبهة ، الشعبية في خطابه : « كنّا نحبه»

اللقاء الأول بين ديغول ومالرو : « فلم يبادر أحد إلى تنظيم هذا اللقاء ، وقد تمّ ذلك بواسطة شخص ثالث (على نحو يدعو إلى التساول » (انظر : « المذكرات المخالفة »)

آب :

مالرو يُعينُ مستشاراً فنياً للجنرال ديغول .

٢١ تشرين الثاني :

يعين وزيراً للإعلام (وهو الوزير الوحيد غير السياسي إلى جانب خمسة شيوعيين ، وخمسة اشتراكيين ، وخمسة من حركة الجمهورية الشعبية ، وثلاثة من

جديدة في أراضي ماوراء البحار .

آذار : هتلر يحتل هنغاريا .

٤ حزيران : الاستيلاء على روما .

٦ حزيران : إنزال الحلفاء في النورماندي .

٣٠ تموز : خرق أرّومانش(١) .

١٨ — ٢٥ آب : انتفاضة باريس وتحريرها .

الأول من آب — ٥تشرين الأول :

انتفاضة وارسو ، ولكن هتلر يجد الوقت لسحق المقاومة وتدمير المدينة .

تشرين الأول – في فرنسا : حل الميليشيات الوطنية التي يتعين عليها أن تندمج في الجيش والنّساء يُمنحن حق التصويت ، ويتم تأميم مصانع رونو ومناجم الفحم في الشمال .

من اتحاد الديمقراطيين الاشتراكيين ووزير راديكالي واحد ، ووزير معتدل) .

مالرو يفكر بتصوير فيلم عن صمود رجال المقاومة السرية فيُظهِرُ فيه « هؤلاء الرجال المدهشين الذين اجتازوا ، وهم عراة ، مستنقعات متجمدة ، والذين وصلوا ، وقد تجمدت أقدامهم وأنوفهم .. ولكنهم يحملون بنادقهم الرشاشة ، ونشيد ونشيد نشيد مواقع المقاومة(٢)

١٩٤٦ (٤٤ عاماً)

٢٠ كانون الثاني : إن مالرو الذي كان أحد الوزراء المطلعين على قرار ديغول ، يترُكُ السلطة في نفس الوقت الذي يتركها فيه ديغول .

مالرو ينشر : « أكان ذلك كل ما في الأمر إذن ؟ » . وقد كتبه عام ١٩٤٣ ، وهو الفصل

(١) بلدة في الكالفادوس في فرنسا ، وقد جرى إنزال الحلفاء فيها (م : ز.ع) .

(٢) روجيه انتيفان : نهاية مرحلة الشباب : حوار مع مالرو ، صفحة ٥٧ .

التدخل البريطاني في اليونان
اختفاء سانت أكزوبري أثناء طيرانه .
ألبير كامو يدير صحيفة « كومبا » .
١٩٤٥ — شباط : مؤتمر يالطا .
آذار : الحلفاء يجتازون الرين ، وفرنسا تعد الهند الصينية بالاستقلال .
نيسان : موت روزفلت ، والروس يصلون إلى برلين ، وهتلر ينتحر .
١٨ أيار : ألمانيا تستسلم دون قيد ولا شرط .
انتفاضة تندلع في الجزائر ، ويجري قمعها .
حزيران : وضع حدود للمناطق التي احتلت في ألمانيا .
١٦ تموز : تجربة القنبلة الذرية الأولى .
١٧ — ٣١ تموز : معاهدة بوتسدام ، وتحذير اليابان .

الوحيدُ المنشور حالياً في كتاب : « شيطان المطلق » ، كما ينشر : « لوحة إجمالية لسيكولوجيا السينما والمشاهد المختارة التي تحتوي مقتطفات هامة من كافة رواياته ، خصوصاً من رواية : « الأمل » ، وينشر مقدمة : « زمن الاحتقار » و « اللوحة الإجمالية لسيكولوجيا السينما » مع دراسة عن لاكلو .

٤ تشرين الثاني : مالرو يلقي في السوربون محاضرة تحدث صدى كبيراً ، وهي « الإنسان والثقافة الفنية » .

١٩٤٧ (٤٥ عاماً)

٧ نيسان : ديغول يعلن في ستراسبورغ عن إنشاء تجمع الشعب الفرنسي ، ويصبح مالرو مندوباً للدعاية ، وسوستيل أميناً عاماً .

٦ آب : هيروشيما .

٨ آب : الاتحاد السوفييتي يعلن الحرب على اليابان ويحتل منشوريا .

٩ آب : ناغازاكي .

١٢ آب : اليابان تستسلم .

١٤ آب : ستالين يعترف بشان كاي شيك زعيماً أوحداً للصين .

تشرين الأول : استفتاء على التخلي عن دستور الجمهورية الثالثة ، والأغلبية الكبرى تصوت بـ « نعم » .

موت بول فاليري .

ألبير كامو يعرض مسرحية « كاليغولا » .

١٩٤٦ —

٢٠ كانون الثاني : ديغول يتخلى عن السلطة ويُدين « النظام المقتصر على الأحزاب » .

تشكيل حكومة فيلكس غوان .

٢ تموز : خطاب لمالرو في فيل — ديف .

تشرين الأول : الانتخابات البلدية . وفوز كبير جداً لتجمع الشعب الفرنسي (٣٨٪ من الأصوات) .

طبعات سكيرا في جينيف تُصدر رسومات غويا في متحف ألبرادو ، والكتاب الأول من سيكولوجيا الفن « المتحف الخيالي » .

١٩٤٨ (٤٦ عاماً)

كانون الثاني : أندريه مالرو يشكل مع ألبير أوليفييه ، وباسكال بيا (اللذين لا ينتميان إلى تجمع الشعب الفرنسي) يشكل : التجمع ، ويقدّم فيه مقالات سياسية عديدة ، ويعرض فيها خصوصاً حواراته الهامة مع بورنام .

التاريخ	السيرة
٦ آذار : الهند الصينية : اتفاقات بين سانتوني وهوشي منه ٥ أيار : الاستفتاء يرفض المشروع الأول لدستور السنة الرابعة (فقد دعا ديغول وحركة الجمهورية الشعبية إلى التصويت بـ«لا » .) ٢٦ حزيران : خطاب ديغول في بايو . ٣ تشرين الأول : المشروع الثاني لدستور الجمهورية الرابعة يجري تبنّيه عن طريق استفتاء ، وقد دعا ديغول للتصويت بـ«لا » عليه) . ٢٣ تشرين الثاني : قصف هايفونغ على يد القطعات الفرنسية فلا تدومُ حكومة ليون بلوم شهراً واحداً . ١٩٤٧ : الحرب في الصين وفي الهند الصينية وإندونيسيا ، وفلسطين ، واليونان .	١٧ شباط : خطاب في فيل — ديف . ٥ آذار : نداء إلى المثقفين في قاعة بلبيل . وسيكون نص هذا النداء فيما بعد تذييلاً يردُ في نهاية رواية « الظافرون » . ١٣ آذار : مالرو يتزوج عازفة البيانو مادلين ليو ، وهي أرملة شقيقه رولان ، وتنشر طبعات سكيرا الكتاب الثاني من « سيكولوجيا الفن » : « الإبداع الفني » . ١٩٤٩ (٤٧ عاماً) مالرو يؤسس مجلة « حرية الفكر » التي يديرها كلودمورياك آذار : الانتخابات الإقليمية ، وتجمع الشعب الفرنسي يخسر أصواتاً .

آذار : الوزراء الشيوعيون يُستَبْعَدون من الحكومة .

حزيران : مخطط مارشال : الاتحاد السوفييتي يرفُضُه ، ويتبعه في كل ذلك كل من يوغوسلافيا ، وتشيكوسلوفاكيا

آب : استقلال الهند وباكستان ، ويجري التقسيم على النحو التالي : ٧ ملايين هندوسي يغادرون الباكستان ، و٦ ملايين مسلم يغادرون الهند . البؤس ينتشر (انظر : « المذكرات المخالفة ») .

أيلول : إنشاء الكومنفورم محاكمة بيتكوف في بلغاريا ، ومانيو في رومانيا .

ألبير كامو يترك صحيفة « كومبا » ، وينشر رواية : « الطاعون » .

ومونتيرلان يعرض على المسرح « سيد سانتياغو » .

١٩٤٨ :

الحرب في الصين والهند

طبعات سكيرا تنشر الكتاب الثالث من « سيكولوجيا الفن » : « عُملة المطلق » كما تنشر طبعات غراسيه رواية «الظافرون» مع التذييل الهام عام ١٩٤٨ ، وذلك بمقاس كتاب الجيب .

١٩٥٠ (٤٨عاماً) :

حزيران — تموز — آب : مالرو يمرض مرضاً خطيراً . وطبعات سكيرا تنشر : زُحَل : وهي دراسة عن غويا .

مقالات عديدة ينشرها مالرو في كاروفور (المفترق) .

نشر شهادة مالرو عن ليولا غرانج : « كنا نحبه » (طبعته : شركة الكتاب) .

١٩٥١ (٤٩ عاماً) .

حزيران : مالرو يرفض

الصينية ، وفلسطين ، واليونان وكشمير .

شباط : تشيكو سلوفاكيا تصبح دولة ديمقراطية شعبية . وفاة مازاريك . وكوريا الشمالية تصبح دولةً ديمقراطية شعبية .

٢٠ حزيران : إصلاح نقدي في ألمانيا الغربية .

٢١ حزيران : الحصار الكامل لبرلين على يد الروس (والذي سيستمر حتى أيار ١٩٤٩) .

الحرب الباردة .

٢٨ حزيران : الكومنفورم يدين تيتو . .

ج . ب . سارتر يعرض مسرحية : « الأيدي القذرة » .

١٩٤٩ : الصين : ماو يستولي على بكين ، ونانكين ، وهان كيو ، وشنغهاي ، وكانتون ، ويصل حتى حدود الهند — الصينية التي لاتزال في حالة حرب .

أن يكون مرشحاً لتجمع الشعب الفرنسي الذي أصبح حزباً مثل بقية الأحزاب .

الانتخابات التشريعية تتم ، ولا يُحرز تجمع الشعب الفرنسي أكثر من ٢١٪ من الأصوات التي هي في أغلبها أصوات اليمين ويصوت ٢٧ نائباً من نوابه لصالح بينيه ، ويفقد مالرو الأمل في تجمع الشعب الفرنسي منذ ذلك الحين .

تصدر : « أصوات الصمت » عن دار غاليمار . وهي تتضمن النصوص التي سبق نشرها في « سيكولوجيا الفن » ، بعد مراجعتها ، وإجراء إضافات عليها .

١٩٥٢ (٥٠ عاماً)

مالرو ينشر الجزء الأول

القنبلة الذرية السوفييتية ، الأولى (التي كشف الأمريكيون النقاب عنها) . أما روسيا فلا تُعلن عنها إلا في عام ١٩٥٣

محاكمة راجك في هنغاريا، وكوستوف في بلغاريا وإدانتهما ؛ وكوستوف هو أحد الذين فُرض عليهم وحدهم أن يسحبوا « اعترافاتهم » علناً .

غومولكا يدخل السجن ، ويصبح روكوسوفسكي مارشالاً لبولونيا .

١٩٥٠ – كانون الثاني : انكلترا تعترف بالصين الشيوعية أما فرنسا فترفض ذلك ، لأن ماو يعترف بالفييتنام .

نيسان : مخطط مونيه – شومان لتشكيل تجمع الفحم و الفولاذ .

حزيران : حرب كوريا : قطعات كوريا الشمالية تتقدم بسرعة كبيرة جداً في كوريا الجنوبية ، وتدخل مسلّح من

من « المتحف الخيالي للنحت العالمي » ، ويكتب مقدمات للكتب التالية : فان غوغ ومصور أنفير – الأعمال التصويرية الكاملة لليونار دافنشي ؛ وكل أعمال فيرمير دو ديلفت ، و« باريس بيننا » من تأليف ب.دو بواديفر . وكتاب : « كدمعة في المحيط » لمانيس سوبيرب .

ويُلقي خطاباً في المؤتمر المكرس لحرية الثقافة .

١٩٥٣ (٥١ عاماً) :

نيسان – أيار : الانتخابات البلدية – وهزيمة « تجمع الشعب الفرنسي » بصورة ساحقة ، وديغول يحل أعضاء تجمع الشعب الفرنسي من ارتباطهم به .

مالرو يقدم لكتاب « أوهام

منظمة الأمم المتحدة ، والقوات الأمريكية تشكل الجزء الأكبر منه .

تشرين الأول : الصين تحتل التيبت .

١٩٥١ : حرب كوريا ، وخسائر أمريكية فادحة ، وماك آرثر يهدّد بقصف المطارات الصّينية ، والصّينيون يهددون بقصف المطارات الأمريكية في اليابان . وترومان يستدعي ماك آرثر . ويستعيد الأمريكان الأرض التي فقدوها وتستقر الأمور على خط العرض ٣٨ .

اتفاق عسكري بين الولايات المتحدة ويوغسلافيا .

محاكمة كليمانيتس في تشيكوسلوفاكيا .

محاكمة روزبزغ في الولايات المتحدة .

وفاة أندريه جيد .

ألبير كامو ينشر : « الإنسان المتمرد » ، وجدال

أم وقائع » للجنرال جاكو الذي كان يقود لواء الألزاس واللورين ويعلّق على كتاب غايتان بيكون : « مالرو من خلال نفسه» .

١٩٥٤ (٥٢ عاماً) :

مالرو ينشر الجزئين : الثاني والثالث من « المتحف الخيالي للنحت العالمي وهما : « من النقوش البارزة إلى المغائر المقدسة ، والعالم المسيحي » .

يقدم لكتاب «سان جوست» أو « قوة الأشياء » لألبير أوليفييه» ، ويلقي خطاباً في المؤتمر الدولي للفن ، والتاريخ ، وعلم المتاحف في احتفالات الذكرى الخمسين لجامعة كولومبيا ، ولإعادة فتح صالات الرسم في متحف الميترو بوليتان (العاصمة) أحاديث ومقالات هامة في الإكسبريس

يثور بين سارتر وكامو .

١٩٥٢ : هزائم فرنسية في الهند الصينية .

في تونس :

عمليات تمشيط في رأس بون ، وبورغيبه يدخل السجن.

ويصل نجيب إلى السلطة في مصر

وفي الاتحاد السوفييتي ، تجري محاكمة عدد من الاسرائيليين ، ومحاكمة سلانسكي في تشيكو سلوفاكيا .

سارتر يعرض على المسرح : « الشيطان والإله الصالح » .

١٩٥٣ : كانون الثاني :

« مؤامرة المآزر البيضاء » في الاتحاد السوفييتي ، حيث يتهم عدد من كبار الأطباء بأنهم أرادوا قتل المسؤولين .

آذار : موت ستالين .

أيار : إعادة الاعتبار للأطباء المتهمين في كانون الثاني

حزيران :

عصيانات في برلين الشرقية وفي بيلسن .

ومالرو يساند فيها بوضوح حكومة منديس فرانس ، وذلك دون أن يكفّ عن الإعلان أنه ديغولي.

رواية « الوضع الإنساني » تتحول إلى مسرحية تُعرض على مسرح هيبيرتو ، وقد أعدّ الاقتباس تيري مولينييه (وكتب مالرو نفسه المشهد الأخير منها) .

حوار بين مالرو ومونتيرلان حول راسين .

مالرو يقدم لرواية « الدم الأسود » من تأليف ل. غيّو ، ولألبوم صور كبير (أعدّ الغلاف ورسومه شاغال ، وكتب النص أندريه نيهير) .

١٩٥٦ (٥٤ عاماً)

خطاب في ستوكهولم بمناسبة الذكرى) ٣٥٠ (لولادة رامبرانت)

التاريـخ	السـيرة
تموز : استبعاد بيريا . أيلول : خروتشوف أميناً أولاً للجنة المركزية . في المغرب : لا نبيل بيدو تنفي السلطان . موت بول إيلوار . ١٩٥٤ : الهند ـ الصينية : الهزيمة الفرنسية في ديان بيان فو تشكيل حكومة منديس فرانس . السلام في الهند ـ الصينية . وعد لتونس بالاستقلال . تدابير ضد الإدمان على الكحول (ستساهم في القضاء عليه) . الأول من تشرين الثاني : بداية الانتفاضة الجزائرية . الاتحاد السوفييتي : السّنة التي يحكم فيها مالينكوف . الولايات المتحدة : إيقاف أوبنهيمر عن عمله ، والتدخل في غواتيمالا .	١٩٥٧ (٥٥ عاماً) مالرو ينشر : « تحول الآلهة » . ١٩٥٨ (٥٦ عاماً) ١٧ نيسان : على إثر مصادرة الحكومة لكتاب « المسألة » لهنري أليغ : فان مالرو ، ومارتان دوغار ، وموررياك ، وسارتر ، « ينذرون السلطات العامة ، باسم إعلان حقوق الإنسان والمواطن ، بأن تدين دون لبس ، استخدام التنكيل الذي يسيء إلى سمعة القضية التي تدعي خدمتها» . ديغول يعود إلى السلطة ، ومالرو يهرع من البندقية ، ويجري لقاء بين ديغول ومالرو (انظر : المذكرات المخالفة) .

التاريخ	السيرة
مصر : عبد الناصر يحلّ محل نجيب . 1955 : سقوط حكومة منديس فرانس — حزب الجزائر . خروتشوف وبولغانين يذهبان لتحية « الرفيق تيتو » ، في بلغراد . إدغار فور يعيدُ سلطان مراكش إلى منصبه ، بعد أن كان منفياً على يد بيدو ، ويشرع بالمفاوضات حول الاستقلال ، من خلال الارتباط المتبادل » . ألبير كامو ينشر : « الصيف » ومونتيرلان يعرض مسرحية : « بور روايّال » : 1956 — شباط : تقرير خروتشوف الذي يُدين فيه جرائم ستالين : نيسان : حل الكومنفورم : تشرين الأول — تشرين الثاني : التدخل المسلح لفرنسا وانكلترا وإسرائيل في مصر . أراغون ينشر ديوانه :	الأول من حزيران : مالرو يعين وزيراً منتدباً إلى رئاسة المجلس . 24 حزيران : مؤتمر صحفي يعقده مالرو ، ويقول فيه : « إن أي عملٍ تنكيلي لم يحدث على حد علمي ، ولا على حدّ علمكم ، منذ مجيء الجنرال ديغول إلى الجزائر ، ولا ينبغي أن يحدث مثل هذه الأعمال من الآن وصاعداً . وإنني أدعو هنا ، باسم الحكومة ، الكتاب الفرنسيين الثلاثة الذين منحتهم جائزةُ نوبل نقوداً خاصاً ، والذين سبق لهم أن درسوا هذه المسائل ، وهم : روجيه مارتان دوغار ، وفرانسوا مورياك ، وألبير كامو ، لتشكيل

السيرة	التاريخ

« الرواية التي لم تنجز » .
١٩٥٧ — حرب الجزائر تزداد ضراوةً .
١٩٥٨ — على مدار السنة ، إجراء تفجيرات ذرّية سوفييتية ، وأمريكية ، وإنكليزية .
تشرين الأول :
مؤتمر حول إيقاف التفجيرات النووية ، ويتم إيقافها
نيسان : الجمهورية الرابعة تحتضر ، و٢٣ يوماً من الأزمة الوزارية :
١٣ أيار : في الجزائر : اقتحام مبنى الحكومة العامة :
١٥ أيار : ديغول يعلن أنه مستعد للاضطلاع بمهام سلطات الجمهورية :
الأول من حزيران :
الجمعية الوطنية تنصّب ديغول ، وتوافق بالتصويت على منحه السّلطات الخاصة :
١٧ حزيران : اتفاق حول جلاء القوات الفرنسية عن تونس

لجنة تذهب إلى الجزائر » ، وباستطاعتي أن أؤكد لهم بأنهم سيكونون مخولين من الجنرال ديغول لدى جميع الأطراف » .

ولكن فرانسوا مورياك يتهرب (الإكسبريس ، ١٩٥٨/٦/٢٦) ، ولا يقدر مارتان دوغار على التوجه إلى الجزائر ، لأنه مريض جداً ، ويموت في آب ، فلا تذهب اللجنة .

خطابات سياسية لمالرو :
١٤ تموز ، ٢٤ آب ، ٤ أيلول في باريس ، ثم في جزر الأنتيل ، وفي غويانا ، وإيران ، والهند ، واليابان . (انظر : المذكرات المخالفة) .

التاريخ

٢٤ آب : يعرض ديغول الموجود في برازافيل خيار الاستقلال على المناطق الأفريقية التابعة للاتحاد الفرنسي . ويعترف بحقوقها في الانفصال .

٢٩ آب :

ديغول يأتي في الجزائر على ذكر تطور الجزائر الضروري (في الإطار الفرنسي من دنكرك إلى تمرست) :

٢٨ أيلول :

دستور الجمهورية الخامسة والمجموعة الفرنسية الأفريقية يجري تبنيهما بأغلبية كبيرة جداً أما غينيا التي صوتت بلا فتصبح مستقلة .

٢٣ تشرين الأول :

ديغول يعرض على الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية : « سلام الشجعان » والعفو العام ، إذا تخلت هذه الحكومة عن القتال

٤ كانون الأول :

خطاب ديغول « عاشت

السيرة

١٩٥٩ (٥٧ عاماً) .

مالرو يصبح وزيراً للشؤون الثقافية .

الحكومة تمنع كتاب « الغنغرينا » الذي يقدم شهادات جديدة على التنكيل في الجزائر . وموريس نادو ينشر رسالة مفتوحة موجهة إلى مالرو يطلب إليه فيها أن يتدخل . ومالرو يعلن في ريو دي‌جانيرو : « لقد كنت وزيراً للإعلام مدة أربعة أشهر ، ولم تكن هناك أعمال تنكيل . ولقد برزت من جديد بعد ذلك الحين ، وهذا صحيح تمام الصحة » .

بيد أن مالرو لا يطعن بناءً على هذا الإعلان على صحة القسم الأكبر من الشهادات التي

معاً الجزائر ، والمجموعة ، وفرنسا » .

زيارة خروتشوف الخاطفة إلى بكين ، وبداية الخلاف الصيني — السوفييتي .

إعدام إمري ناجي .

أراغون ينشر روايته : « الأسبوع المقدس » :

١٩٥٩ ، ٣٠ كانون الثاني

ديغول يجدد عروضه للسلام في الجزائر « بشروط مشرفة » :

٢٥ آذار : ديغول يتحدث في هذا الوقت عن « الشخصية الجزائرية » .

١٦ أيلول : ديغول يعلن حق الجزائريين في تقرير مصيرهم (٣ خيارات ممكنة) : الفرنسة ، والانفصال أو الشركة »

٢٨ أيلول :

الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية توافق على المفاوضات وتعيّن بن بيلا ، المعتقل في

جمعت في «الغنغرينا» ؛ بل يشجب الدعاية المناهضة للفرنسيين ويهاجم بعنفٍ أحد موقعي بيان نيسان ٥٨ ، وهو جان بول سارتر قائلاً : « لقد مثّلتُ أنا أمام الغستابو ، وليس سارتر . وفي تلك الأثناء ، كان يعرض في باريس مسرحياته التي كتبها ، وعليها تأشيرةُ الرقابة الألمانية » .

مالرو يلقي خطابات في : وارغلا وتمرست ، وأثينا ، وبرازيليا ، ويعقد مؤتمرات صحفية في ريودي جانيرو ، وليما ، وبونس — إيروس

١٩٦٠ (٥٨ عاماً)

خطاب في باريس للحفاظ على آثار النوبة ، ولتدشين تمثال الجنرال سان مارتان ، محرر

جزيرة إيكس كأحد المفاوضين وديغول يرفض قائلاً : « نحن نتفاوض مع الذين يقاتلون ، وليس مع أولئك الذين هم خارج المعركة » :

ديغول يرفض أن يضع في فرنسا مخازن نووية ، ومنصات إطلاق صواريخ للولايات المتحدة

السوق المشتركة تصبح واقعاً معمولاً به :

لقاء بين خروتشوف وإيزنهاور في كامب دافيد ، وهو لقاء تنتقده الصين :

الصين تطالب ببعض مناطق الهيمالايا ، ووكالة تاس تساند وجهة نظر الهند .

ناتالي ساروت تنشر روايتها القبة الفلكية الاصطناعية .

١٩٦٠ ، كانون الثاني :

« أسبوع المتاريس » في الجزائر ، وفي فرنسا ، إضراب عام لمساندة ديغول ضد التآمرات والتصويت على السلطات الخاصة

نصف أمريكا اللاتينية ، حيث يقول : « ثمة شيء أعظم من السلطة ، واسمه العدالة » .

خطاب في فور لامي في برازافيل : « إن العهد الاستعماري قد عفا عليه الزمن حالياً » .

تشرين الأول : بيان الـ « ١٢١ » حول « الحق في عدم الخضوع » في حرب الجزائر ».

إن رجال الفكر ، والفنانين الموقعين عليه يتعرضون للعقاب ، ومالرو الذي يرجى للتدخل لصالحهم يلتزم الصمت .

١٩٦١ (٥٩ عاماً) .

٢٢ نيسان : مالرو يعلن رأيه المؤيد لتنحية الجنرالات المتمردين ، ويدعو الفرنسيين

آذار : « الجولة على نوادي الضباط » ، وديغول يقول : تسوية المسألة بعد النصر ، غير أنه يطلق التعبير التالي :

« الجزائر جزائرية » .

حزيران : ديغول يتحدث عن « الجمهورية الجزائرية » التي لم يكن لها وجود قط ، كما يقول ، ولكنها ستكون موجودة ذات يوم :

كانون الأول : منظمة الأمم المتحدة تعترف بحق الجزائر في الاستقلال .

موت ألبير كامو بحادث .

يونيسكو : يعرض مسرحية « الخرتيت »

١٩٦١ :

كانون الثاني : استفتاء حول حق تقرير المصير :

إعلان المفاوضات بين فرنسا والحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية :

اغتيال محافظ إيفيان ؛

إلى تشكيل ميليشيات من المتطوعين ضد أي إنزال محتمل للمظليين .

١٤ أيار : خطاب في احتفالات جان دارك في أورليان .

٢٤ أيار :

فانسان وبيير غوتييه ، ابنا مالرو يقتلان بحادث سيارة على طريق بورغونيا .

تشرين الأول — تشرين الثاني :

خطاب في الجمعية الوطنية، وفي مجلس الشيوخ .

رسالة مفتوحة موجهة من جيروم ليندون إلى مالرو يحتج فيها على مصادرة الحكومة لكتاب بيير لوليبت ، وهو مظلي قديم في الجزائر ، فيلتزم مالرو الصمت

التاريـخ

وعلى مدار السّنة ، اعتداءات . تقوم بها منظمة الجيش السرية .

١١ نيسان :

ديغول يعلن أنه مقتنع بأن الجزائر ستكون دولة مستقلة من الداخل والخارج :

٢٢ نيسان :

انقلاب الجنرالات : شال وجوهو وزيلر ... وسالان ؛ وفي فرنسا ، يحدث إضراب جديد عام لمساندة الجنرال ديغول فشل الانقلاب :

١٢ تموز : ديغول يوافق على : « دولة جزائرية «مستقلة » : ولكنّه يشير إلى انه إذا لم يتوفر التشارك ، فسيصنع تجمعاً

تموز : المفاوضات الفرنسية والحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في لوغرين :

آب :

استقلال الدول الأفريقية الناطقة بالفرنسية :

١٣ — ١٤ — ١٥ آب :

السيرة

١٩٦٢ (٦٠ عاماً) .

٧ شباط : ستة شبان (خمسة طلاب ومستخدم) يضعون ٩٠٠ كغ من الـ ت.ن.ت على نافذة المنزل الذي يسكنه مالرو ، فتصاب الصغيرة ديلفين (أربعة أعوام ونصف) إصابةً خطيرة ، وتفقد عينها اليمنى بصورة تامة ، وعينها اليسرى جزئياً ، أما مالرو فلا يصاب .

١٥ أيّار :

مالرو يحتفل في الولايات المتحدة باتفاقات إيفيان التي يقول عنها : « إنها العمل البطولي الأكثر إيلاماً لمهمة ذات نفس طويل » .

أيار وتموز : خطاب في الجمعية الوطنية ، وفي مجلس الشيوخ حول التراث الفني لفرنسا

التاريخ	السيرة
إقامة جدار برلين خلال العطلة الأسبوعية :	٣ تشرين الأول :
الأول من ايلول : الأتحاد السوفييتي يعلن انه سيستأنفُ تجاربه النووية (إلا في روسيا)	مالرو يشكل جمعية الجمهورية الخامسة (ولكنه ، شأنه في ذلك شأن ديغول (لايكون ، ولن يكون عضواً في الا : U . N . R .
ستالينغراد تصبح فولغوغراد	ولا في الا U . D . T .
١٩٦٢ : اعتداءات الجيش السري تتزايد .	ولا في الا : U . D .
١٨ آذار :	١٩٦٣ (٦١ عاماً)
اتفاقات إيفيان تعقد بين فرنسا والحكومة المؤقتة ، للجمهورية الجزائرية (ح . م . ج . ج .) :	كانون الثاني : خطاب في واشنطن بمناسبة إرسال الجوكندا إلى الولايات المتحدة .
ووقف إطلاق النار في الجزائر .	أيلول : تحية إلى بلزاك .
الأول من تموز :	تشرين الأول : خطاب ومؤتمر صحفي في كندا .
اعتداء فاشل على ديغول في بوتي كلامار .	خطاب في الجمعية الوطنية .
٢٨ تشرين الأول :	كانون الأول : خطاب
انتخاب رئيس الجمهورية بالاقتراع العام يجري تبنيه عن طريق استفتاء :	بمناسبة نقل رفات جان مولان إلى البانيتون . (إنظر : المذكرات المخالفة) .
ازمة كوبا :	١٩٦٥ (٦٣ عاماً)
٢٥ تشرين الأول :	حزيران : إن مالرو ،

التاريخ	السيرة
غروميكو يعلن : « ليس هناك صواريخ سوفييتية في كوبا » .	الذي أوصاه الأطباء بالراحة ، يبحر على متن المركب « كمبوديا » ويباشر العمل في كتابة « المذكرات المخالفة » .
٢٨ تشرين الأول : خروتشوف يقول : « لقد اعطيت الأمر لتفكيك السلاح الهجومي في كوبا ، وإعادته إلى الاتحاد السوفييتي . » وكندي يتعهد بعدم غزو كوبا .	يلتقي ماوتسي تونغ ، ويسلمه رسالة من ديغول (انظر : « المذكرات المخالفة ») .
افتتاح المجمع المقدس الثاني في الفاتيكان :	أيلول : خطاب لتمجيد اوكوربوزييه(١) .
الحرب الصينية — الهندية ، والصين تنتقدُ موسكو التي تزوّد الهند بطائرات ميغ :	كانون الأول : خطاب في قصر الألعاب الرياضية .
١٩٦٣ (٦١ عاماً) :	١٩٦٦ (٦٤ عاماً)
كانون الثاني : ديغول يرفض الصواريخ الأمريكية بولاريس :	خطاب بمناسبة تدشين دار الثقافة في أميان .
تموز : مؤتمر الثلاثة النووي فرنسا والصين وكوبا ترفض التوقيع على المعاهدة ، وتطالب بتدمير المخزونات النووية .	نيسان : سنغور ومالرو يدشنان : المهرجان العالمي لفنون الزنوج ، في داكار .
تشرين الثاني : اغتيال كندي .	تشرين الأول : معارض بيكاسّو الكبرى
	١٩٦٧ (٦٥ عاماً)

(١) معمار ، ومصمم ، ونظري كبير للعمارة (١٨٨٧ — ١٩٦٥) ؛ (م: ز. ع) .

١٩٦٤ — كانون الثاني .

ديغول يعترف رسمياً بالصين الشعبية ، وفورموزا تقطع علاقاتها بفرنسا .

تشرين الأول :

خروتشوف يُعزَل من مناصبه ، ويحل محلّه بريجينيف وكوسيغين . واحزاب شيوعية مختلفة تطلب إيضاحات من موسكو. سارتر يرفض جائزة نوبل.

١٩٦٥ :

عمليات قصف ثقيلة لفيتنام الشمالية والفييت كونغ تزداد قوة في فيتنام ؛

اراغون ينشر روايته: «الإعدام».

١٩٦٦ : المؤتمر الهندي — الباكستاني في طشقند (الاتحاد السوفييتي) . والبلدان يعيدان إقامة العلاقات الدبلوماسية بينهما

الثورة الثقافية في الصين ، ومظاهرات مناهضة للسوفييت .

١٩٦٧ :

حزيران : حرب الأيام الستة بين اسرائيل وجيرانها العرب .

١٩٦٨ ، ايار :

الثورةُ الطلابية ، والمتاريس

مالرو ينشر الجزء الأول من « المذكرات المخالفة » ، وربما تكون هناك ثلاثة أجزاء أخرى ستُنشَر بعد وفاة المؤلف) .

١٩٦٨ (٦٦ عاماً)

شباط : خطاب حول تدشين دار الثقافة في غرونوبل .

حزيران : خطاب في منتزه المعارض حول التمردات الطلابية في العالم ... « .. وشيء هو البلبلة أحياناً : ولكنه يطمح لأن يكون الإخاء .. إن الذي ينتظرهُ منا الطلاب ، الطلابُ الحقيقيون ، إنما هو الأمل ، قبل كل شيء ، غير أنه ، إلى جانب الأمل ، هناك أكثر المشاعر السّلبية إغراء ؛ فالعدميةُ القديمة تعود إلى الظهور فجأة برايتها السوداء، وهذه العدميةُ لم يعد

التاريخ	السيرة
في الحيّ اللاتيني . احتلالُ السوربون والأوديون والمضربون يعدون بالملايين ، فيعلن ديغول عن استفتاء حول المشاركة ، والإضرابات تستمر :	لديها أملٌ في غير التدمير .
٣٠ أيار : ديغول يتخلى عن الاستفتاء ، ويحل الجمعية الوطنية : ويجري تعديل الحكومة، وتزداد الأجور زيادةً هامة .	إننا لا نواجهُ حاجات لإجراء إصلاحات ، بل نواجه إحدى أكثر الأزمات التي شهدتها الحضارةُ عمقاً » .
حزيران : إخلاء السوربون والأوديون:	١٩٦٩ (٦٧عاماً)
الانتخابات التشريعية تجري ويحصل الديغوليون وحلفاؤهم على ٣٥٨ مقعداً من أصل ٤٨٥:	مالرو لا يشارك في الحكومة الجديدة .
١٩٦٩ :	تشرين الثاني :
نيسان : ديغول يترك السلطة ، بما أن الإصلاح الذي ينادي به قد رفضه الاستفتاءُ .	مالرو ومورياك وسارتر يطالبون معاً بالإفراج عن ريجيس دوبريه .
حزيران :	
بومبيدو يُنتخَب رئيساً للجمهورية .	

الانسان

بما أني لم ألتق مالرو يوماً ، فمن المؤكد أنني لن أجازف بالحديث عن طباعه ، وعاداته ، وحديثه . وسوف أورد فقط رؤية مصورة أدبية ممتازة له ، واسمها : مونيك سان – كلير (أي السيدة تيوفان ريسلبرغ ، وهي « السيدة الصغيرة »التي يردُذكرها في الرسائل المتبادلة بين جيد ومارتان دوغار) (١) :

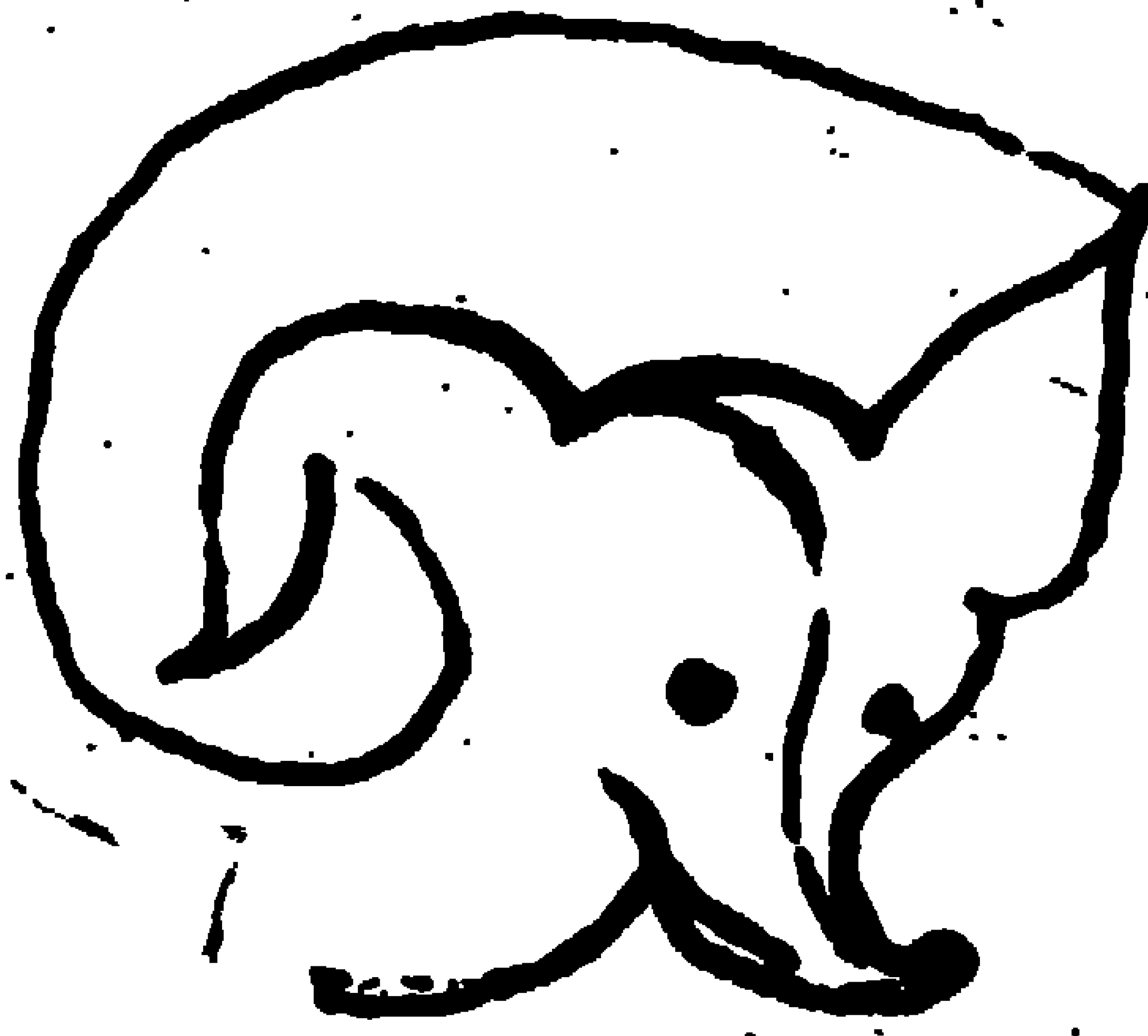
إن مالرو يتكلم كثيراً ، ويعود السبب في ذلك أيضاً إلى أن لديه دوماً شيئاً هاماً يقوله في كل موضوع ، حتى ليمكننا القول إن مالرو يتكلم طول الوقت ... إن صوته لا يعلو بالصراخ أبداً ، بل يبقى ضمن طبقة خفيضة . ولئن كان كلامه السريع ، والمتقطع ، والعصبي واضحاً تماماً ، فذلك لأنه محدد بصورة رائعة بفواصل زمنية ؛ فاللهجة تنخفض في الجمل المعترضة ، وعند العبارات التي يتلفظ بها بسرعة ملحوظة بين الأقواس . إنه يجعلنا نشعر بأصغر فاصلة ، ولكنه لا يجري أبداً أية لمسات على حديثه ، ولا يكرره ، ولا يتردد فيه ، وفترات الصمت القصيرة لديه هي خطوط قصيرة ...

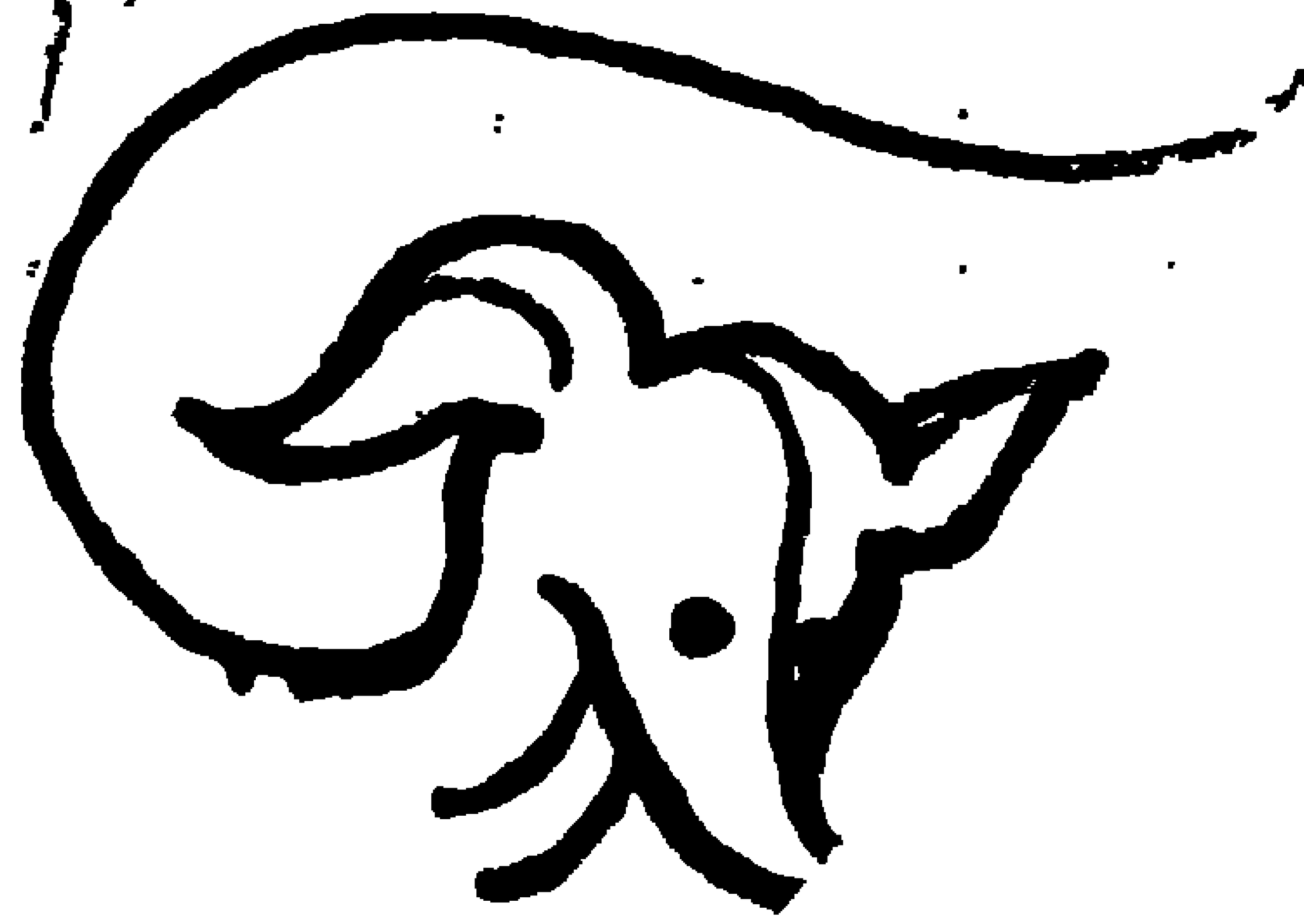
---

(١) لتقرأ المراسلات المفيدة جداً بين جيد ومارتان دوغار ، ١٩١٣ – ١٩٥١ ، والتي يسبقها مدخل أساسي لجان دولاي (غاليمار : ١٩٦٨) .

إن مالرو لا يستخدم التمهيد والمقدمات ، والتحفظات الخطابية قط ، بل يقفز دفعةً واحدةً إلى قلب موضوعه . وأذكر ، بعد غيابٍ طويل له (كان عائداً من إيران ، ولم نكن قد رأيناه بعد) أننا أتينا لننقله بالسيارة ، ونوصله إلى بونتينيي ، فما كدنا نصافحه ، ونضع حقيبته في الصندوق ، حتى كان يقول : « في بلاد فارس ، الألوهية ... » إن المرء ليشعر أن تعريف الأشياء ثم تصنيفها هما بالنسبة إليه ضرورة أساسية ؛ فالعديد من العبارات المألوفة تكشف عن هذا الميل لديه ، كقوله : المسألة هي أحد أمرين ... وتعداداته : أولاً ، ثانياً ... أو حينما يقوم بحركةٍ مقتضبةٍ تستبعد الفكرة المطروحة ويقول : لا نلحن على ذلك ؛ فليست تلك الحاجة للنظام بالنسبة إليه سوى أساسٍ لابد منه لصياغة تراكيب شخصية — تبعث على الذهول ، في أغلب الأحيان .

وذات يوم ، كان يجري أمامه حديث عن مؤلفٍ ينكر عليه مالرو الذكاء ، وحين احتجوا على رأيه ، قال : « عفواً ، لنعرف أولاً ماذا نفهم من كلمة ذكاء ؛ فالذكاء بالنسبة لي ، هو أن نعلم أن دورق ماء هو دورق ماء (وكان هناك دورق أمامه ، على المنضدة) . أجل ، إن إحدى علامات الذكاء ، بالنسبة لمالرو ، هو أن يعرف المرءُ ألا يخلط أي شيء ... إن كلمة « دعابة » التي يستعملها غالباً تستخدم لديه استخداماً طريفاً ، وشديد الإيحاء ؛ فالدعابة بالنسبة إليه هي مفهوم أسيء تحديده ، بل لقد حدد بخفةٍ لا تصمد لكل الاعتراضات . . . أما هو ، فيقر هذه الاعتراضات بطيبة خاطر ، ويأخذ باعتباره تفكير الغير بكل كياسةٍ اعتباراً من اللحظة التي يرى فيها أن هذا الغير يدافع عن نفسه .





Écrivain du farfelus.

لابد من مرور زمنٍ طويل لنعرف عن مالرو شيئاً آخر غير ذكائه الذي يمثل أهم شيء في شخصه ، فحين يقول « أنا » ، فالأصح أنه يتكلم عن « شخصيةٍ فنيةٍ لديه » . إن كيانه الشخصي يبقى في خلفية الصورة ؛ والإشارة إليه تعني الخروج من اللعبة . إن عبارة : « كيف حالك يا مالرو ؟ » هي عبارة

تقع إلى حد ما على حدود التطفل دوماً ؛ فلا تنتظروا منه هذا النوع من الابتذال . إنه ، في لغة الحياة اليومية ، مقتضب ، وبسيط ، وعازف عن الزخرفة كما تكون البرقية . وعلى هذا الأساس الصارم والجاف ، فان أقل حد من المجانية الكلامية لديه يكتسب نكهة ساحرة ، أما حساسيته فتلوذ بابتسامته (١) . . .

إن نقل هذه الصورة قد تم بناء على الموافقة اللطيفة الممنوحة من السيد أندريه مالرو .

إن مالرو يرسم غالباً حيوانات فضولية ورقيقة ، كالقطط ، والثعالب ـ أو يرسم أيضاً « شياطين » مثيرة للضحك مثل حرف الـ K الموجود في اسمها(٢) أما « وصول غريبي الأطوار » (وهذه ترجمة الكلمات الفرنسية الواردة في أسفل الصورة أعلاه) فقد رسمت في جلسة لمجلس الوزراء ، أثناء تلاوة أحد التقارير .

* * *

١ مونيك سان كلير : معرض اللوحات الخاصة (غاليمار:١٩٧٧ ، ويحتوي الكتاب على وصف جميل لجيد ، وكامو ، وميشو ، وفيرهرن ، ولا فورغ ، وبيغي ، ودو بوسي ، وليوبولد شوڤو ...

(٢) الشياطين هي ترجمه كلمة Diables ، ولكنها واردة على النحو التالي : Dyables (المترجم : ز.ع)

٢ ـ المؤلفات

١ - إبداع الخيال
وتعلم الواقع

ما إن يتخرج مالرو من المدرسة الثانوية ، في الثامنة عشرة من عمره ، حتى يبدأ حياته كانسانٍ وككاتب . إنه يقفز فوق تلك المرحلة ، مرحلة الطلبة الشديدة الصعوبة بالنسبة للذين يشعرون أنهم قد أصبحوا راشدين ، ويمتلكون مقدراتهم — مع أنهم لا يزالون حائرين — ومالرو يريد في الحال أن يتحمل المسؤولية التامة عن نفسه ، فيندفع إلى الفوز بـ « مصيره » .

وفيما بعد سيقول : « ليس هناك علم للحياة ، بل ثمة تعلم ذاتي قاسٍ على النفس » . إن خبرة الغير قلما تزودنا بالمعرفة ، فنحن شديدو الاختلاف ، بعضنا عن البعض الآخر ، وكثيرو الزهو بأنفسنا ، وإذا لم نتجاوز تمردنا ، يبقى تمرداً سلبياً ؛ « فالحب والإعجاب » وحدهما هما اللذان يمكنهما تقديم العون الحقيقي للفتى .

إن مالرو يُحِبُّ ويُحَبُّ — ولا يكاد يبلغ العشرين عاماً حتى يتزوج كلارا غولد شميت .. ويعجب إلى حد الافتتان بالفنانين ، والعبقريات المبدعة ...

ومن جهة أخرى ، فان والده يسانده ، أو يفهمه على أية حال . وثمة جملة يقولها فنسان بيرجيه(١) في رواية « أشجار جوز الألتانبرغ

---

(١) شخصية من شخصيات الرواية المذكورة .

تحيي هذا الأب تحية محتشمة ، ورائعة : « هل أحبه لأنه كان والدي ؟ إن حب الأهل لبنيهم أمر عام ، وحب الأبناء لذويهم يكود يكون نادراً ، بيد أني اذا كان لي أب كنت سعيداً فخوراً أحياناً أن يكون هو بالذات أبي » .

ومع ذلك ، فالأمر الجوهري يتعلق بنا قبل كل شيء . إن مالرو يختار طريق حياته بوضوح ، ويهيء الوسائل اللازمة لتحقيق مايريد . وبما أن الفن والشعر ، واعمال الفكر في تاريخ الحضارة أمور تستهويه ، فهو يتابع محاضرات في متحف غيميه ، وفي مدرسة اللوفر (دون أن يتسجل فيها) ، ولكنه يدرس بخاصة الروائع الفنية في كل العصور دراسة ذاتية ، ويبحث عمن يجددون ، ويلتقي بهم .

ولا يلبث ذكاؤه وثقافته أن يضعاه في مصاف أكبر المثقفين ؛ فها هو يعمل لدى أحد الناشرين ، ثم لدى ناشرين اثنين كمدير لسلسلة من الكتب ، وواضع لتصميماتها الأولية ؛ فيعد لهؤلاء الناشرين كتباً جميلة نادرة لجول لافورغ ، وأبولينير ، وريفيردي ، وغورمون ، وتيلاد . وفي العشرين من عمره ، يشهد هو شخصياً صدور كتابه الأول : « أقمار من الورق » في دار نشر كانفيلير ، مع رسومات إيضاحية لفيرنان ليجيه ، وذلك في سلسلة تضم أسماء تتمتع بالشهرة من مثل أبولينير (مع حفر على الخشب لدوران) ، وماكس جاكوب ، (مع رسومات لبيكاسو) ، وإيريك ساتي (مع رسومات لبراك) ، وراديغيه (مع رسم محفور بماء الفضة) ؛ فنادراً ما يمكن للمرء أن يحلم ببدايات على هذه الدرجة من التألق .

ومع ذلك ، فلئن كانت مقالات مالرو الأولى – في الشعر التكعيبي ، وحول موراس ، وحول فن التصوير عند غالاينس – تكشف عن فكر لديه قد غدا شديد التماسك ، فان كتاباته الشخصية ، في تلك الفترة ، كأقمار من الورق ، وبعدها « القنافذ المدجنة » ، و « يوميات خياط الدمى المتحركة » و « التسلية » ، و« الانتصار » و « كتابات من أجل دب» من قطيفة(١)) ، وحتّى روايته : « المملكة العجيبة » التي لم تنشر إلا في عام ١٩٢٨ ، بعد رواية « الظافرون » ، كل هذه الكتابات التي تثير نصوصها قدراً من الاستغراب يفوق ما تثيره عناوينها ، تبعث اليوم على الإحساس بخيبة عميقة ، برغم المحاولات التي يقوم بها بعض النقاد بهدف احيائها(٢) ، وحين نعلم أن مالرو سوف يسمى هذا المؤلف الكبير : « كتاب يافع » ، في التذييل الذي سيكتبه عام ١٩٤٩ للطبعة النهائية لرواية « الظافرون » ؛ فاننا نتساءل بفضول عن ذلك الرآي الذي يمكن أن يحمله اليوم عن ابتكارات أولى مراحل عمره الباعثة على الدهشة ، برغم العطف الخفي الذي يمكن أن يحس به حيالها .

وعلى أية حال ، فهي تدل على طموح فني قلما نصادفه .

إذ أن هذه الكتابات ليست على الإطلاق « مؤلفات » من الخيال

(١) إن هذه القطع الادبية جميعاً ، والتي نشرت في المجلات ، والتي ستنشر الواحدة منها تلو الأخرى مجدداً ، على أية حال ، هي مقتطفات كما يبدو ، من كتاب : « كتابة من أجل معبود له خرطوم » والذي لم يصدر قط ، في المكتبات ، ولربما أنه لم ينجز أبداً وهذا العنوان قد أعطي عام ١٩٢٤ للنصين المنشورين في مجلة : أكور ، وهما : « تسلية » « والظفر » .

(٢) نخص بالذكر أندريه فاندوجان ، في كتابه : « مرحلة الشباب الأدبية عند أندريه مالرو » .

المحض» كما قيل عنها . وعلى أية حال ، فماذا تعني عبارة الخيال المحض؟ إن الخيال الأكثر انطلاقاً يغتذي دوماً بالتجربة . إنها عبارة عن إبداعات من نتاج الإرادة ، وتحت سيطرة كاتبها ، وهي خيالات مبدعة ، وشديدة الغرابة في آن واحد ، ومريرة ، ومستخفة ، ومتطلقة، وتحاول أن تتجاوز فقدان الأمل . إن مالرو يطمح إلى أن يحيي في ذهن القارىء ، ولو للحظة من الزمن على الأقل ، عالماً آخر غير العالم الواقعي ، ولكنه عالم يحس العالم الواقعي بما يشبه الحاجة إليه ، عالم مثير للضحك ، ومتهم ، « دون أن يكون فيه ما يزعج ، أو ما يحمل طابع الجد » ، عالم هوائي ، و« غريب الأطوار (١) » عالم من أحلام اليقظة الجادة ، والذي يخضع لقوانينه وحدها ، ويفرض نفسه بقوة الفن وحدها .

فهل يتوصل إلى ذلك العالم ؟ أنا شخصياً لا أظن ذلك ؛ فلولا الروائع الفنية التي أتت فيما بعد ، لغرقت هذه القصص الخارجة على المألوف ، والجديدة في أسلوبها ، في غياهب النسيان بصورة تامة دون ريب ؛ فهي تفتقر إلى الحياة ، برغم غنى صورها ولا تستوقفنا فيها سوى بعض المقاطع ، وهي المقاطع التي تتصف بطابع فكري أكثر من غيرها ، والتي تصبح السخرية فيها أشد بقدر ما تظل لهجتها ملاطفة ، وهادئة ، بحيث لا تدعو ظاهرياً إلى أي تمرد :

— أيها السادة ، أظن أنكم تعرفون الله .

---

(١) لقد أحيا مالرو هذه الكلمة القديمة « FatFelu » والتي استخدمها كل من كريستين دوبيزان ، ورابوليه ، وهي كلمة شديدة الإيحاء بالخيالات المبدعة ، والمجنونة إلى حد ما ، والتي تحس الحضارة المادية بالحاجة إليها ، وذلك بما في هذه الكلمة من مجانسات صوتية . ولسوف يحرص مالرو على أن يدخل مجدداً في « المذكرات المخالفة » حضورها الذي لا يدحض ، والمتسلل مثل حضور القط الذي يمر في العتمة » .

ليجيب هيفيلي :

– لقد عرفته قديماً ، إن هذا الشيخ قريب إلى القلب حقاً .

فصحح الموسيقي قائلاً : – قريب إلى القلب ، أجل ، ولكنه عامي بعض الشيء .

– وماذا يريد أن يصنع لكي لا يكون كذلك ؟ لقد عاشر عدداً كبيراً جداً من الناس ، وعدد كبير جداً من الناس يتردد إليه اليوم .

فاستأنف الكبرياء قائلاً :

– إنه لم يعد عامياً ، وقد غدا من جراء الشيخوخة فاقداً تماماً للوعي (١) .

شاخ الله والموت مريض :

لم تعد المسألة أن « الله قد مات » ، بل هي أسوأ من ذلك « فالله قد شاخ » ، ولم يعد يمتلك رشده ووسائله ، وقد لاحظتم أنه لم يعد يقوم بمعجزات إطلاقاً ! ...

إن التحول الأول الذي يخترعه له مالرو هو أسوأ اتهام يتهمه به تحت مظهر مازح .

لقد صار الله في أيامنا هو الضعف والشر ، وذلك رغماً عنه بالتأكيد ، ولكنه مستمر في خداع سائر المؤمنين في هذا الجانب .

« ... لقد بدّل اسمه ولبوسه بضع مرات ، دون أن يعلّق أهمية على ذلك ؛ أما هذه المرة ، فقد تصرف الشيطان ، وهو ليس بالأحمق ،

(١) أقمار من الورق (المؤلفات الكاملة ، الصفحة : ١٦٨) .

بحيث أخذ مكانه ، ولم يلحظ الله ، ولا أي شخص آخر ذلك (١) » .

إن المملكة العجيبة هي في واقع الأمر ، امبراطورية الموت ، غير أن الموت ذاته مريض ، وهناك مبالغة في نفوذه . أما الذنوب فقد تكون قادرة على التخلص منه ، مع احتمال أن تأسف عليه بعد ذلك ، وعلى أية حال ، فعالمنا غير متماسك ، ومثير للضجر في آن واحد مثل المطر . إن الموت يقبل أن يقتل .

« ليس العالم محتملاً بالنسبة إلينا إلا بفضل العادة التي اعتدناها لاحتماله .

إنه يفرض علينا حينما نكون أصغر سناً من أن ندافع عن أنفسنا ، وبعد ذلك ... هل أنا مصيب ؟ أزيلوا عادة أن ...

— لا أدرك الأمر جيداً .

— عجباً ليس ذلك صعباً ، فتصوروا أصدقاءكم على شكل باعة للبيض مثلاً ، فهل ترون أنهم يطلقون على إلههم تسمية إله باعة البيض ، فيسرون إليه باحباطاتهم ، إحباطات باعة

أما أنا ، فقد ضجرت ! إني مريض ، وثمة من يريد مخاصمتي ، فها أنا آخذ مظلتي ، وأمضي (٢) .

---

(١) في « يوميات خياط الدمى المتحركة » يقول الشيطان : « ... للأسف يا سيدي ، إن كل شيء ينتهي ، كل شيء ينتهي ، لأنه لم تعد هناك أخلاق .. لقد كنت أغوي الناس ، بيد أنهم أخذوا يغوونني أكثر . والأشخاص الأذكياء يسمح لهم بأن يظنوا أنني خلقت الشر ، ومع ذلك ، فمن الممكن أن يكون الشر هو الذي خلقني ، وهكذا ، فلم يصنع الناس آلهة على صورتهم فحسب ، بل الشيطان أيضاً ! .

(٢) أقمار من الورق صفحة : ١٨٥ .

لن يدهشنا بالتأكيد ألا يكون بوسعِ ألعابٍ يائسةٍ كهذه أن ترضي نفساً كنفسِ مالرو : « وحين يقدّم مارسيل أرلان مؤلّف : « كتاب من أجل معبود له خرطوم » يكتب أنه إذا أمكننا أن نتكلم عن القلق ؛ فانما سنتكلم حقاً عن ذلك الرجل الذي عاش ، وفكر ، وتألّم أكثر من غالبية شيوخنا الرسميين ، وهو في الثالثة والعشرين من عمره . إنه يحافظُ حتى النهاية على صفاء ذهنه الذي يعذّبه بالمرارة ، وعلى ارتعاشهِ الذي يصنعُ منه فناناً ، وعلى انحرافِ مزاجه الذي يدفعُه إلى الأمام دون توقّف (١) .

إن مارسيل أرلان يعرف صديقه جيداً ؛ فمالرو لن يرضى باليأس قط ؛ ولئن كان لا يدري إلى أي شيء يتجه ؛ فهو يعلمُ من أين ينطلقُ ، ويخمن ما يقدر عليه ؛ وقد كتب ، منذ شهر آذار ١٩٢٢ ، في مقالةٍ هي دليلُ عملٍ له ، هذه السطور التي تفسر مواقفه التالية كلها .

« أن نبذل جهدنا باتجاه هدفٍ غير واضح المعالم ، في الوقت الذي نقدّرُ فيه الأهمية التي لدينا لتكبيرِ هذا الهدف ، وإمكانيتنا التي ننطلقُ منها لتحقيق ذلك ، هذا هو التعبير الجلي عن كل ذكاء ، وعن كلّ إيمانٍ حقيقي » .

مغامرة بنتياي‌سرى والالتزام السياسي :

إنه لأمر جدّ منطقي أن يختار مالرو المغامرة اختياراً واضحاً منذ ذلك الوقت ، ليجسد عام ١٩٢٣ أحلامه ؛ فالمغامرة هي حسب قوله « عالم الجنّ » الذي حَسَب كافة مخاطره .

« إن المغامر خارج على القانون طبعاً ؛ والخطأ هو في الاعتقاد أنه

---

(١) « أكور » ، تشرين الأول ، ١٩٥٤ ، صفحة /٥٥/ .

خارج على القانون المكتوب فحسب ، وأنه خارج على الأعراف . إنه معارض للمجتمع طالما هو شكل الحياة . وهو يتعارض مع أعرافه العقلانية أقلّ مما يتعارض مع الطبيعة ... وكما يستبدلُ الشاعرُ بعلاقة الكلمات فيما بينها علاقةً جديدة ؛ كذلك يحاولُ المغامرُ أن يستبدلَ بعلاقةِ الأشياء فيما بينها — وبقوانين الحياة — علاقةً خاصةً . إن المغامرة تبدأ بالاغتراب الذي ينتهي المغامر من خلاله مجنوناً ، أو ملكاً أو وحيداً (١) ... » .

ويمضي مالرو مع كلارا مالرو ، وشوفاسّون(٢) إلى الهند — الصينية التي يأملُ أن ينتزع من غابتها ، قبل الجميع ، وقبل أن يجري تنظيم الموقع بعض تماثيل الخمير الجميلة الصغيرة من معبدٍ مهدّمٍ أشارت إليه المدرسةُ الفرنسية للشرق الأقصى (٣) . أما تتمة القصة فمعروفةٌ : النجاحُ الظاهري ، ثم الاعتقالُ ، والإدانة بالسرقة ، وتقريرُ الشرطة السّري ثم الدعوى القذرة ، والسجن — وخصوصاً الاكتشاف التدريجي لواقع الهند الصينية الذي هو : حماقة السلطة الاستعمارية التي تثير ضدها تمرد أفضل الناس ، بدلاً من أن تستند إليهم ، والبؤسُ والاضطهادُ الذي يمارسُ ضدّ بشرٍ لهم كرامتهم ... ويعودُ مالرو إلى الهند الصينية

(١) من كتاب : « مالرو من خلال ذاته ، طبعة سوي ، الصفحات ٧٨و٨٠ . إن تاريخ هذا النص متأخر حقاً ، ولكن رأي مالرو عام ١٩٢٣ قلما كان مختلفاً عن هذا الرأي . إنه كما يقول مارسيل أرلان يتمثل بـ : صفاء الرؤية ، والارتعاش ، وسوء المزاج .

(٢) كان لويس شوفاسّون وسيبقى أحد أفضل أصدقاء مالرو الذي سيهدي إليه عام ١٩٢٨ كتابه : « المملكة العجيبة » .

(٣) انظر الصفحة : ١٤ (الأصل الفرنسي للكتاب الحالي)

عام ١٩٢٥ ، ولكن لينخرط هذه المرة في العمل السياسي بشكل صريح . وتشكل مقالاته في صحيفتي : « الهند الصينية » و« الهند الصينية المكبلة » ، وهي المقالات التي كشف عنها الستار مؤخراً السيدان لانغلوا وفاندوغان (١) ، تشكل الجناح الثاني لمؤلفات مالرو الأولى ، وهو جناح لابد من معرفته .

إن الطابع التهكمي هو الذي يطغى دائماً في هذه المقالات ، ومالرو الصحافي الذي يريد أن يكون في متناول الجميع ، يستخدم قبل كل شيء أسلحة السخرية ، والدعابة السوداء الشرسة . إنه يستوحي أناتول فرانس(٢) ، وجاري ، إذا حددنا الأسماء . وإليكم الصورة التي يجعل بها أوبو الحاكم يتكلم ، بعد الدعوى المخزية التي أقيمت بحق متهمي كرانغ — ليو(٣) .

« بعد أن حاولنا برفق ، وبكافة الوسائل ، تجريد أولئك الذين لا يوافقوننا من أهليتهم ، أوصلناهم إلى القناعة التي مفادها أنه كان يتوجب عليهم أن يطلبوا من تلقاء أنفسهم أن يُحكم عليهم بالموت . ولقد عارضوا هذا الأمر ، مدفوعين بضرب من شيطان شرير . ونتيجةً لذلك ، تلفظّنا نحن بالحكم عليهم ، بكل الاهتمام الذي نحن أهل له ، ونفذّنا فيهم الحكم بكل ترفق . إن مصادرنا الإعلامية الممتازة التي بحوزتنا ، والتي تخضع لرقابتنا الشخصية تتيح لنا التأكيد بأنهم قد تأبوا بعد موتهم ، وهم يبدون إعجابهم بنا دون تحفظ(٤) » .

---

(١) انظر المراجع (في آخر الكتاب ، الصفحة ٢١٣ في الأصل الفرنسي) .

(٢) يصوغ أناتول فرانس رسائل يبعث بها جاك دو تورنبروش إلى جيروم كوانيار .

(٣) انظر الصفحة ١٧ (الأصل الفرنسي) .

(٤) الهند الصينية المكبلة ، العدد /٣/ .

أو أيضاً :

لقد بدا لنا من الحسن أن نبين للأنّاميين تأثيرات الحرارة المدارية على المؤسسات الفرنسية ... فبتأثير الحرارة ، تصبح الأجسام أكبر . ولكني ألاحظ ، يا سيدي الرئيس ، أن الأمر ليس كذلك فيما يتعلق بالحرية ، مع الأسف ... فمناخ الهند الصينية لا يلائمها . وتحت تأثير الحرارة ، تتضاءلُ الحريةُ لتصبح غير منظورة ... (يتبع ذلك تحليل مفصّل) .

وأفاق الرئيس من نوم ٍ عميق ، وقال لنا بصوت ٍ بطيء :

« إن واجب رئيس مجتمعات الصيد هو الدفاع عن مصالح الصيادين الذين تنغص عيشهم الأرانب الشرسة (١) » .

صحيفة « الهند – الصينية المكبلة » :

لاشك أن كشف الإخاء ، والانفعال الذي يحياه رفاق المعركة الواحدة بهذا الإخاء ، هو الذي سيطبع مالرو بطابعه الأكثر عمقاً في ذلك التاريخ ؛ ففي آب ، تتوقف « الهند الصينية » عن الصدور ، وتغلق أبواب كافة المطابع في وجه الصحيفة المتهمة ، تحت ضغط الإدارة الحاكمة . ويستلم مالرو من هونغ كونغ فعلاً صناديق ملأى بحروف للطباعة ؛ غير أنها حروف للّغة الإنكليزية فقط ، وتنقصها كل حركات الحروف الفرنسية . ولسوف يتذكر مؤلف « الوضع الإنساني » دوماً ذلك الفتّي الأنّاميّ الذي أتى من تلقاء نفسه لمقابلته بعد ظهر أحد الأيام(٢) :

(١) الهند الصينية المكبلة ، العدد : ٢١ .

(١) إن النص الذي نقدمه هنا هو نص المقدمة التي كتبها مالرو لكتاب أندريه فيوليس وهو : الهند الصينية S . O . S (أي تستغيث) ، غير أن مالرو سيورد هذا النص عام ١٩٦٧ أيضاً ، بعد مرور أربعين عاماً ، في مذكراته المخالفة ، صفحة : ٤٧٨ .

« إني أتذكرك ؛ فحين أتيت للقائي ، كان مسعى الحكومة قد أوقف أخيراً الصحيفة الثورية الوحيدة للهند الصينية ، وكان فلاحو باكيلو في صمتهم الهادىء مجردين من سلاحهم ... فسحبت من جيبك منديلاً معقوداً على شكل صرة ، وزواياه منتصبة كأذني الأرنب : « كل ما في الصرة هو حروف : é ... وثمة حركات حادة (١) ، وحركات خفيضة ، وحركات مدّ ، أما نقطتا الفصل (٢) ، فسيكون أمرها أصعب . بيد أننا يمكن أن نستغني عنها ربما . إن العديد من العمال سيصنعون غداً مثلي ، ولسوف نذهب لنجلب كل حركات الحروف التي ستمكن من جلبها » . لقد فتحت منديلك ، وأفرغت على قطعة من الرخام الحروف المتشابكة كنثير النباتات ، وقمت بصفها برأس إصبعك كعامل طباعة ، دون أن تضيف شيئاً آخر : كنت قد اختلستها من مطابع الصحف الحكومية ، وكنت تعلم أنهم لو ألقوا القبض عليك ، لحكموا عليك باعتبارك سارقاً وليس ثورياً . وعندما صففت كل الحروف مثل بيادق اللعبة ، قلت فقط : « قل لأولئك الناس الأوروبيين ، إذا ما حكم علي ، أننا فعلنا ذلك ، لكي يعلموا ما يجري هنا » .

ومنذ ذلك الحين ، والمقالات الافتتاحية في صحيفتّي « الهند الصينية » و«الهند الصينية المكبلة » ، تجعلنا نستشعر مسبقاً بعضاً من الدروس العالية الأهمية في الروايات اللاحقة ؛ إنها تظهر لنا مالرو الذي أصبح يبحث عن الممكن ، ليس انطلاقاً من الخيال ، بل من الواقع . والعناوين ، بحد ذاتها ، تشير إلى هذا الاشتراط الأولي :

---

(١) هذه الحركات تسمى Accents aigus graves et circonflexes

(٢) هي TREMAT بالفرنسية ، وتوضع فوق الحروف مالصوتية . . لكي يلفظ الحرف السابق وحده ، منفصلا عن الحروف الصوتي الذي يليه . (م:ز.ع)

« على أية وقائع يمكن تركيز الجهد الأنامي .. إن ما يمكننا فعله (١) .»
ويحدد مالرو بوضوح وسيلة العمل الأكثر فعالية في رأيه وهي : إضراب المنتجين الزراعيين .

« ما الذي لا يمكن لنقابة العمال الزراعيين أن تفعله في ذلك اليوم الذي تصبح فيه مسيطرة على موسم الأرز في فيتنام ؟ ... فلو لم يعد لدينا مدارس ، ولو لم يكن لدينا فصل للسلطات الإدارية والقضائية ، ولو كانت وسائل الضغط الإداري الذي نعاني منه لاتزال تفعل فعلها ، ولو لم نكن نستطيع الذهاب بحرية إلى فرنسا ، لتوقفت(٢) كل الحركة الزراعية في الهند الصينية ، خلال ثمانية أيام » .

مالرو يكتشف اسلوبه الخاصة :

في نفس الوقت الذي يحدد فيه مالرو تقريباً خط عمله السياسي ، يكتشف أسلوبه ؛ فتحت اسم « موريس سان — روز » ، تنشر له صحيفة« الهند الصينية » بتاريخ ٦ آب لعام ١٩٢٥ ، حكاية غنائية هي : « حملة أصفهان » فتثبت جملها الموزونة قدرتها منذ ذلك الحين على أن تستحضر لنا الزمن والعالم بصورة رائعة ، كما تستحضر شعر الزائل والأبدي ، شعر الكون والتاريخ .

« إنها أحد عشر يوماً ، أحد عشر يوماً فقط ، ولكنها أحد عشر يوماً في القفار ، وفي السهل المحرق ، اليابس ، والمتشقق من أفق لآخر . وعلى ضفاف مجاري الأنهار ، تتبعثر هنا وهناك صور إمبراطورية كبيرة ، محفورة في الصوان ، وتشير وباصبعها إلى اتجاهات قد غشاها النسيان منذ زمن بعيد ... ..

---

(١) الهند الصينية ، العدد : /١٦/ .

(٢) الهند الصينية المكبلة ، العدد /١٦/ .

وحين كان الليل يبرز ، في أعماق الأحواض المعتمة ، أول انعكاسات النجوم ، كانت أسماك الشبوط العجوز ، التي لا تكاد حركاتها البطيئة جداً تموج صورتها ، كانت تخلط انعكاسات القصور القديمة بانعكاس الكواكب الأزلية ، وهي تصعد إلى سطح الماء(١) » .

لقد ولد الكاتب الكبير في شخص مالرو في نفس الوقت الذي ولد فيه رجل النشاط والفعل.

* * *

(١) إن الفكرة ذاتها ، وبعض الجمل في « حملة أصفهان » سوف ترد مجدداً في النص النهائي ، نص « المملكة العجيبة » : « صمتاً ! صمتاً ! إن الريح الخفيفة والفاترة كانت تبرز قطعاً صغيرة من الفسيفساء . وكانت أشجار الرمان والنسرين مزهرة ، وثمة زهور أخرى لم نكن نراها تفوح بالعطر ، وكانت الأسماك الرائعة التي جلبها تيمور قديماً تحيط انعكاس النجوم بغصينات صغيرة ، على طول الأحواض التي تحاذي الجادة » .

«٢»
أزمة الحضارات
واغراءات المطلق

ومع ذلك ، فالذي جعل مالرو يدرك أن الإنسان ، في الأمور الجوهرية ، يتجاوز أسراره (١) ليس الفعل ، وإنما التفكير ، وخصوصاً تلك المقارنة التي أخذ يجريها منذ عام ١٩٢١ بين المفاهيم المختلفة للإنسان، في مختلف الحضارات . وكما يقول(٢) ، فهذه الدراسةُ تستحوذُ عليه أكثر من أيةِ دراسةٍ أخرى ، ولربما تكون هي « التي تعطي حياته تعبيرها الخاص – في نظره على الأقل » .

ويعلن مالرو ، منذ بحثه الأول في الفن ، والذي هو مقدمة لمعرض لوحات الرسام اليوناني كابانيس :

« لا يمكننا أن نتذوق الفن إلا من خلال المقارنة ... فالعبقريةُ الإغريقية يمكن فهمها إذا ما قابلنا تمثالاً إغريقياً بتمثالٍ مصري أو آسيويّ ، على نحوٍ أفضل مما لو عرفنا مئة تمثالٍ إغريقي » .

وكذلك الأمر ؛ فلكي يفهم مالرو نفسه بصورةٍ أفضل ؛ فهو لن يقابل الثقافات الغربية والشرقية فحسب ، بل سيقابلُ المعنى الذي يعطيه

(١) أشجار جوز الألتا نبرغ : الصفحة /٩٠/ .

(٢) مالرو من خلال نفسه (سوي) ، الصفحة /١٨/ .

الغربيّون والشرقيون لحياتهم . « كيف أجدُ نفسي إذا لم أنظر إليك ؟ » :

« إن ما تولده فينا مجابهة حضارتين متصارعتين هو نوع من الانسلاخ الذي يسببه اكتشاف التعسف المضاعف لهاتين الحضارتين . فاختبارنا للإحساس بأن عالمنا « يمكن أن يكون » مختلفاً ، وأن أنماط تفكيرنا يمكن ألا تكون الأنماط التي نعرفها ، يعطينا ، حريةً يمكن أن تصبح أهميتها فريدة ... فهل يمكن لقارة آسيا أن ترفدنا بارشادٍ ما ؟ لا أظن ذلك . إنها قد ترفدنا ، على الأصح ، باكتشافٍ متفردٍ لما نحن عليه (١) » .

وطوال خمسة أعوام ؛ في باريس ، وروما ، وأثينا ، وسايغون ، وهونغ كونغ ، يتأمّل مالرو في هذا الموضوع الأساسي ، بالنسبة إليه ، ويؤلف ببطء كتابه : « إغراء الغرب » ، ثم كتابه : « في الشبيبة الأوروبية » (واللذين سيصدران عامي ١٩٢٦و١٩٢٧) . وهاتان الدراستان تتصفان بالكثافة القصوى ، وبالطابع الغنائي ، وهما شديدتا الدقة ، برغم عدد الموضوعات التي تتناولانها ، وتعقدها ، كما تكشفان عن شخصيةٍ تنوي عدم الاكتفاء بأي وهم ، وتتطلب في آنٍ واحد ، الدقة الصارمة ، العزيزة على قلب بول فاليري (٢) كثيراً ، وحياةً شديدة الفعالية ، ومقتدرة ، وتستحق أن تعاش .

---

(١) الأخبار الأوروبية ، بتاريخ ١٩٣٦/٧/٣١ .

(٢) « التشدد العنيد » ، هو الإلاهة . التي اختارها فاليري لنفسه ، بعد دافنشي ، فهي كما يقول : « الأكثر تطلباً من كل الآلهة » ، وهو يخدمها على نحو يدعو إلى الإعجاب ولهذا السبب ، يبدي مالرو ، قبل كل شيء ، إعجابه العميق بمؤلف أو باليونس (أي فاليري) ويكتب : « إن فاليري ند لأسطورته » وفي هذا القول إطراء لا يسرف فيه مالرو عادة ... فللرجلين ، من ناحية أخرى ، أفكار واحدة حول نقاط عديدة ، مع أنهما قلما يتشابهان (انظر : الصفحات ٥٧و٦٠و١٥٠و١٦٦و١٧٣ في النص الفرنسي لهذا الكتاب) .

« إغراء الغرب » :

يسافر مثقف صيني شاب ، اسمه لنغ ـف ـي . إلى أوروبا ، ويسافر مثقف فرنسي شاب اسمه ا.د . إلى الصين ، وكلاهما على قدر كبير من الثقافة ، ويتمتعان بذكاء حاد ، ويساورهما قلق شديد أيضاً على التطور الأخلاقي لبلديهما ؛ فيقضي كل منهما للآخر بأفكاره — وبما يمتحن به من إغراءات ...

إن العنوان « إغراء الغرب » هو عنوان غامض عن قصد ، في الواقع ، وذلك من خلال المضاف الذي يحمل معنى ذاتياً وموضوعياً بآن واحد ، كما يقول النحويون(١) ، إنه يعبر عن الإغراء الذي يحس به الغربيون تجاه المفاهيم الشرقية الكبرى ، ولكنه يعبر أيضاً عن إغراء تقليد الغرب الذي يشعر به الصينيون ، واليابانيون الأكثر اطلاعاً ، ولربما بقوة أكبر ، وقد يحفل بالنسبة إليهم بنتائج مباشرة أكبر .

إن أوروبا ، وابنتها الكبرى ، الولايات المتحدة ، قد هيمنتا على العالم ، باعتمادهما على العقل ، والعلم ، وعلى تمجيد النزعة الفردية . أفلا يمكن أن نأخذ منهما وسائلهما ، مع احتفاظنا بذلك الصفاء الصيني الثمين الذي ينال من خلال نكران الفرد ، خلافاً للفردانية ؟ فليس الإنسان سوى جزء من الكون الذي لا يمكن للحياة أن تكون مستقلة عنه ، وينبغي له أن يستخدم براعته إذن لكي يذوب في الكل الأعظم ، ولينحل في النظام الكوني الأزلي . ولكن كيف يمكن المحافظة على هذه الحكمة ، إذا ما تبنّينا العبادة الغربية للنشاط الفعّال ، عبادة « الشخص » ؟ .

(١) لنفكر بالمعنيين الشديدي الاختلاف للعبارة التالية : « خشية الأعداء » .

تلك هي فعلاً إحدى مشكلات لينغ ، المرهف الحس ، وهي إحدى دواعي القلق لديه . إنه يستشعر مسبقاً ذلك الانقلاب الكلي الذي سيجلبه إلى بلاده غزو الأفكار الأوروبية ، فالصين القديمة ستموت ، وغالباً ما يتقزز مواطنوها من ثقافتنا ، شأنهم في ذلك شأن لينغ ، ولكنهم ينسلخون عن ثقافتهم . إن مقاطعات الوسط والجنوب تنتظر منذ زمن ، أن يتحقق كل شيء على يد تلك الحكومة الغربية ، حكومة كانتون التي تفشل مساعي إنكلترا ، والتي تكشف لكل واحد ، وحتى لأكثر الناس بؤساً ، أنه يمكن أن تكون له حياته الخاصة .. إن صيناً جديدة تخلق ، وهي تفلت من الصينيين أنفسهم ؛ فماذا سيكون المستقبل إذن ؟

غير أن تفكك الغرب ، بالنسبة للفتى ا.د. ليس أقل إيلاماً ؛ فلقد كانت بلاد الإغريق ، والمسيحية قد صاغتا على مهلٍ فكرةً راسخةً عن الشخص الإنساني ، وعن الفردية الفريدة لكلٍ واحدٍ منا . وكنا نعيش بهذا التصور ، وقد دفعناه إلى نهايته المنطقية ؛ فعقلنا المستقل قد قتل فكرة الإله الكلي القدرة ، وهي الفكرة التي غدت بلا فائدة ، ومثيرة للغضب ، كما قتل فكرة إلهٍ يمكن أن يقبل بالشر ، وحتى بعذابات الأطفال التي لا حصر لها ، وعذابات مليارات الكائنات الحية التي لا مسؤولية لها في تلك العذابات . لقد رفضنا العالم الموروث عن روما (سواء كانت روما الإمبراطورية ، أم روما البابوات) — رفضنا « تلك الحضارة الراضخة » ... ثم حين مات الله ، ألم يتبق لنا العلم ، والتقدم ، ومفهوم هائل في عظمته عن الإنسان ، أي الأمور التي يفخر بها القرن التاسع عشر ؟

بيد أن انتصارات المعرفة مريرة ، ويتبيّن مالرو هنا ، شأنه شأن

فاليري(١) أن المعرفة العلمية ، بعد حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ (وماذا يمكن أن نقول اليوم عن ذلك ؟) قد أصيبت إصابةً قاتلةً في طموحاتها الأخلاقية ، وسربلتها بالعار قسوةُ تطبيقاتها . « منذ أن فقدت حضارتنا الأمل في أن تجد في العلوم معنى العالم ، غدت محرومةً من أية غاية روحيّة (٢) » .

ولربما يكون الأمر الأكثر خطورة في نظر مالرو هو أن العالم وأنانا نفسها تفلتان منا ؛ فقد يصبحان قابلين للفهم أكثر فأكثر ؛ غير أنهما يقتربان من متناولنا بصورة متناقصة . إننا ضائعون فيهما ، وبماذا نجيب لينغ الذي يؤكد :

« أن الحقيقة المطلقة قد كانت الله ، بالنسبة لكم ، ثم الإنسان ، غير أنّ الإنسان قد مات ، بعد الله ، وأنتم تبحثون بقلق عن ذلك الذي يمكنكم أن تعهدوا إليه بارثه الغريب . إن محاولاتكم الصغيرة لبناء مذاهب علميةٍ معتدلة لا تبدو لي مهيأةً ليكتب لها البقاء طويلاً ...

إنكم تظنون أن ثمة شيئاً باقياً في ما تسمونه إنساناً ، وهو شيء غير موجود (٣) » .

ويضطر مالرو ، شأنه شأن الفتى ا.د. أن يقرّ بذلك فعلاً ؛ فالعالمُ لا يتحول ، في مجال العلم فقط ، إلى مجموعةٍ هائلةٍ من العلاقات التي لم يعد أي عقلٍ يدأب على تثبيتها ، إذ أن من طبيعة هذه العلاقات ذاتها

---

(١) إن تاريخ رسائل ومحاضرات فاليري حول أزمة الحضارة هو عام ١٩١٩ ، وقد كان مالرو شديد الاهتمام بها .

(٢) في الشبيبة الأوروبية ، صفحه : /١٤٦/

(٣) إغراء الغرب : الصفحات : ١٥٨ و ١٧٤ : إن مالرو يتناول هذا النقاش مجدداً في أشجار جوز الألتا نبرغ ، (انظر الصفحة ١٢٤) .

أن تتغيّر ، وأن تتجدّد بلا انقطاع ، بل يبدو أن حضارتنا تنزع إلى خلق ميتافيزياء ينتفي منها أي عنصرٍ ثابت ، وتكونُ من نفس طبيعة مفهومها للمادة(١) » ، إلا أن مكتشفات علم النفس خصوصاً تجعلنا ندرك في ذواتنا حياةً عميقة أولية ، كنا نشتبه بوجودها فقط ، ولم نكن نريدُ أن نراها ؛ بيد أن قوّتها التي تتكشف اليوم تعرض للخطر وحدة كياننا نفسها إلى حد ما . وعلى ذلك ، تكون لنا « شخصية » « غير واعية » أو « شبه واعية » فما معنى تناقضٍ كهذا؟ ومن نحن في الواقع؟ ماهي الأنا؟ ماهو الإنسان ؟ ليس له مبرر للوجود — وجزءٌ كاملٌ من ذاته يفلت منه ، والبعض يقولون إنه الجزء الأهم ! وتقودنا أبحاثنا الأكثر جرأة ، وبالرغم منا ، « إلى الممالك المتصلّبة ، ممالك منافاة العقل(٢) » .

الخيار الحاسم :

ألا يحقُّ للينغ ، منذ ذلك الحين ، أن يقترح برقةٍ أن يستسلم الإنسان للكون ، إذ يتبين اعتباطية كل وجودٍ فردي ، فيقول إن علينا بذل الجهد لكي نجد في حركات العالم الأفكار التي تتيح لنا أن نقطع القيود البشرية ، وأن نبحث عن الوجدْ في تقربنا من المطلق(٣) .

إن مالرو يرفض ذلك بكياسة ، ولكن بوضوح :

« إنني أجد في أساس بحثك فعلاً إيمانياً ... ففي الوجد ، لا يتوحد المفكّر بالمطلق كما يعلّم حكماؤكم ؛ فالمفكرُ يسمي مطلقاً الدرجة

---

(١) في الشبيبة الأوروبية : الصفحة : ١٥٢ .

(٢) إغراء الغرب ، صفحة «٢١١» ، لا بد من الإشارة إلى أن هذه الأشياء قد كتبت قبل : « أسطورة سيزيف » بسنوات، وقبل الموضوعات الفلسفية الكبيرة التي كتبت حول موت الإنسان و« الأبحاث الصغيرة » ، أبحاث البنيوية بسنوات .

(٣) إغراء الغرب : الصفحة : ١٥٥ .

القصوى التي تصلُ إليها حساسيته ... ولكن المسألة هنا لا تتعدى فقدان الوعي بصورةٍ معينة ، « ويقول لي فلاسفتكم إن هذا معناه الوصول إلى الوعي ذاته ، والارتباط بروح العالم » . « وتحدوني رغبة لأجيب بأن وعياً معيناً هو فكرة معينة ... » بيد أن أجمل عرض للموت لا يعتبر حلاً إلا بالنسبة للضعف (١) .... » .

ولكن مالرو يفهم هذا الضعف حق الفهم ؛ فحين يفلت كل شيء من متناول الإنسان ، ويكون وحيداً ، فهو يستعذب تسليم ذاته طوعاً لإيقاع كونٍ تقرر أنه منسجم ،يعينه في ذلك الإفيون عند الضرورة ، ويستعذب تفويض أمره لمشيئةٍ إلهيةٍ ، هي مشيئة إله قد أعطى ابنه الوحيد مثلاً لكي يخلصنا ؛ كما أن التزام الإنسان بهذهالعقيدة الحديثة العهد أو تلك ، والتي تعد بالسعادة والإخاء الإنساني أمر يمنحه القوة . وما أجمل هذه الضروب من السراب في صحراء النفس ! ... وكم هي قادرة على تحريك شعور كائنٍ شاب ومتطلّب ! ... إن مالرو يدع هذه الشكوى تفلت منه ، وهي الشكوى التي لن تكون كل مؤلفاته كافيةً لخنقها :

« أيتها المذاهب ، أيتها الأديان ، كم يشق على الإنسان ألا يهديك توحده(٢) » ولكنه يؤكد مجدداً رفضه للاستسلام ، وذلك بقرار شرس يردُ في آخر رسالةٍ من رسائل كتابه : « الإغراء » ؛ فالمطلق هو أسوأ شياطين الإنسان ، وهو هلاكه التام ، إذ أن الإنسان لا يمكنه أن يعيش إلا في النسبي(٣) . إن الإغراء الأشد بالنسبة لمالرو لم يكن إغراء الشرق ،

---

(١) إغراء الغرب : الصفحة : /١٦٦/ .

(٢) في الشبيبة الأوروبية : الصفحة : ١٤٨ .

(٣) يعلن مالرو ممنذ زمن طويل عن مؤلف عنوانه : شيطان المطلق ، وقد نشر منه فصل واحد فقط ، وهو مكرس لـ: ت. إ. لورنس : « أكان ذلك كل ما في الأمر ! » (طبعة بوفوا) .

ولكنه إغراء قريب جداً منا ، ومحفورٌ بعمقٍ في جسدنا نفسه ، من خلال قرونٍ من الركوع الخاضع : إنه التناول المسيحي . ومالرو يعرفُ رفعة هذا التناول ، ولسوف يحترس دوماً من أن يحط من شأنه ، ولكن رفضه قاطع لا رجعة فيه .

« ثمة إيمان أكثر سمواً بالتأكيد ، ألا وهو الإيمان الذي تطرحه صلبانُ القرى كافة ، وهي الصلبان ذاتها التي تشرف على موتانا . إن هذا الإيمان محبةٌ ، وفيه سكينة للنفس . ولن أقبله أبداً ، ولن أتنازل لأطلب منه الاطمئنان الذي يدعوني إليه ضعفي(١) » .

هذه هي أصوات الخذلان المقهورة ! فالعلم ليس سوى وسيلة ، والعقل ليس في حقيقة الأمر سوى جزء من ذواتنا ، وما يشكل كياننا الأولي يفلت منا ، ويجعلنا نختلط بتشوش العالم ... ولكننا موجودين في نهاية الأمر ، وتظل ذاتنا هي ذاتنا !

« إن وعي الإنسان بأنه « واحد » هو أحد معطيات الوجود الإنساني التي لا تتحول ، ولربما تكون المعطى الوحيد الذي لا يمس(٢) » ، وهذا المعطى هو الذي ينبغي لنا إذاً أن نحافظ عليه أولاً ، وعليه يجب أن نبني .

« إن حياتنا اللاإرادية ، والبعيدة عن أن تكون حياة غير واعية دائماً على وجه التقريب ، تسيطر على الحياة الأخرى دون جهدٍ مستمر(٣) » .. هذا صحيح . وإذاً ، فهل نقوم بهذا الجهد المستمر ؟ إن لينغ وا.د . يريان الرأي نفسه في هذه النقطة على الأقل :

---

(١) إغراء الغرب : الصفحة : ٢١٧ / .

(٢) في الشبيبة الأوروبية ، الصفحة : ١٤٣ .

(٣) في الشبيبة الأوروبية ، الصفحة : ١٤٢ .

إن الحياة متتابعة من الإمكانات .
الحياةُ هي مجالُ الممكنات اللامتناهي
وبالنسبة لأنفسنا ، فنحن كائنات يغفو فينا
مختلطاً ، موكبُ الإمكانات البسيط لأفعالنا وأحلامنا (١) .

وعلينا أن نستيقظ ، وأن نختار ، وأن نحقق ما نريد أن نكون .

« تقول منقوشة المقبرة البحرية(٢) » . آه يا نفسي العزيزة لا ترجي الحياة الخالدة ، بل استنفذي مجال الممكن » .

إن مالرو ، شأنه شأن فاليري حين ترجم بيندار ، يختار شدة فعالية الإنسان ضمن الحدود نفسها ، الحدود الضرورية المعطاة له ، والتي هي حدوده . إنه يقع ، في أعماق قلقنا الحديث ، على أحد التعاليم الأكثر خصوبة ، تعاليم العبقرية الإغريقية وهو : حسابُ كل شيء بناء على ديمومة حياةٍ بشرية « واحدة » ، وشدة فعاليتها(٣) ، فينسى مالرو لينغ ، وتصبح الصفحة الأخيرة من كتابه نداء غنائياً ، مسرفاً في غنائيته بلا شك ، وهو نداء لايزال ملفوفاً بالغموض ، ولكن لاجدال في غظمته ، دفاعاً عن الذات ، ومن أجل امتلاكها .

يا أصوات الخذلان المقهورة ... إني أتأمل صورتي ، ولن أنساها بعد الآن .

يا صورة نفسي المتبدّلة ؛ إنني لا أكن لك حباً ، فأنت مثل جرح واسع لم يلتئم جيداً ، أنت مجدي الميت ، وعذابي الحي ،

---

(١) إغراء الغرب ، الصفحة : ٢٤ و ١٠١ و ١٥٦ .
(٢) من شعر : بول فاليري . (م:ز.ع)
(٣) إغراء الغرب : الصفحة :/٦٦/

لقد أعطيتك كل شيء ، ومع ذلك ، فأنا أعلم أني لن أحبك أبداً .
ودون أن أنحني ، سأحمل إليك الطمأنينة قرباناً لك كل يوم .
ويا أيها الصفاء الشره ، إني أخترق أمامك ، أنت الشعلةُ الوحيدة المنتصبة ، في هذا الليل الثقيل الذي تعوي فيه الريح الصفراء ، كما في تلك الليالي الغريبة كلها حيث كانت تردد ريح اليم حولي جلبة البحر العقيم المتعجرفة (١) .

« في الشبيبة الاوروبية » :

لقد استكشف الفن الحديث المسالك غير المطروقة ، كالرسم غير التصويري ، والموسيقا الحسّية ، وشعر الحدس المباشر ، والقصص الخارقة ، وإبداع أشكال جديدة ، متحركة ، وثابتة ؛ فارتقى «الممكن» ، وهو المجالُ القديم للعجيب وللجنون ، ارتقى فجأة إلى عرشٍ مثيرٍ للاستغراب ... وأصبح الخيالُ سيداً .

غير أن هذا « الممكن » ذاته ، الاعتباطي بالضرورة ، لم يكن قط سوى ممكنٍ في جملة كثرةٍ كاثرةٍ من الممكنات الأخرى ! ولقد جرب مالرو ، كما رأينا ، إبداعات الخيال ، فلم ترضِه . إنها أضعف من أن تستجيب لمتطلباتنا ، ولا يمكنها أن تشبع لدينا شهوة العيش .

ولكن هل تخيّب آمالنا المؤلفات العظيمة لتاريخ البشر الواقعي بدرجةٍ أقل ؟ فأيّ هدفٍ نختار ، وإن لم نصنع منه مطلقاً ؟ أي هدف هو أعظم من أنفسنا ؟ إن الصفاء بلا شك يحفز الفكر ، ولكنه يقضي على الحماس لأي أمرٍ آخر غير الصفاء ، وبعد قليل لا يغدو هذا الصفاء إلا الجثة الخاوية ، جثة الكرامة .

---

(١) إغراء الغرب : الصفحة : /٢١٨/ .

« ما من مثلٍ أعلى يمكننا أن نضحي بأنفسنا من أجله ، لأننا نحن الذين لا نعرف ما هي الحقيقة ندرك زيف هذه المثل جميعاً . إن الظل الأرضي الذي يستطيل وراء الآلهة الرخامية يكفي ليبعدنا عنها . فأي وثاقٍ قد شدَّ الإنسان إلى نفسه ! الوطن ، والعدالة ، والعظمة، والحقيقة، فأي تمثال من هذه التماثيل لا يحمل آثاراً بشرية بحيث لا يثير فينا السخرية الحزينة نفسها ، والتي تثيرها الوجوه الشائخة التي كنا نحبها قديماً ؟ إن الفهم لا يسوغ دوماً ضروب الجنون . ومع ذلك ، فأية تضحياتٍ ، وأية ضروب من البطولة التي لا مسوغ لها ترقد في نفوسنا(١) ... » .

إنها مرارة مأسوية ، وهي أكثر مأسوية أيضاً من مرارة بودلير . فكيف نلقى العظمة إذا لم نعد نؤمن بشيء (٢) ؟ .

إن مالرو يستشعر أزمة حضارةٍ قد امتحنت كل الأحلام ، ويكشف عن هذه الأزمة ، ويستذكر كل انهيارٍ للتاريخ ، وكل سقوط لمجتمع خاو ، وغير قادر على تلبية حاجات النفس الأساسية ، برغم الرفاهية التي يتطلبها الجميع ، وقد سبق بذلك متمردي عام ٦٨ بأربعين عاماً .

وإذاً ؟ ... « فهل ينبغي تشييد ميدانٍ للفكر الزاخر بالتيارات ، والتغيرات ، والعلاقات الجديدة ، والولادات الجديدة » ؟ هل نثق بما يسمى اليوم بالنزعة العفوية ، وبالفوضى المحررة ، بهدف إيجاد حلٍ لكل شيء — إنها محاولات مثيرة للسخرية لمواجهة التطلب الإنساني ، وبؤس الجموع المادي والمعنوي .

---

(١) إغراء الغرب ، الصفحة : /٢١٦/

(٢) لنلاحظ أن مالرو لم يضمن قائمته التي تحتوي المثل التي لوثها البشر أشد تلويث ، لا الإخاء ، ولا الصفاء بطبيعة الحال .

« إن عصرنا الذي لايزال العديد من الاخفاقات يجول فيه ، لا يريد أن يعترف بفكره العدمي المدمّر ، والسلبي للغاية ...

فأي مصيرٍ إذاً ينتظر هذه الشبيبة العنيفة ، والمسلّحة ضد نفسها على نحوٍ رائع ، والمتحررة من الغرور الوضيع ، غرور أن تسمي احتقارها لحياةٍ لا تريد أن ترتبط بها ، أن تسميه عظمة (١) ؟ » .

إن مالرو يطرح السؤال في عام ١٩٢٧ ، ولكنه لا يجيب عليه . وهذه الجملة هي آخر جملة في بحثه ... فلقد رجع من الهند – الصينية مريضاً ، وأخذ يدير من جديد طبعات في الفن ، لدى غاليمار هذه المرة . إنه ينظم معارض فنية ، ويعكف خصوصاً على الكتابة . فهل يخلصه أبطال رواياته الأوائل ، كلود فانيك ، وبيركن ، وغارين ، من قلقه ؟ هل يشيرون لنا عن مخرج ما ؟ .

* * *

(١) « في مالشبيبة الأوروبية » : الصفحة الأخيرة .

٣

روايات المغامرة

المغامرة الفردية
المغامرة الثورية

كان مالرو قد أهدى « إغراء الغرب » إلى زوجته كلارا بالعبارة التالية : « إليك ، يا كلارا ، استعادة لذكرى معبد بانتياي – سري » . إن مالرو ، من خلال هذا الإهداء ، قد كان يشير بقوة إلى أنه لا ينكر شيئاً من المغامرة الكمبودية ، برغم إخفاقها ، في نفس الوقت الذي يدلل فيه على المودة التي يحملها لكلارا . ولكن يبدو لي أن في ذلك أيضاً إشارة إلى القراء اللاحقين لروايتي : « الظافرون » و« الطريق الملكية » يبين لهم مالرو فيها أن كتبه ليست سيرية ، حتى وإن كانت مستوحاة إلى حد كبير ، من حوادث عاشها المؤلف في الهند الصينية ، وفي الصين – وأنها روايات فعلاً ، كما كانت تشير الكلمة التي تلي عناوينها . إن غارين ، وكلود فانيك ، وبيركن ليسوا متزوجين ، حسب علمنا ، ولا نتصور حتى أنهم يمكن أن يكونوا كذلك ؛ وكلابيك سيقول(١) ... « المغامر أعزب قبل كل شيء » ، ولكن هذا التأكيد أمر بلا جدوى .

ومن جهة أخرى ، فمالرو يردد في مطلع روايته « الطريق الملكية »،

---

(١) المذكرات المخالفة ، الصفحة : ٣٧٨ .

مثلاً قوياً كان قد وضعه قبلاً في مطلع « إغراء الغرب » هو : « إن الذي ينظر إلى الأحلام طويلاً يغدو شبيهاً بظله (١) » .

إن تناول جملة كهذه مجدداً هو أمرٌ ذو دلالة حتماً ، ولا يمكن أن يفسر إلا على أنه تحذير ؛ فمالرو ، الذي كان قد اختار المغامرة ، دون أن يؤمن بها فعلاً ، كما رأينا(٢) ، يطعن عليها ، بعد أن عاشها ، وبدرجة أكبر بكثير من الدرجة التي يجدها بها .

وبرغم ذلك ، فالعديد من النقاد يدأبون على مماثلة مالرو بشخصياته(٣) وحتّى أن الأمر يصل ببعضهم إلى إيراد هذه الجملة أو تلك من جمل شخصياته ، دون إيضاح ، باعتبارها تعبر عن أفكار مالرو — « وهذا هو دأب المفترين الخاص بهم » كما يكتب بالزاك(٤) . وأحياناً يكون ذلك أيضاً بتأثير الحماسة ... فكل مؤلف عظيم يضع الكثير من ذاته في إبداعاته (حتّى فلوبير ، وحتّى شكسبير) ، ويبدو للعيان وكأنه والدها بحيث يتشكل ربما ميل إلى جعل المؤلف مسؤولاعما تقوله شخصياته

---

(١) لقد حملت عدة طبعات زمناً طويلا إلى حد ما عبارة : « من ينظر إلى القرود طويلا يغدو شبيها بظله . » .

(٢) سترى فيما بعد الرأي الذي يحكم به مالرو على بيركن الصفحة : ٦٩ ، الحاشية : /٢/ .

(٣) ... وأحياناً إلى الدرجة التي يغيرون بها تواريخ سيرة حياته ! فيكتب بعض النقاد ، مثلا ، أن والد مالرو قد مات عام ١٩١٥ ، لأن راوي أشجار جوز الألتا بنرغ « يكتب أن مصير والده قد تقرر في ذلك التاريخ ، مع أن الرواية تشير بوضوح ، إذا ما قرأناها بانتباه إلى أن فنسان بيرجيه ، وهو ضابط ذو جنسية ألمانية ، وقد اختنق بالغاز عام ١٩١٥ على جبهة الفيستول لا يمكن أن يكون والد مالرو . إن الراوي هو ابن فنسان بيرجيه بكل بساطة والرجلان هما من إبداع مالرو ، وليسا هو بالذات .

(٤) في توطئة الملهاة الإنسانية (وهي مجموعة روائية لبلزاك : م:ز.ع) .

المبدعة ، وعما تفعله وما لا تفعله . ومع ذلك ؛ النزاهة ، والدراسة الجادة توجب علينا مزيداً من التمييز ؛ فلقد أبدع موليير شخصية ألسيست ، كما أبدع فيلانت ، ودون جوان . وهو يحب هذه الشخصيات ولكنه يخضعها لمحاكمته . وهذا ينطبق على مالرو وشخصياته ؛ فهي تأخذ منه كل شيء ، وجميعها تحمل علامته ، وتشهد بالتأكيد على بعض العوامل التي كونته وأقواها ، وعلى بعض « ممكناته » — ولكنه لم يختر ، في نهاية الأمر ، أن يكون مثلها . ومع أن هذه الشخصيات هي أطفاله الذين أطلق لهم السبيل ، فهم لا ينطقون أبداً بلسانه بالضرورة ، وليسوا حتى حملة انفعالاته دوماً . وبناءً على ذلك ، فسنبذل جهدنا ، هنا لدراسة هذه الشخصيات من خلال ذاتها ؛ فالرواية العظيمة ، مثلها مثل التمثال ، يجب أن تكون قادرةً على الوجود بمفردها .

« الطريق الملكية » :

كتب مالرو « الطريق الملكية » بعد « الظافرون » ، ولكنه كان قد تصور فكرتها ، ورسم خطوطها الأولى قبل « الظافرون(١) » . إنها رواية المغامرة الكاملة على نحوٍ من الأنحاء (مغامرةُ المخاطر ، والمجهول ، والموت ، ولكنها أيضاً مغامرة داخل الذات) ، إنها الرد الأولي الحي والمأسوي لمالرو ، وعلى التطلبات التي صاغها في نهاية « إغراء الغرب » ، وهي : الصفاء التام من جهة ، وإرادة إثبات الذات من جهةٍ أخرى ، من خلال « الاختلاف » الأساسي الذي يمكنه وحده أن يكون الشخص — ، وبلوغ أكبر فعالية شديدة ممكنة .

---

(١) يستقي كلود موررياك هذه المعلومة من المؤلف نفسه (انظر : مرحلة الشباب الأدبي لأندريه مالرو ، من تأليف : أندريه فاندوغان ، الصفحة : ٢٥٥)

« إن كل مغامر قد وُلد من مولعٍ بالأكاذيب(١) » .

فلقد عزم المستشرقُ الشاب، كلود فانيك(٢). (ويصفه مالرو هنا أيضاً ، وفي الرواية نفسها ، بأنه « مراهق » ؛ مع أنه يعطيه ٢٦ عاماً) ، على العثور على الطريق الملكية القديمة ، طريق الخمير التي تنتصب المعابدُ على مسارها ، والتي كانت تمتد من أنغور إلى حوض مينام ؛ وقد أُهملتْ منذ قرون ، فضاعت آثارها في الغابة المدارية . ويمتنع الوصولُ إليها على الجميع عملياً ، بسبب المخاطر التي تخبئها والتي لا حصر لها ، وبسبب وحشية بعض القبائل التي تعيش فيها ، ومع أن كلود فانيك قويّ العزيمة ، وصافي الرؤية ، ومتوتر الذهن ؛ فهو يعيش رغبته مثل « من أفسدته فكرة استحوذت عليه(٣) » فكنوز المعابد قد نُهبت ، أما تماثيلها ، أو بعض منها على الأقل ، فلابد أنها لاتزال قائمة في مواضعها ، وهي جميلة جداً . ويريد كلود أن يعثر عليها ، وأن يقتلعها من أماكنها ، ويأتي بها ، ويبيعها . وهو يصنع من هذا المشروع الذي يخاطر فيه بحياته التي « تشكل بحد ذاتها أي ضرورةٍ جوهرية(٤) ، وهو

(١) الطريق الملكية : كتاب الجيب ، الصفحة : ١٦ .

(٢) تتذكر أن مالرو يسمي اليوم رواية الظافرون « كتاب مراهق » مع أنه قد كتب هذا الكتاب وهو في مثل عمر كلود فانيك تقريباً .

(٣) الطريق الملكية ، الصفحة : /٣٩/ .

(٤) « إن الحمقى كثيرو العدد أيضاً بين المغامرين ، كما هم في أي مكان آخر » ، وقد مأدرك كلود فانيك ذلك ، وليس لديه انعدام الضمير الذي يتصف به الباحث التقليدي عن الذهب ، والذي يشير إليه مالرو ، في معقابلة له بتاريخ ١٣ تشرين الثاني ١٩٣٠ : « فلنأخذ مثلا الباحث عن الذهب : فلو كان يفكر تفكيراً جدياً ، لكان أول من وافق على ن بعض التبر الذي سيعثر عليه ، بعد عامين أو ثلاثة من الجهود هي رهان لا يساوي شيئاً يذكر . كلا ، إنه يهرب من نفسه ... » .

يعلم ذلك ، يصنع منه التسويغ الفعلي لحياته ، والتعبير عن تمرده ضد الكون والمجتمع في حالتهما الراهنة :

« إن الخضوع لنظام الإنسان الذي لا أطفال له(١) ، ولا إله ، هو أعمق ضروب الخضوع للموت ؛ فهو يبحث إذن عن أسلحته في المكان الذي لا يبحث الآخرون عنها فيه . إن الشجاعة هي التي ينبغي ، قبل كل شيء ، أن يتطلبها من ذاته الشخص الذي يعلم أنه معزولٌ عن الآخرين . وذلك بأن ينتزع من العالم الآسن صُوَرهُ الخاصة التي يمتلكها هذا العالم ... لقد كان يفكر بأن ما يسمونه المغامرة ليس هرباً ، بل هو مطاردة ؛ فنظام العالم لا يتهدم لمصلحة الصدفة ، وإنما لمصلحة الإرادة الإفادة منه (٢) » .

يتعرف كلود فانيك على بيركن في المركب التي تقلهما ؛ وبيركن هذا هو رجل « مختلفٌ » عن باقي الرجال مثل كلود ، وهو وحيد مثله ، ولربما يكون أكثر منه شراسةً أيضاً في تمرده على الوضع الإنساني ، وعلى الأوضاع الإنسانية ، وهو أكثر منه تأثراً بها ، ويشعر بأن العجز قد بدأ يترصده — إنه كائن فذ ، وقد صنع بمفرده ، مملكةً له في الأعالي ، بين القبائل الجبلية ، قبائل المويس . وسرعان ما يشرك كلود بيركن في مشروعه ، وهو يحمل له الامتنان العميق لأنه قد تعرف فيه على حقيقته ، وأحبّها ، كما تعرف على ما يريد كلود أن يكونه ، وليس على مالا يزال يعرف به ، في نظر الجميع . فتربطهما صداقة عميقة جداً .

---

(١) لا أطفال له : إن مالرو يشدد مراراً وتكراراً ، على هذه الملاحظة الهامة جداً ، بالطبع .

(٢) الطريق الملكية : الصفحة : ٣٩ .

إن المعركة الطويلة ، معركة هذين الرجلين ضد الغابة المدارية أولاً ، وضد الحشرات ، والنمل ، والعناكب ، و الفوعة المقززة للتفكك الذي يهدد جسديهما مثلما تهدد روحهما كل ضروب جنون اللاشعور والخيال ؛ — وصراعهما بعد ذلك ، ضد قبيلة الستيبغ التي يريدان تخليص مغامر آخر من بين أيدي رجالها ، واسمه غرابو ، وهو رجل كان شجاعاً مثلهما قبلاً ، وهو الآن عبد ضرير ، وقد آل به مصيره إلى تدوير حجر رحى مثل حيوان ، مرتضياً لنفسه هذا السقوط — وصراعهما ضد ذاتيهما خصوصاً ، وضد شهواتهما ، واستحواذ فكرة الموت عليهما ، وانتصارهما على مصيرهما . تلك هي الرواية بأكملها .

إن نجاح هذا الكتاب في مجموعة الجيب يظهر أنه يحتفظ الآن بقوته الكاملة ، سواء في استحضاره للمخاطر بحد ذاتها ، أو في صرخاته ، صرخات التمرد ، أو تأكيد الذات اليائس .

« أتذكرون ما معنى أن يستمر الإنسان في الوجود برغم كل هذا (برغم الغابة ، والليل ، والكون) ؟ إن معناه تماماً هو أن يستمر الإنسان في الوجود برغم الموت ، ويبدو لي أحياناً أنني أراهن على نفسي من ساعتي هذه ...

إننا نشيخ ونشيخ ، خصوصاً حين نعتزل عن الآخرين . إنه الانحدار. وما يثقل كاهلي هو — كيف أقول ذلك ؟ هو وضعي كانسان : هو أن أهرم ، وأن هذا الشيء الفظيع الذي هو : الزمن ينمو في داخلي مثل سرطان ، وبصورة لا رجعة فيها ... إنه الزمن ، أجل .

إن كل تلك القذارات من الحشرات تتجه نحو مصباح الكهوف الذي نحمله ، منقادةً للضوء ، وهذه السرعوفات تعيش في وكرها ،

ممتثلةٍ لوكزها ، وأنا لا أريد أن أكون راضخاً (١) » .

إن بيركن ليس راضخاً ، ومع أنه يعلم تمام العلم بماذا يخاطر ، وما الذي يخشاه أكثر من الموت بألف مرة : إنه التعذيب الذي يحمل في ثناياه خطر أن يجعله يستسلم ، إنه العمى ، والخصي ، وانهيار غرابو الذي يسلمه إلى التعفن . ويتوصل بيركن ، من خلالِ توترٍ أقصى لكامل إرادته ، ومن خلال نوعٍ من هياج الطاقة ، قهري كالحاجة الجنسية ، يتوصل إلى أن يفرض على جسده ، وخياله نفسه أن يطيعاه وذلك بأن يقوما بفعلٍ لتوكيدٍ كاملٍ للذات ، وأخيرٍ لارجاء منه . إنه يجابه بمفرده الخط القتالي الخطير لرجال الستيينغ ، وأسلحتهم المسمومة ، وينتصر في هذه المجابهة .

موت بيركن :

ولكن كيف تكون معركته الأخيرة ؟ كيف لا يغلب في النهاية ؟ لقد جرح في ركبته ، والموت ، الحاضر في كل حياة كنهايةٍ لا مفر منها ، يتقدم بسرعة الآن في حياته ، عن طريق الغنغرينا . ويعلم بيركن ذلك ، ويريد أن يعود إلى الجبل الذي أنشأ فيه مملكته ، ويهتم للمرة الأولى الآن بـ « حرية » قبائله ! ... بيد أنه يدرك سريعاً أن سلطته قد أصبحت عرضةً للسخرية ، لأنه قد تأكد في أذهان الجميع أنه سيموت(٢) ، وأنه لم يعد شيئاً يذكر .

إن أناه لاتزال تقاوم بالتأكيد ، غير أن جسده يصبح وكأنه معزول ،

---

(١) الطريق الملكية ، الصفحة : /١٠٧/ .

(٢) الاستنتاج ذاته ، والغضب العاجز ذاته يظهران لدى لينين وغارين في رواية « الظافرون » ، انظر فيما بعد ، الصفحة : ٧٧ (الاصل الفرنسي) .

ويتابع تعفنه . وكل نظرةٍ من نظرات الآخرين تعكس له نهايته ؛ فيثبت ذاته مرةً أخرى أيضاً بأن يقتل اثنين من السكان الأصليين كانا ينويان فرض إرادتهما عليه . فما نفع ذلك ؟ إنه يحتضر احتضاراً أليماً يتناوب فيه على نحوٍ غريب ، الفرح الذي لا يزال حياً ، والاستسلام الرقيق جداً للنور ، والوعي الفظيع ؛ فليس بامكان أي شيء أن يعطي حياته معنى ، وليس هناك موت ، بل هناك هو فقط ، هو الذي سيموت (١) .

أما كلود فلا يسعه إلا أن يضمه من كتفيه ، محاولاً بذلك أن يعبر بيديه وبعينيه عن كل كلامٍ عاجز ، وعن إخاءٍ يائس ، ولكن دون جدوى ، فبيركن ينظر إلى هذا الشاهد الغريب ، وكأنه كائن من عالم آخر (٢) .

كان بيركن ، أثناء سيره المؤثر ضد حراب رجال الستيينغ ، قد هزّته فجأة هذه الفكرة الحمقاء : فكرة عذابات الجحيم التي اختارها ذهنه تباهياً — وهي فكرة الأعضاء المقطوعة ، والملوية بعكس اتجاهها ، والرأس الساقط على الظهر مثل كيس ، ووتد الجسد المزروع في الأرض إلى الأبد — والرغبة المجنونة في أن يكون ذلك موجوداً ، لكي يكون بوسع الإنسان أخيراً أن يبصق في وجه التعذيب عن وعي تامٍ منه ، وإرادةٍ كاملة ، حتى وهو يجأرُ من الألم (٣) .

أما كلود ، الذي « يقف وجهاً لوجه أمام تفاهة الوجود الإنساني ، عليلاً بصمته ، وبادانته التي لا تلين لعالمٍ يمثله محتضر نحبه » . ، فتتملكه

(١)و(٢) : الطريق الملكية ، الصفحة : ١٨٢ .

(٣) : الطريق الملكية ، الصفحة : ١٣١ .

الآن أيضاً رغبة لاتهام الآلهة ، ولكل أولئك الذين يتجاسرون على التعزي بها :

« حبذا لو كانت الآلهة موجودة ! إذن لاستطاع ، لقاء العذابات الأبدية ، أن يجأر مثلما تجأر هذه الكلاب ، بأن أية فكرة إلهية ، وأية مكافأة مقبلة ، وأي شيء « لا يمكنه أن يسوغ نهاية وجود إنساني ، ولأفلت من عدم جدوى صراخه أمام صمت النهار المطلق ، ولتخلص من إغلاق عينيه ، ومن هذه الأسنان التي تقطر دماً ، وتستمر في تمزيق جلده (١) ... » :

لم يكن استمرار الرواية ممكناً ، بعد مشهدٍ على هذه الدرجة من القوة ؛ فلا نعرف مصير غرابو ، بعد أن تحرر ، وأرسل إلى المشفى ، ولا نعرف بالأخص ما ستكون عليه حياة كلود ، منذ ذلك الحين ، والمصير الذي سيختاره لنفسه ، بعد أن يكون قادراً على التخلص بعض الشيء من ذكرى ذلك الرأس الذي فتك به الداءُ ، رأس بيركن المحتضر ، ومن تلك الهزيمة الهائلة(٢) . لقد خلف كلود استحواذ الطريق الملكية خلفه الآن ؛ فحتى لو تمكن من أن يحمل معه أحجاره إلى أوروبا ، ليبيعها بثمن غالٍ لبورجوازيين يضمر لهم الاحتقار ، فما الذي سيجنيه . شخصياً من وراء ذلك ؟ ...

---

(١) لقد عض بيركن جلده حتى أدماه لكيلا ينهار من الألم ، في ضوء النهار الذي لا يأبه به .

(٢) الطريق الملكية ، الصفحة : ١٨٢ .

لقد لعب بيركن(١) دوره على نحوٍ عظيم ، ولكنه بالضبط لم يكن يريد أن يلعب دوراً ما . كان يريد أن « ينتصر » وأن « يحقق قوة ما » وأن « يترك أثراً على الخريطة » ! ... إلا أنه لم يبن شيئاً ، وقد مات وهو يعرف ذلك ؛ فما هو سبب فشله ؟ هل كان كل ما ينقصه هو الصحوة ، صحوة الالتزام بقضية عظيمة .

« إن المغامر يهرب من نفسه ، كما يعلّق مالرو ، أي أنه يهرب من تسلط فكرة الموت عليه في نفس الوقت الذي يجري فيه نحو هذا الموت » .

فهل تنطبق هذه الملاحظة أيضاً على سائر المغامرين ، وعلى المغامرين الثوريين ؟ ...

إن صورة بيركن تقودنا بالضرورة إلى استحضار صورة غارين ، بعدها مباشرة ، وغارين هو بطل الرواية الثانية التي تصور مالرو فكرتها وهي : « الظافرون » .

« الظافرون » : (٢)

إن بناء الرواية يماثل الصورة التي بنيت بها رواية الطريق الملكية تقريباً ؛ ففيها معالجة نفسية طويلة تسبق الأفعال الحقيقية(٣) للشخصيات ..

(١) سيقول مالرو أيضاً ، في مقابلة لمجلة كانديد بتاريخ ١٣ تشرين الثاني ١٩٣٠ ، في المذكرات المخالفة : « كان بيركن تجسيداً للبطل السلبي ، من خلال نموذج خارج على القانون ، ومنتشر ، حين كتبت كتابي .. إن كل ما نصنعه اليوم هو أبطال بلا قضية » . الصفحات : ٣٨٠ و٤٧٣ . إن مالرو ، في المذكرات المخالفة أيضاً ، يجعل كلابيك يروي بصورة مسهبة جداً ، مغامرات ميرينا ، ملك السيدانغ ، والذي تشكل أسطورته جزئياً أساس رواية الطريق الملكية ، كما يقول مالرو .

(٢) ... ولكننا نذكر بأن هذه الرواية قد كتبت ونشرت قبل « الطريق الملكية »

(٣) إن عناوين الأقسام الثلاثة لا ترد في الطبعات جميعاً ، وهذه هي :
المقاربات ، القوى ، الإنسان

غير أنه بينما تقدم شخصيات مالرو الأخرى لنا بصورة عامة من خلال مشاهد رئيسية كبيرة فقط ، وهي مشاهد يصعب الربط فيما بينها أحياناً ، تحتل شخصية غارين ، في هذه الرواية الساحة بكاملها حقاً ، وتدرس من خلال استمرارها . إننا نعرفها معرفة واقعية ، فيما نجهل الكثير من الأشياء عن بيركن .

وإلى جانب غارين لا نجد شخصية مثل كلود فانيك ، بل نجد راوياً « يتجسد في شخصية معينة ظاهرياً ، ولا نحتاج إلى معرفة اسمه أكثر مما نحتاج إلى اسم مؤتمنة أسرار إيريفيل في مسرح راسين ... وبما أنه حاضر باستمرار (وقد استدعي إلى كانتون كمترجم) ، وصديق حميم لغارين ، فليس له دور آخر ، كما يبدو ، غير دور يضطر فيه أن « يحيا في موضع عال » أمامنا بحيث لا يفوتنا شيء من شخصيته ... وفي الواقع ، فهذه النظرة البسيطة من الغير تتيح لمالرو أن يحافظ على وجود مسافة أكيدة بينه وبين الشخصية الفنية التي يبتكرها ، مهما تكن قريبة من نفسه . إن بعضاً من أفكار الراوي تستدعي أفكارنا في نفس الوقت الذي تستدعي فيه أفكار غارين ، وتدعونا باستمرار إلى دراسته بنوعٍ من التعاطف حتماً ، مثلما يصنع صديقه ، ولكنها تدعونا أيضاً إلى الحكم عليه بروحٍ نقدية .

تجري أحداث الرواية عام ١٩٢٥ ، في ظل تلك « الحكومة الغريبة ، حكومة كانتون » ، والتي ورد الحديث عنها في نهاية كتاب : « إغراء الغرب(١) » . إنها حكومة غريبة حقاً ، ولا نعرف عملياً أي عضو فيها . ولئن كانت تخيف انكلترا كثيراً ؛ فليس ذلك بسبب

(١) انظر : الصفحة : ٥٦ (الأصل الفرنسي) .

نشاطها الذاتي ، بل بسبب تلك النشاطات التي تضطر للسّماح للكومنتانغ (١) أن يقوم بها أكثر فأكثر ، كما تضطر للسماح بها لشيوعيي الأممية الثالثة ، داخل الكومنتانغ ، فاعتباراً من اتفاقات سون يات سن وجوفيه عام ١٩٢٣ ، ومؤتمر كانون الثاني لعام ١٩٢٤ ، صار يمكن لهؤلاء الشيوعيين أن يكونوا أعضاء في الكومنتانغ ، دون أن يقطعوا انتماءهم بحزبهم الخاص ؛ فأصبحوا لاغنى عنهم أكثر فأكثر .

لقد أتخذت تدابير عديدة للتعاون العملي، فذهب شان كاي شيك ليتابع محاضرات خاصة في موسكو ، وهو يديرُ الآن المدرسة العسكرية الشهيرة فوام بوا . أما الروسي ميشيل بورودين ، الذي كان مستشاراً سوفييتياً لمصطفى كمال سابقاً ، فيحصل بصورة رسمية(٢) ، وفي سياق الرواية ، على المنصب ذاته ، في كانتون ، والذي كان يمارسه فيها عملياً قبل شهرين : وهناك روسي آخر ، اسمه غالين (وهو الجنرال بلوخير ، فيما بعد) يقودُ الأركان العامة الكانتونية — خلاصة القول أن الأممية الثالثة (ودون أن تغرب عن بالها أهدافها الثورية) تزود الحركة الوطنية الصينية عام ١٩٢٥ بالملاكات التي طالما افتقرت إليها حتى ذلك الحين ، لكي تناضل ضد البيض ، كما تزودها بالأدمغة وبوسائل نشاطها . إن قسماً جيداً من الجيش ، والنقابات ، ورجال الشرطة ، قد أصبحوا بين أيدي هذه الملاكات . إنهم ينظمون الجماهير ، وهذا هو سببُ خوف انكلترا ... أفليسوا ينوون الآن أن يصنعوا من هونغ كونغ الشديدة الغنى ، والرّمز الحقيقي للرأسمالية ، مدينةً ميتة ومفلسة لا يكون لأية سفينة تتاجر مع الصين الوطنية الحق في أن ترسو فيها ؟

(١) المؤتمر الأول للكومنتانغ ... وماوتسي تونغ يدخل إلى الإدارة المركزية في ذلك التاريخ .

(٢) بدلا من الأمريكي روبير نورمان .

إن انتصاراً كهذا سيكون له بالتأكيد انعكاسات لا تحصى في العالم أجمع .

وفي الصف الأول من الملاكات الثورية ، ومع بورودين الذي قد يكون أكثرهم حماسةً ، يقف أحد أكثرهم فعالية على أية حال ، وهو : غارين .

غارين المغامر :

من هو غارين ؟

إن أقل ما يقال هو أن مالرو لا ينقصه التحيز المفرط لغارين ، ولا يسعى إلى إخفاء كل سمات بطله التي تفرض تصنيفه بين الثوريين « الذين يجب أن نسميهم مغامرين حقاً » ، بل يشدد عليها بالحاح واضح ، سواء استمدها من ذكرياته الشخصية أم لا . وهناك عضو آخر في الأهمية هو : جيرار ، ومع أنه ليس شديد الترمّت ، فهو الذي يتكلم في المشاهد الأولى تماماً من الكتاب ، على النحو التالي :

« ... يقول إن الناس تحتل المشاعر الثورية لديهم المكان الذي يحتله الميلُ إلى الجيش في صفوف جنود الفيالق ، هم أناسٌ لم يقبلوا الحياة الاجتماعية قط ، وقد طلبوا الشيء الكثير من الوجود ، وأرادوا أن يعطوا لحياتهم معنى ، أما الآن ، وقد عدلوا عن كل ذلك ؛ فهم يؤدون خدمتهم .

إن صورة غارين صورة متكلفة ، وسوف نلاحظ ذلك شيئاً فشيئاً ؛ وهو من سويةٍ عالية ، ولكنه ، في تحليلٍ أول ينتمي حقاً إلى ذلك النوع

(١) على الأقل ، في نص الطبعة الأولى .

الذي ذكرناه من الرجال(١) . إن مالرو يكثر من الإشارات التي يمكنها فقط أن تجعل بطله مبعث ارتياب لأي قارىء متوسط ، سواء كان مناضلاً أو لم يكن ، وتبدو وكأن ليس لها داعٍ ، وتتضمن دوماً تناولاً نفسياً سليماً إلى حد كبير . ويزداد تأثيرها على القراء لاسيما وأن من يقدّمها إلينا هو أفضل صديق لغارين ، ويفسر لمصلحته تقريراً للشرطة لا غبار على دقته .

إن غارين مقامر ، ويجري التأكيد على هذه الناحية تكراراً في الرواية . إنه يخسر ثروته في مضاربات مالية مختلفة ، ويجمعها مجدداً في كانتون ذاتها ، عن طريق الابتزاز والطرق غير الأخلاقية ، وذلك فقط ليؤمن لنفسه هناك استقلالاً نسبياً من جهة ثانية .

وبما أنه ذو جنسية سويسرية، فهو ينخرط في الفرقة الأجنبية الفرنسية أثناء حرب ١٩١٤ ، مع أن طبيعة النزاع لا تهمه ؛ فما ينتظره من الحرب هو بالضبط قيام « معارك » (ومع ذلك فهو يهرب ، حين يوزعون على جنود الفرقة سكاكين لحامين) .

ولئن كان يتردد ، في أول شبابه ، على الفوضويين ، والاشتراكيين الطليعيين فذلك لأنه يبحث لديهم عن « جوٍ خاص » ، وعن الأمل بوجود

---

(١) في نهاية الكتاب ، سيوحى لنا الراوي ، بقليل من التردد ، ولكن بوضوح ، بتسمية « اكثر نبلا من تسمية « مغامرين » ، وسوف يضع غارين في مصاف الشيوعيين الذين ينتمون إلى نموذج لا أدري ماذا أقول عنه ، إلى نموذج « الظافرون » الذين يسعون إلى إدخال الصين في « الأممية » ، وذلك بالتعارض مع الشيوعيين الذين هم من النموذج الروماني ، والذين يريدون أن يبنوا امبراطورية الشيوعية مثلما يبنون صرحاً تاريخياً معيناً ... » إن عنوان الكتاب يشير بصورة كافية إلى أن مالرو يتبنى الكلمة بكل ما في معناها من لونيات ».

فترة اضطراب » ، غير أنه يذهب إلى الاجتماعات — وهذه سذاجة منه — وهو يعتمر قبعة باركلي !

إنه يتحدث ، في ذلك التاريخ ، بسخرية متعالية عن الرجال الذين التقاهم منذ قليل ، والذين يزعمون أنهم يعملون من أجل سعادة البشرية ، فيقول : « يريد هؤلاء الأغبياء أن يكونوا على صواب . وعلى هذا الأساس ؛ فليس هناك إلا صواب واحد لا يعتبر مدعاة للسخرية ، وهو : أن يستخدم المرء قوته بأكبر فعالية ممكنة .

إنه لا يعتبر المجتمع فاسداً ، وقابلاً للتحسين ، بل يعتبره منافياً للعقل . ولا يهمه أن يجري تغييره ؛ فهو يعلم أنه لن يتمكن ، هو غارين ، من أن يندمج في شكل اجتماعي معين ، أياً كان ؛ فهو لا اجتماعي مثلما هو ملحد :

إنه لا يحب حتى الناس الفقراء ، أي الشعب ، وهم الناس الذين سيحارب من أجلهم إجمالاً ؛ إنه يؤثرهم بالتأكيد على البرجوازيين — في الوقت الحالي ! غير أنه يعلم حق العلم أنهم سيصبحون سافلين ، حين يتحقق لهم النصر ...

إنه يريد الحصول على القوة ، هذا كل ما في الأمر ، وهذه الحاجة إلى القوة موجودة في نفسه ، وهي حاجة عنيدة ، ومستمرة ، وكأنها مرض لديه :

« لقد قال هو بالذات : إن عاطفة لا رجاء منها مطلقاً هي إحدى دعائم القوة المؤثرة ... فالارتباط بعمل كبير معين ، وعدم التخلي عنه ، وأن يصبح المرء مسكوناً ، ومسموماً به ، وربما هذا هو ...

ولكنه يهز كتفيه ، ويقطع جملته في هذا الموضع :

إن قوتي تتأتى من أنني قد فقدت بصورة كاملة الاهتمام بأي شيء آخر غير مصنحتي المباشرة (١) » :

وسنراه فعلاً في الرواية يستخدم كافة الوسائل في خدمة الثورة : الأكاذيب ، والشهادات المعلنة مسبقاً ، وحتى التنكيل (بمقدار محسوب ، إذا صح القول ، ولكن من غير ساديةٍ ؛ فهو يعلم أنه لايمكن الخلاص من السادية) ::: أما بالنسبة إليه ؛ فهو لا يبدي أي تردد في استخدام المومسات ، ويفضل أن تتوفر له اثنتان في آنٍ واحد ليتمكن من الاهتمام بارتياح بأمورٍ جدّية ، بعد أن يهدأ . ويقول إنه يناضل من أجل كرامة الإنسان : أما كرامة المرأة فلا يبدو أنها تشكل في نظره بعد جزءاً من الأمور الجدية ، حين تتعلق المسألة بشهوته ، ووقاية صحته :::

لايمكن بالتأكيد أن نقول إن هناك إطراءً لشخصية غارين : بيد أن ذلك لا ينفي وجود ودٍ عميق جداً نحوها : إنها أولاً شخصيةٌ موجودة بفعالية بالغة الشدة كما يرغب المؤلف و«حضورها» لااعتراض عليه عليه ، كما يقال عن ممثلٍ مسرحي ، وهي شخصية تحافظ ، في كل أفعالها ، وكل أفكارها ، وحتى في المرض والحمى ، على نزعةٍ إنسانيةٍ حقيقية ، وجوهرية ، وتتمكن بفضلها أن تتخلص في نهاية الأمر من أية أنانية ، وحتى يظهر أنها لا تتخذ قراراً إلا لنفسها .

غارين الثوري :

إن الدوافع العميقة لالتزامه هي دوافع بيركن نفسها ؛ فهو يهرب

(١) هذه الإشارات كافة موجودة في المشهد الأخير من القسم الأول من الرواية وهو : المقاربات .

من لا معقولية الوضع الإنساني(١) ويريد النهوض بأعباء مصيره ، وليس أن يكابد هذا المصير مكابدةً ، وأن يثبت نفسه بكل قواه . ولكن ، إذا كان صحيحاً أنه سيبقى ذا نزعة فردية دوماً ، وعلى نحوٍ عميق ، وأن « يحيا وجوده » بمعزلٍ عن الآخرين ، وهذا ما يميزه بوضوحٍ عن عددٍ من رفاقه ؛ فالصحيح أيضاً أنه قد أدرك استحالة النضال ضد اللامعقول بمفرده ، وأنه حين عزم على الارتباط بقضيةٍ عظيمة ، لم يختر قضية عظيمة محددةً ، مهما قال ذلك ، وإنما اختار إحدى تلك القضايا التي يمكن أن تكون فعلاً أكثر القضايا تحريراً .

إن الرواية بكاملها تبين لنا ذلك ؛ فغارين ، انطلاقاً من احتقاره للبورجوازية ولكي يخضع قدره الذاتي لسيطرته ، والجماهير الصينية ، من أجل أن تحطم الاضطهاد الاجتماعي ، ينخرطون في « نضال مشترك » وبرغم صفاء ذهن غارين ، فهو يكذب على نفسه أحياناً ، بسبب صلافته ، كما ينتهي الراوي إلى تبيان ذلك في نهاية الكتاب(٢) . ويربط

---

(١) إن السؤال الأساسي بالنسبة لغارين هو أن يعرف كيف يمكن الاشتراك في ثورة أقل مما هو أن يعرف كيف يمكن الإفلات مما يسميه اللامعقول . إن رواية « الظافرون » بجملتها هي مطالبة مستمرة ، ولقد أكدت ، من ناحية أخرى على هذه الجملة : « التخلص من فكرة اللامعقول ، من خلال الهروب إلى الإنساني » . ومن المؤكد أنه يمكن الهروب بطريقة أخرى ؛ فأنا لا أزعم بأية صورة أنني أرد على هذا الاعتراض ، بل أقول ببساطة إن غارين إنسان قد أعطى مثالا معيناً ، بالقدر الذي هرب فيه من تلك اللامعقولية التي هي أكثر شيء مأسوي يجد الإنسان نفسه حياله » . أندريه مالرو ، محاضرة حول « الظافرون » صدرت في مجلة منوعات ، بتاريخ ١٥ تشرين الأول ، ١٩٢٩ .

(٢) الصفحة ما قبل الأخيرة في الكتاب : « ... إني أدرك فجأة لماذا تشوشني هذه الكلمات ؛ فليس أنا من يريد إقناعه . إنه لا يصدق ما يقوله ، ويجهد بكل أعصابه المستثارة أن يقنع نفسه ... » الطبعة النهائية . وكان قد ورد في الطبعة الأولى : « إنه يكذب » بدلا من : إنه لا يصدق ما يقوله » ، وهذا أقل صحة ، ولكنه أقوى .

منذ ذلك الحين (وهو يعلم ذلك ويقبله) بأولئك الذين يكافح إلى جانبهم، ليس فقط من خلال الموت الذي يواجهونه معاً، ومن خلال الشغف بالنصر، وإنما أيضاً من خلال تضامن طبيعي، وتمرد أساسي ضد ما هو مُذِل.

ليس صحيحاً أنه يمكن أن يكون فاشياً، أو أن يخدم القوة الانكليزية القادرة (التي تفتنه مثل أية قوة)، لأن الثورة الصينية في نظره، ودون أي شك ممكن، هي القوة القادرة أكثر من غيرها على انتزاع مئات الآلاف من البؤس الذي لا يوصف، والذي لم يكن يخطر بباله، في أوروبا، والذي يسحق أقرانه على الأرض، ويخنق فيهم أية كرامة ممكنة. إن الشيوعيين وحدهم يسمعون صرخاتهم، وينتقلون إلى الفعل، مثل صرخة ماو لينغ فو:

« أنتم الذين لا مأوى لكم، أنتم الذين تفتقرون إلى الأرز، أنتم جميعاً! أنتم الذين لا اسم لكم، أنتم الذين يتعرفونكم من جراح أكتافكم، الذين تمرغون الأخشاب، وتجرون القوارب، والذين يتعرفونكم من جراح الوركين، يا عمال المرفأ! اصغوا، اصغوا(١)...».

إن غارين يناضل ضد البؤس لأن في قلبه رأفة، ولأن البؤس في نظره هو أحد أشكال اللامعقول الأكثر شؤماً وهولاً، ولأنه يحرم البشر من الكرامة الإنسانية؛ فغارين فخور بما صنع.

« لقد أسهمت في خلق الأمل لديهم. أملهم. أنا لا أحرص على

(١) إن الراوي الذي يصل حديثاً إلى كانتون، يقدم وصفاً مؤثراً لذلك البؤس - غير أن غارين يرى البؤس دائماً، ويعرف إلى أين يؤدي: « إن أولئك الذين سقطوا في البؤس إلى درك شديد العمق لا يخرجون منه أبداً. إنهم يذوبون فيه، كما لو أنهم مصابون بالجذام.

تدبيج الجمل ، ولكن أمل الناس ، في نهاية الأمر هو مبرر حياتهم وموتهم ...

ألا يزال يمكن أن نقول عن هذا الإنسان الذي ينطق بهذه الجملة إنه ليس سوى مغامر ؟

لا يمتلك الإنسان إلا ما يحب :

إننا نشاطر غارين(١) محنته المريرة في نهاية هذه الرواية التي رأيناه يكبر فيها باستمرار ، حين يتعين عليه أن يترك شخصياً تلك القضية العظيمة ، بسبب مرضه الخطير ، وحسب كل احتمال ، بعد فوات الأوان ، من جهة أخرى ، وأن يتخلى عن عمله غير الناجز بالضرورة والمؤقت بالضرورة .

إن التاريخ الإنساني لا يتوقف ، وليس هناك انتصار نهائي ، وحول هذا الموضوع ، يجعل مالرو الراوي يأتي على ذكر ألم لينين الممض ، خلال مرضه الأخير — ويروي ذلك ، ويعلق عليه بصورة رائعة — فلينين لا يزال معبود كل أنحاء روسيا ، وهو يكتشف ذات صباح ما يخشاه ، وما يعرفه ؛ فالسلطة الحقيقية قد انتقلت إلى يد الآخرين! ولم يعد لينين في ذلك الوقت قادراً على الدفاع حتى عن تروتسكي ضد سياسة جديدة منذرة بالخطر ، وأن ينشر في صحف حزبه مقالة معينة(٢) فما الذي سيصير إليه ما أنجزه ؟ ... وماذا سيحدث لما أنجزه غارين ؟ ...

« حبذا لو أرى الصين هذه ، بعد خمسة أعوام ! » تلك هي إحدى

---

(١) لكي يتجاوز غارين هذا الحزن العميق ، ويحافظ على قوته ، فهو يزيد من صفاقته كما رأينا في الصفحة السابقة .

(٢) يجعل مالرو الراوي يشير إلى أن القصة قد لا تكون واقعية .

الصرخات الأخيرة في الكتاب ، والتي تبقى في ذاكرتنا (١) . ومع أن غارين قد ارتبط بقضية عظيمة ، ومع أنه قد خدمها على أحسن وجه ممكن ؛ فهو يغرقُ مجدداً في الوحدة ، مثل بيركن .

فهل كان الذي حدث لكليهما أمر حتمي ؟ ومهما احتوت كل من روايتي « الطريق الملكية » و« الظافرون » في جملتهما الأخيرة كلمة « الإخاء » : فهذا الإخاءُ هو الذي يفتقر إليه بلا شك كل من غارين وبيركن افتقاراً مريراً ، برغم الصداقة التي يحملها كلود فانيك والراوي لهما ، إنه الحب ... وقد أشار إليه مالرو ، وبصورة قد تكون خفيةً إلى حد مفرط(٢) ، طالما أن الغالبية الكبرى من النقاد لم تلاحظ ذلك . ومع هذا ، يبدو لي أن مالرو قد أشار إلى ذلك الحب ، بقوة على درجة كبيرة من الوضوح ، بحيث تنبثق معاينته من تلقاء نفسها ، وبصورة جلية ، مثل قانون طبيعي — وهي معاينة قاطعة بالنسبة لبيركن ، وكأنها إدانة لا يمكن ردها ، في قلب إخفاقه الإنساني الأشد إيلاماً(٣) نفسه : « إننا لا نمتلك إلا ما نحب » . إن القوة وحدها بلا حب مدعاة للسخرية

---

(١) لدى غارين بعض المبررات لكي يقلق ، الصفحة : ٨٣ ، الملاحظة الأولى (النص الفرنسي) .

(٢) هذا هو احتشام مالرو الذي أشار إليه بحق شارل مولن . وقد لاحظنا فيما سبق أن سيرة حياة مالرو قد عرفت معرفة سيئة للسبب ذاته .

(٣) يحس بيركن ، من خلال فعل الحب نفسه بأنه يرتد إلى الوحدة ، وإلى الموت (بلا حب ! مثل امرأة يمتلكها وكأنه يوسعها ضرباً) . (الطريق الملكية ، السطور الأخيرة من القسم الثالث) .

تقريباً على الدوام(١) ... فلا بد من الإنسان بكامله ليكون إنساناً ، وهذا بلا شك هو الدرس الأقوى في أول روايتين لمالرو ، وهو درس يتجاوز حتى الميتافيزياء والسياسة(٢) ..

* * *

(٢) ان بيركن يوصمه « العجز » وليس مصادفة أن تفصح الكلمات هنا عن نفسها .

(١) نقرأ باهتمام ، في المجلة الفرنسية الحديثة ، رسالة تروتسكي حول مسائل رواية « الظافرون » ، إذ يقول : « كان يمكن لتلقيح جيد بالماركسية أن ميقي المؤلف من أغلاط سوء فهم قاتلة من هذا النوع » . وقد رد مالرو : « أخشى ألا يكون لتروتسكي معرفة جيدة بشرط الإبداع الفني ؛ فالثورات لا تصتع من تلقاء نفسها ، مثلها مثل الروايات . وهذا الكتاب ليس « وقائع تاريخية متنوعة » للثورة الصينية . لأن التشديد الرئيسي إنما يوضع على العلاقة بين الأفراد والعمل الجماعي ، وليس على العمل الجماعي وحده » (المجلة الفرنسية الجديدة : ١٩٣١) ، ولقد منعت « الظافرون » حالا في إيطاليا الفاشية ، وروسيا السوفييتية ، ثم منعت بطبيعة الحال في ألمانيا الهتلرية ، فيما بعد أيضاً ، كما منعت في الاتحاد السوفييتي عام ١٩٦١ مثلما منعت « الوضع الإنساني » و« الأمل » (حتى بمناسبة معرض الكتاب الفرنسي) .

- ٤ -

الوضع الإنساني

من المؤكد أن القراء قد شعروا بردي الفعل المتتاليين اللذين أبداهما جيد بصدد الوضع الإنساني ، إذ قال : « إن هذا الكتاب الذي كان يبدو لي ، حين نشر في إحدى المجلات ، كثيفاً إلى حد زائد ، ومملاً لشدة غناه ، وغير مفهوم تقريباً من فرط تعقده ... يبدو لي ، حين أعيد قراءته دفعة واحدة ، واضحاً تمام الوضوح ، ومنسجماً من خلال التشابك الذي فيه ، ومتصفاً بذكاء يدعو إلى الإعجاب ، وبرغم هذا (أعني برغم صفته العقلية) فهو متوغل بعمق في الحياة ، ومختلج بقلق له أحياناً (١) » .

كانت « الطريق الملكية » و« الظافرون » روايتين بسيطتين ، في بنائهما على الأقل ، ولم تصورا لنا سوى شخصيتين أو ثلاث تصويراً نابضاً بالحياة . زد على ذلك أنه كان من حقنا أن نرفض بصورة مشروعة أن نتعرف على عامة الناس في هذه الشخصيات افكان فيها فقط رجال ليس لهم أولاد ، ولا يرغبون في ذلك (٢) . كما لم يتخذوا لهم أية امرأة باستثناء المومسات (٣) .

---

(١) اليوميات : ١٠ نيسان : ١٩٣٣ .

(٢) الطريق الملكية : الصفحة : ٥٩ .

(٣) ومع ذلك فلنشر إلى أن الرواية تأتي على ذكر سارة ، رفيقة بيركن القديمة ، وتورد المشهد المحزن مشهد السيدة كلين أمام جثة زوجها التي عذبه الإرهابيون في بيت للدعارة واغتالوه .



مالرو ، الذي أصبح وزيراً عام ١٩٦٥ ، يلتقي في بكين شوإن لاي الذي أصبح وزيراً . وشوإن لاي هو الذي نظم عام ١٩٢٧ انتفاضة شنغهاي الثانية ، والتي رواها مالرو في « الوضع الإنساني » .

إن « الوضع الإنساني » تتوافق ، مع عنوانها ، وهي تكون لدينا فعلاً انطباعاً عن عالمٍ معين ، وهو عالم لايزال غير معهود بلا شك ، وليس عالماً يومياً ، وهو بعيد عنا مكانياً ، مع أنه ليس فيه أي إغرابٍ ، ولكنه كامل ومعقد ، ومشوش ، ومختلط ، وحي ، وراهن ، وتنبثق منه في آنٍ واحد سائر المشكلات التي تعاش قبل أن تطرح ، وتطرح

لكي تعاش على نحوٍ أفضل . إن كافة الشخصيات تمسُّنا ، ويؤثر فينا صدقها وعظمتها باستمرار ، من خلال الاستحضار النفسي ، والفلسفي والسياسي ، والوجداني لها .

ليس من الممكن ، بطبيعة الحال ، « إيجاز كتاب من هذا النوع — فميزة الروايات العظيمة هي أنها لا تنضب ، على نحوٍ أقل بكثير من الحياة بالتأكيد ، ولكن بما يكفي لتجعل أي « عرض » لها ذا قيمة تافهة . ويمكن إلقاء الضوء على بعض زوايا النظر إلى هذه الرواية لنجعل قراءتها مثمرةً أكثر .

الصين في عام ١٩٢٧ :

إن إطار (الوضع الإنساني) ليس شيئاً جوهرياً ، كما يقول مالرو ؛ فالجوهري هو العنصر الباسكالي فيها ؛ غير أن إطارها ليس عرضياً . وفي حقبةٍ زمنيةٍ معينة ، أظن أن هناك القليل من الأماكن التي تجتمع فيها شروط بطولةٍ معينة ممكنة (١) .

ولقد اجتمعت هذه الشروط في الصين عام ١٩٢٧ وهي : وضع سياسي معقد إلى أقصى حد ، وقوى ورهانات هائلة ، وبؤس الجماهير ، وضرورة الاختيار أو المراهنات المأسوية ، في كل لحظة تقريباً ... أما الحزب الشيوعي الصيني فقد كبر خاصة منذ عهد رواية « الظافرون » ، وازداد تعداده من بضعة آلاف عضو إلى ستين ألفاً ، وانتقلت النقابات الواقعة تحت تأثيره من ستمئة ألف إلى خمسة أو ستة ملايين . أما الكومنتانغ الذي يشكل الشيوعيون دوماً جزءاً منه ، ولكن من غير أن

(١) رسالة ترجع إلى عام ١٩٣٤ ، وقد ذكرها غايتان بيكون في كتابه : « مالرو من خلال ذاته » (سوي ، طبعات حديثة) .

تكون لهم السيطرة فيه كما في السابق ؛ فقد شن عام ١٩٢٦ هجوماً كبيراً على « سادة الحزب » ، وهم أهل الشمال المدعومين من بريطانيا العظمى ؛ فأخضع الصين الجنوبية بكاملها ، وأصبحت هان كيو ، وشانغ شا حينذاك في أيدي الوطنيين ، وغدا شان كاي شيك البطل القومي .

وفي شهر شباط ١٩٢٧ ، وفي الوقت الذي يقترب فيه جيش الكومنتانغ يحاول الشيوعيون القيام بانتفاضة ليحرروا المدينة بأنفسهم ، ويتمركزوا فيها بصورة ثابتة قبل وصول جيش شان كاي شيك ... ولكن شان كاي شيك — يحجم عن التقدم (ألانه لا يستطيع ذلك ؟ ... أم لأنه لا يريد ذلك ؟ ...) وهكذا يتوفر للجنرال الشمالي باوشينغ الوقت ليسحق الانتفاضة ، وليبيد الشيوعيين .

وفي آذار ، يتقدم شان كاي شيك من جديد ، وحين يصبح على بعد بضعة كيلو مترات فقط ، يقوم الشيوعيون ، الذين استعدوا استعداداً أفضل بكثير ، وتحت قيادة شوإن لاي هذه المرة ، بانتفاضة جديدة(١) . فتبدأ الرواية ..

---

(١) قارن إنتفاضتي شنغهاي هاتين في عام ١٩٢٧ بانتفاضات باريس ووارسو في آب عام ١٩٤٤ فالمدينتان تثوران ضد النازيين قبل وصول الجيوش الحليفة ، ولكنهما تعتمدان على وصولها الوشيك .. وقبالة وارسو فقط ، ومن الناحية الأخرى للفيستول ، تتوقف القوات السوفييتية عن التقدم فيتوفر لهتلر الوقت ليدمر المدينة ، ويقتل ١٥٠ ألفاً من البولونيين ، بينما تصل الجيوش الانكليزية — الأمريكية — الفرنسية إلى باريس مبكراً على نحو كاف بحيث تمنع حدوث رد فعل هتلري عنيف ، وتستولي على المواقع الألمانية الأخيرة المحصنة ، بأسلحتها الثقيلة ، والتي كانت منيعة على قوات الداخل الفرنسية (كما استولى الثائرون في شنغهاي على القطار المصفح الذي كان يقل الجنود الشماليين) .

وينتصر الثائرون . فهل يحتفظون بالمدينة ، ويضفون عليها طابعاً اشتراكياً ، ويحاولون القضاء على البؤس بعض الشيء ؟ وهل يترك الكومنتانغ ، وشان كاي شيك ، الموجودون هناك بكل قواتهم هذه المرة ، هل يتركون الشيوعيين مسلّحين ؟ ... إن استراتيجية الحزب بسيطة : فالاستقلال أولاً ، والثورة بعد ذلك ، والتعاون مع شان كاي شيك لتحرير الصين بكاملها ، والتخلص منه بعد ذلك من أجل بناء الاشتراكية . ولكن كيف لا يحاول شان كاي شيك أن يسبق الآخرين ؟ إن الغربيين منذ ذلك الحين سيراهنون عليه ، وسيوافقون طوعاً أو كرهاً على الاستقلال ليتجنبوا الخسارة الكاملة لامتيازاتهم الاقتصادية ، وهل يتمسك الحزب الآن بخطه ؟ ماذا يمكن لمناضليه ويجب عليهم أن يفعلوا ، وهم الذين يخمنون أن الحزب مخطىء ، وأنه ممزق في قمته(١) ، وأنه يجازف بضياع كل شيء ، و بأن يقضي عليهم جميعاً (ولكنهم ليسوا متأكدين من ذلك ؛ فليس بوسعهم معرفة كل عناصر الوضع) ، وهل ينبغي لهم أن يحاولوا قتل شان كاي شيك ، أو أن يدعوه يقتل (دون

---

(١) بين ستالين وتروتسكي .. لقد فرض ستالين وشين توسيو ، ضد إرادة تروتسكي، استمرار التعاون مع الكومنتانغ ، وبعد الفشل المأساوي ، والقمع الدامي في كل أنحاء الصين ، ألقى ستالين المسؤولية الكاملة لهذه السياسة على شين توسيو الذي تم إحلال شخص آخر محله ، وقد حرص مالرو على الإشارة في طبعة « الظافرون » النهائية إلى أن غارين كان قد توقع هذا التطور منذ عام ١٩٢٥ : « إن عارين يظن حقاً أن بورودين يعمل حسب احتمالات معينة ، غير أنها خاطئة ، وأن تسلط الفكرة الشيوعية عليه سيقوده إلى أن يوحد ضده يمين الكومنتانغ الأقوى خاصة من جناح تشينغ داي ، وأن يجعل الميليشيا العمالية تسحق على يد هذا الأخير ... » إن هذا التوقع الذي يتكهن به مالرو ، بعد فوات الأوان ، يظهر في رواية « الظافرون » تكهناً سهلاً بعض الشيء . أما في الوضع الإنساني ؛ فالتهديد واضح ، ولا يمكن لكيو ورفاقه ألا يروا خطر الموت المسلط عليهم .

أن يعرفوا جيداً ما سيحدث ؟) أو أن يتركوا هذا الأخير وجنرالات الشمال يفني بعضهم بعضاً ؟ أو أن يتراجعوا إلى كانتون ليقيموا فيها دولةً شيوعيةً صينيةً نموذجية ، وينتظروا في كافة الأمكنة الأخرى القمع الاحترازي المحتّم ؟ أو أن يقاتلوا ، ويقتلوا ، انطلاقاً من خط واضح على الأقل ؟

تلك هي بعض مشكلات الكتاب السياسية المبسطة : إلى أقصى حد ، وهي المشكلات التي ترتهن لها حياة أبطال الرواية بكاملها ؛ بيد أننا نحس أيضاً باستمرار ، في خلفية الصورة ، بحضور ملايين الكائنات التي ليس مصيرها معرضاً للتهديد بدرجة أقل ، وهم « أولئك الذين يشتغلون ست عشرة ساعة في اليوم منذ الطفولة ، وهم شعب القرحة ، والجنف ، والمجاعة » ، كل أولئك الذين سيظلون يعانون ويموتون كما في السابق ، إذا لم تنتصر الثورة . إننا ندرك بالتأكيد أن « الوضع الإنساني» روايةٌ قد نظر إليها قبل كل شيء باعتبارها « روايةً ثورية » ؛ فعنف النزاع ، والصدق ، والوضوح ، وطابع النقاشات الإنساني العميق ، والتي يعرضها الحدث الروائي ذاته دائماً دون نزعة تبسيطية أو جزمية ، وصحة التفاصيل ، وعظمة الصور المأسوية المستحضرة ، والإخاء المقاتل تجعل من هذه الرواية مؤلفاً سياسياً من الطراز الأول .

الخيار اللاباسكالي :

ومع ذلك ، فالعنصر الجوهري في الرواية هو حقاً العنصر الباسكالي أو على الأصح اللاباسكالي ، أي التأمل النفسي والفلسفي والوجداني حول الوضع الإنساني ، كما يشير مالرو . إن كافة الشخصيات دون استثناء ، ومهما كانت مختلفة ، تطرح علينا مسألة معنى حياتها ، وحياتنا

التائهة في الكون الذي لا يكترث لها ، والعالقة به دون أن يشاء أحد ذلك ؛ وفي لحظة من لحظات هذه الأرض البالغة الصغر ، ومن هذا التاريخ البشري الذي ينبغي على كل فرد مع ذلك أن يحتمل مصيره فيه ، أو يضطلع بمسؤولية هذا المصير بنفسه . إن لوحات ليلية رائعة تستدعي إلى أذهاننا وجود السماء الألفية الأعوام ، ومعجزة الوجود الإنساني السريع الزوال ، وذلك على ثماني أو عشر مرات — تتكرر دائماً ، ولا تتشابه أبداً ، مثل البحر — ولكنها لوحات تتناغم تناغماً خفياً ، مع المشهد المعاش ، ومع شعور الشخصية ، أو شعورها الباطن .

(يدرك كيو الآن تدريجياً ، في هانكيو ، أن شيوعيي شنغهاي قد قضي عليهم) « كانت الظلال تضيع على الأرض أكثر مما كانت تستطيل عليها ، وقد غمرها لمعان فوسفوري مزرق ، وكانت آخر إضاءة لذلك المساء الفريد الذي كان يحل بعيداً جداً ، في مكان ما ، في هذه العوالم ، والتي أتى انعكاسها الوحيد ليغمر الأرض ، كانت تلتمع التماعاً خفيفاً في أعماق عقد جسر ضخم يعلوه معبد صيني يأكله اللبلاب الذي غدا أسود (١) » .

(لم يفطن كلابيك ، الذي كان مشدوداً إلى طاولة القمار — مع أنه أنه ليس لاعباً ، يفطن إلى الموعد الذي كان لا يزال بوسعه أن يرسل لكيو تحذيراً فيه ، فينتزعه من براثن الموت) .

« وفجأة ، من خلال ما تبقى من الضباب ، ظهر على سطح الأشياء ضوء القمر الباهت ، رفع كلابيك عينيه ، فكان الضوء ينبثق من ساحل رملي تمزقه الغيوم الميتة ، وينحرف ببطء داخل فجوة هائلة ومعتمة ،

(١) الوضع الإنساني : الصفحة : ١٥٩ .

وشفافة ، مثل بحيرة تمتلىء أعماقها بالنجوم . إن ضوءه الذي يزداد شدةً كان يعطي هذه المنازل المغلقة ، وهذا التخلي الكامل عن المدينة ، حياةً تفوق الحياة الأرضية ، كما لو أن جو القمر قد أتى ليحل في هذا الصمت الكبير المفاجىء بنوره . ومع ذلك ، فوراء هذا الإطار من الأشجار الميتة . كان هناك بشر . وكان جميعهم تقريباً ينامون ، وحياة النوم المقلقة تتناغم مع هذا التخلي عن مدينةٍ غارقةٍ ، كما لو كانت ، هي أيضاً ، الحياة في كوكبٍ آخر (١) .

إن الرواية تضع الإنسان باستمرار في مكانه على الأرض ، وفي الكون ، وهو مكان ضئيل . وبرغم أوضاع بالغة الشدة لايمكن أن تتوفر فيها أية طمأنينة ، فلم تعد المشاهد الكبرى مطبوعة بتسلط فكرة الموت وحدها — وهو تسلط غير طبيعي ، ومرضي تقريباً لدى بيركن — بل بسر الوجود الفردي ذاته ، وبالشعور الأكثر عمقاً ومأسوية بتوحد الإنسان وارتباطه (وموت الإنسان يقدّم وحده الدليل الأكثر إقناعاً على توحده وارتباطه) . إن هذه المشاهد مطبوعة خصوصاً بالإرادة التي لاتزال قوية لتحطيم هذا الارتباط ، وهذا التوحد ، ولتغلب عليهما كل الحرية وكل الإخاء الممكنين .

كيو المسؤول

لاشك أن بعضاً من شخصيات مالرو الفنية لاتزال في هذه الرواية شخصيات مغامرة : من مثل كلاييك البارع في التخفي ، وفي إنكار نفسه ، وفيرال التي يحتاج إلى أن يزدري الآخرين ليؤكد ذاته ،

---

(١) إن تتمة هذا الاستذكار (الصفحة : ٢٩٢) هي أكثر جمالا أيضاً ، وأكثر سحراً، غير أنها ليست مفهومة ، إلا من خلال السياق .

وكوينغ الذي يسيطر على ذاكرته الإذلال الذي عاناه ذات يوم ، وتشين نفسه الذي غيره الاغتيال الذي قام به ، واجتذبه الإرهاب ... بيد أن كافة الشخصيات الأخرى تؤثر فينا ، وتهذب نفوسنا ، بقدر ما تقترب منا ، وتصبح أكثر صفاءً ، ولكن هذا لا يعني أنها أقل اندفاعاً ، وأقل حماسة ؛ فكيو(١) « المسؤول » حسب اللقب الجميل الذي يطلقه المناضلون على هذا الرفيق الذي يقودهم ، يشعر بلا معقولية الوضع الإنساني بقدر ما يشعر به أبوه أو كلابيك . بيد أنه مثل أي رجل شجاع قد سلم تسليماً نهائياً بخطر الموت الممكن دائماً ، وبحتميته النهائية ولكي تحافظ حياته على المعنى الذي أراد أن يعطيها إياه ؛ فقد أدرك أنه يتعين عليه القبول بالمجازفة بها ؛ « فما قيمة الحياة التي ما كان ليرتضي أن يموت من أجلها(٢) ؟ » ، لقد اختار العمل السياسي اختياراً جدياً متبصراً ، وذلك لكي يحافظ شخصياً على احترامه لذاته ، ويفرضه على الآخرين ؛ فهو يرى أن الإنسان الذي يتصرف تصرفاً حراً يمكن أن يكون فخوراً بما هو عليه ، وبما يفعله .

« كان الحس البطولي قد أعطاه شيئاً هو أشبه ما يكون بالانضباط ،

---

(١) يلعب كيو في الرواية الدور الذي لعبه شو إن – لاي – في الإعداد للانتفاضة ؛ ولكن الشخصية ذاتها وحياتها الخاصة وموتها هي من إبداع مالرو ... ويقال أن مالرو ربما استوحى شخصية جيزور الفنية من أندريه جيد ، واستوحى فيرال من أندريه بيزتوليه ، وكلابيك من رينيه غيتا ؛ بيد أن هذه المقارنات لا تتضمن أهمية تذكر ، في رأينا ، وهي لا تفسر القيمة الحقيقية لعمل مالرو في شيء ؛ ولنذكر بالأحرى بأن مالرو في « المذكرات المخالفة » الصفحات : ٢٧٦ وما يليها) يجعلنا نعثر في سنغفافوره عام ١٩٦٥ على النموذج الأصلي لكلابيك ، وهو نموذج أدنى بكثير ، في نظرنا ، من شخصية الرواية .

(١) الوضع الإنساني : الصفحة ٣٦٢ ، انظر أيضاً الصورة الأولى لكيو فيما بعد (الصفحة ١٩٣ ، في الأصل الفرنسي) .

وليس بتسويغٍ للحياة . إنه لم يكن قلقاً ، وصار لحياته معنى ، وكان يعرف ذلك ، وهذا المعنى هو : أن يمنح كل واحدٍ من هؤلاء الناس الذين تجعلهم المجاعة ، في هذه اللحظة ، يموتون ، وكأنها طاعون بطيء ، أن يمنحه الفوز بكرامته الذاتية . لقد كان منهم ؛ فأعداؤهم مشتركون . ومع أن كيو كان خُلاسياً ، وخارج الطبقات ، ويحتقره الرجال البيض ، والنساء البيض أكثر أيضاً ؛ فهو لم يحاول إغواءهن ، بل كان يبحث عن أقاربه ، وقد عثر عليهم ، فما من كرامة ممكنة ، وما من حياة حقيقية لإنسان يشتغل اثنتي عشرة ساعة يومياً دون أن يدري من أجل ماذا يشتغل (١) » .

إن كيو لا يبدي أي تردد أبداً فيما يخص هذه النواحي الأساسية ، غير أن إحساسه بالعجز سيزداد قوة ، وهو الإحساس « الشديد المأسوية » في كل عملٍ جماعي ، حين يتجاوز عقلنا وسائلنا إلى درجةٍ غير محدودة ، وحين نعرف في آنٍ واحد ما « يجب » أن نفعله ، وما «يمكننا» أن نفعله ، وما لن يتم عمله مع ذلك ، فيؤدي إلى الكارثة . إن قلق كيو ليس ناجماً عن كونه إنساناً ، وعن أنه يتعين عليه أن يموت ، بل كونه ليس سوى إنسان ، وهو محدود في كل شيء — وعن إحساسه المنهك حتى الموت أحياناً بتبعيته للقوة ، وبترابط الأسباب فيما بينها ، وبعدم الفهم ، وبعدم تمكنه من السيطرة إلا على عددٍ محدودٍ من « الممكنات » ، وهي ممكناته الذاتية . أما تلك الممكنات فلسوف يسجلها بالأفعال على الأقل ، وسيحاول أن يكون بكل كيانه ذلك الإنسان الذي ينشده .

(١) الوضع الإنساني : الصفحة : ٧٩ .

ذاتيّة الإنسان العصيّة على الفهم :

إن قلقه أيضاً هو قلق الحب ، وقلق معرفة الآخرين ، ومعرفة الذات . إن كيو لا يتعرف صوته المسجّل على أسطوانة – لأنه يسمعه بصورة موضوعية إلى حدٍ ما ، كما يسمع صوت إنسانٍ آخر بأذنيه وليس بحنجرته(١) ... وكيو لم يعد يتعرف تماماً ماي ، زوجته ، حين تكشف له هذه المرأة أنها قد ضاجعت رجلاً آخر(٢) . إنه لا يعاني فقط بسبب غيرته التي لا يفلح في التغلب عليها ، مع أنه يميز فيها جانباً من الخسة ، بل لأنه يكتشف خصوصاً ، ويجد في هذا الألم إحساساً أعمق ، وهو الإحساس بحدود كل حب ، وكل إخاء ؛ فنحن لا نعرف أبداً معرفةً تامةً ذات الكائن الذي هو أقرب إلينا من غيره ، ولن نتغلغل قط في ذاتية إنسانٍ آخر :

« إن المرء يسمع حياته الخاصة أيضاً بحنجرته ، مثلما يسمع صوته ...

(١) لقد أكد مالرو مرات عديدة في كتابه : « أصوات الصمت » خصوصاً (الصفحة ٦٢٨) على قوة الكشف في هذا التجربة ، وعلى أهميتها في تشكيل تصور لكتابه ، وفي عنوانه نفسه . وقد كان يكتب منذ ١٩٢٩ «أننا نسمع صوتنا من حنجرتنا ، وصوت الآخرين من خلال أذنينا ، وعلى مستوى أكثر خطورة ؛ فنحن نحس بالناس الآخرين بطرائق لا نحس بأنفسنا من خلالها » . (منوعات ، ١٥ تشرين الأول ، ١٩٢٩) .

(٢) إن كافة ألوان التحرر تقريباً تصل حدود الإفراط في البداية ؛ فكيوومالي قد أقر كل منهما للآخر بالحرية الجنسية ، برغم حبهما العميق المبني على التقدير المتبادل : والرغبة ، والحنان العميق . وقد استخدمت ماي تلك الحرية لأسباب معقدة ، يوحي بها إيحاء ، ولكنها لا تتوضح في الرواية إلا قليلا (وهذه هي إحدى نقاط الضعف النادرة في الرواية ، فالحادثة تكتب من وجهة نظر كيو وحده) ، ويخامر ماي الشك بأن كيو سوف يتألم،ولكنها لم تصدق ذلك فعلا،أولم ترد أن تصدقه ..ولسوف تقر بأنها قد أخطأت، إلا أنها تجبر على هذا الإقرار بعض الشيء .

وحياة الآخرين ، كيف يسمعها ؟ فأنا ، ماذا أكون بالنسبة لذاتي ، وبالنسبة لحنجرتي ؟ إني نوع من إثبات الذات المطلق ، نوع من إثبات محموم : إنني فعالية قصوى أكبر من فعالية كل ما تبقى . أما في نظر الآخرين ، فأنا ما قد فعلت » . وفي نظر ماي وحدها، لم يكن كيو ماقد فعل ؛ وفي نظره وحده ، كانت ماي شيئاً آخر غير سيرتها الذاتية ...

ومنذ أن ماتت والدة كيو ، صارت ماي هي الكائن الوحيد الذي لا ينظر إليه على أنه كيو جيزور ، بل على أنه المشاركة الأكثر حميمية ، المشاركة القائمة على الرضى ، والتي تم الظفر بها ، واختيارها ... إني أشاطرها ، وحدها ، هذا الحب ، سواء كان ممزقاً أم لا ، مثلما يشترك آخرون في حب أطفالهم المرضى ، والذين يمكن أن يموتوا(١) ...»

ويتوصل كيو إلى التغلب على غيرته و« استعادة » حبه ... ومع ذلك ، فهو يضحي به ، كما يضحي بحياته نفسها ، من أجل المبرر ذاته ، والكرامة ذاتها . فما قيمة الحب الذي ما كان ليرتضي أن يموت في سبيله ؟ إنه يصنع من موته ، كما كان يبتغي ، تعبيراً سامياً عن حياة يشبهها هذا الموت ؛ وهو تعبير شجاع وإنساني(٢) . إنه متأكد من أنه قد كافح من أجل ما يمكن أن يحمل بأقوى المعاني ، وبأكبر الآمال(٣) . فحتى لو هزمت الثورة الصينية ، أو تعرضت للخيانة ، فقد أيقظت ملايين البشر ، فانتفضوا من رقاد دام ثلاثين قرناً ، ولن يعودوا إليه(٤) . ومثلما علم كيو والده ، « فالحضارة تتغير حين يصبح العنصر

(١) الوضع الإنساني ، الصفحة :/٠٦٦/ .
(٢) الوضع الإنساني ، الصفحة :/٣٦١/ .
(٣) الوضع الإنساني : الصفحة : /٣٦٢/ .
(٤) الوضع الإنساني : الصفحة : /٣٩٨/

الأكثر إيلاماً فيها — وهو إذلال العبد ، وعمل العامل العصري — حين يصبح فجأة قيمةً معينةً ، وحين لا تعود المسألة تتعلق بالتخلص من هذا الإذلال ، بل بانتظار الخلاص عن طريقه ، ولا تتعلق بالتحرر من ذلك العمل ، بل بأن يجد العامل مبرر وجوده فيه(١) » ، فلكي يأخذ الوضع الإنساني معناه ، يجب على الإنسان أن يعطيه هذا المعنى ، وقد أعطاه كيو إياه .

« نوع من الحماس الإنساني » :

لابدّ لنا أن نكرر في نهاية هذا التحليل ، أنه يتعلق ، ببعض جوانب الكتاب وحسب . وحتّى فيما يتصل بالشخصيات الّتي تكلمنا عليها ، فنحن لم نستطع أن نذكر هنا سوى بعض المشاهد الّتي هي من ضمن مشاهد أخرى على الدرجة نفسها من التأثير . ولم نورد ، بالنسبة لكيو حتّى أحاديثه مع فواوغين(٢) ، أحد أمناء سر الأممية ، أو مع باسوز ، العامل القديم ، والنقابي الفوضوي عن منطقة لاشودو فون ، الذي يدير معه حديثاً مفعماً بالحس السليم : « حين نفقد الثقة بالأممية ، لاينبغي أن نكون حزبيين » ولم نورد انفعاله أمام مسارات تشين : (« ألا نرى أبداً غير أقدار الآخرين ؟ ») ، كما لم نورد خصوصاً المشهدين المرعبين والرائعين ، مشهدي السجن : حيث يؤكد كيو مجدداً ، وبصورة هادئة على الكرامة أمام كوينغ ، الرجل الذي يمارس التعذيب لأنه

---

(١) الوضع الإنساني ، الصفحة : /٣٩٥/ .

(٢) لم يستقبل بورودين كيو . وفي ذلك التاريخ ، كان بورودين دائماً مستشاراً سوفييتياً لحكومة الكومنتانغ . ولسوف يغادر هان كيو في تموز ١٩٢٧ ... وسيعلم مالرو عنه أنه كان يلتمس من الكرملين « مسكناً فيه مدفأة » عام ١٩٣٨ .

كان قد تعرض للتعذيب ، ثم انتصار كيو على ذاته ، وعلى عضلاته ، وعلى أعصابه ، وعلى ألمه ، حين يجد في هذه الكرامة القوة ليقدم يديه للجلد ، وليسيطر على خسةِ الحارس ويحصل منه على القبول بالكف عن جلد إنسانٍ مجنون .

.... ولم نورد حتى كاتوف ، تلك الشخصية التي تُحيلنا بلا شك إلى دوستويفسكي أكثر من أية شخصية في أدبنا ، والمشهد الشهير عن حق ، مشهد إعطاء السيانور الذي بحوزته إلى رفيقين سيموتان مثله ميتة رهيبة ، فيحرقان ، وهما على قيد الحياة :

« كان باستطاعة هذا الرجل أن يكون أقوى من الخوف ، وأقوى من الوحدة ، وأقوى حتى من تلك الصافرة البغيضة(١) ... وكان كاتوف قد تخلى عن كل شيء سوى أن يقول إنه لم يتبق من السيانور إلا ما يكفي الإثنين (٢) .

لايمكن للمرء أبداً أن يغلق كتاباً لمالرو ، كما يقول بحق جان شلومبرجير ، دون أن يشعر بنوع من الحماس الإنساني(٣) .

•

ماذا يمكن لرواية « الوضع الإنساني » أن تعطي ، لو تحولت إلى فيلمٍ سينمائي لايزنشتين ، ووضع شوستا كوفيتش موسيقاه ؟ لربما أعطت عملاً فنياً متعدد العناصر ، ومخيباً للآمال ؛ فالأعمال المشتركة ليست مثمرة دوماً . ولربما أعطت أيضاً إحدى الروائع الأكثر غنى

(١) صافرة القاطرة في المرجل الذي يرمى فيه الشيوعيون .
(٢) الوضع الإنساني ، الصفحة : ٣٦٦ .
(٣) شواخص (١٩٤١) . لي

في الفن العالمي . إننا لن نعرف ذلك أبداً : فقد حالت الديكتاتورية الستالينية ضد تنفيذ المشروع(١) ... إن « الوضع الإنساني » ، إذا أخذت كما هي ، باعتبارها رواية ليست من نمط معين ، ولم تنسج على منوالها روايات لاحقة ، مع أنها رواية نموذجية ، فهي بالتأكيد إحدى الروائع الأدبية في عصرنا .

* * *

(١) كان ميير خولد قد رغب هو أيضاً في أن يقدم مسرحية مقتبسة من الوضع الإنساني بمصاحبة موسيقى بروكوفييف ، ولكن المشروع لم ميتابع أكثر من سابقيه ، وفي فرنسا ، قدم تييري موليثيه ومارسيل تاسينكور اقتباساً للرواية على المسرح عام ١٩٥٤ ، وقد كتب المشهد الأخير مالرو نفسه ، وربما يصدر نص اقتبسه هان سوين عام ١٩٧٠ ، وذلك على يد فريد زيزمان المخرج الذي قدم : « طالما هناك بشر » من تمثيل إيجي أوكاوا (بلور كيو) وليف أولمان (بلور ملي) .

«٥»

زمن الاحتقار

تسلم هتلر السلطة ، واجتاحت المأساة أوروبا . أما مؤلف « الوضع الإنساني » الذي حصل لتوه على جائزة غونكور ، فقد ذهب إلى برلين ، يرافقه أندريه جيد ، حاملاً عرائض الاحتجاج على اعتقال ديمتروف ، البريء من حريق الرايخستاغ . إن السجون النازية تكتظ بالسياسيين ، ويخرج إلى المنفى اليهود الذي يستطيعون ذلك ، ويُلقى بالكتب التقدمية إلى المحارق . إنه زمن الاحتقار وبداية إحدى محاولات التاريخ البشعة الهادفة ليس إلى قتل الخصم فحسب ، بل إلى إذلاله ، وانتزاع صفة الإنسانية منه .

لا يمكن أن يتوقع إلى أين سيصل بمبتكري محارق الجثث(١) هيجانهم المحموم لتنظيم الحساسة ، ولكنه يخمن خطره المرعب من خلال الشهادات التي يجمعها فيطلق تحذيره ، ويشدد في الإهداء الذي يستهل به « زمن الاحتقار » على الكلمة التي تشير منذ ذلك الوقت إلى إحدى المهمات الأساسية لمناهضة الفاشية ، إذ يقول :

---

(١) سيخصص مالرو الفصل الأخير من « مذكراته المخالفة » المنفيين : الصفحات : ٥٧٥ ، وما يليها (انظر فيما بعد ، الصفحة ١٥٨ في الأصل الفرنسي) .

« إلى الرفاق الألمان الذين حرصوا على أن ينقلوا إليّ ما كانوا يعانون منه ، وما كانوا قد حافظوا عليه ، أقدّمُ هذا الكتابَ الذي هو كتابهم » .

الوضع اللاإنساني إلى أبعد حد :

« فلنتصور عدداً كبيراً من الناس مكبّلين بالأغلال ، ومحكومين جميعاً بالإعدام . وبعضهم يُذبح كل يوم على مرأى من الآخرين ، أما الباقون منهم فيرون وضعهم الخاص من خلال وضع أقرانهم ... » .

هذه هي صورة وضع البشر ، كما يقول باسكال . أما في « زمن الاحتقار » فتسجل هذه الصورة من خلال الوقائع . ويؤكدُ باسكال أيضاً أن الحالة التي يصعب على الإنسان احتمالها أكثر من غيرها هي الوحدةُ ، والكف عن الفعل داخل غرفة . ولقد طبّق النازيون الصّيغتين في آن واحد ؛ فالقائدُ الشيوعي كاسنير الذي يجهلون هويته الحقيقية ، يسجن بمفرده ، معزولاً على نحوٍ مطلقٍ عن غيره ، داخل زنزانة مظلمة ، دون أن يقوم بأية فعالية . ودون أن يكون لديه أي مرجع ممكن للوقت . أما صلاتُه الوحيدةُ بالخارج فهي الظهورُ المفاجىء لحراس السّجن الذين يأتون أحياناً ليتأكدوا من أن السجين لايزال واقفاً فعلاً (فليس له الحق في الاضطجاع) ، وصرخات الرفاق الذين يتعرضون للتعذيب في الزنزانات المجاورة ، والموكب الذي تصر فيه الأغلالُ ، أغلالُ أولئك الذين يُساقون إلى الموت ...

إن كل مناضلٍ في صفوف إحدى حركات المقاومة قد أحس بأنه يرتجف لمجرد استحضاره لتلك المحنة ، وهي المحنةُ الكاملة أكثر من

غيرها من المحن بالتأكيد(١) : الوحدةُ في الليل ، واليأسُ ، وقضاءُ الساعات والساعات التي لا نهاية لها في اجترار الأشياء نفسها التي تُنهك تقريباً على الفور أولئك الذين لم يكن التزامهم سوى حماس : « ماذا صنعت ؟ لقد اندفعت أنا وحدي في هذه المغامرة ، وكانت لي الحريةُ في ألاّ أقوم بها – أما الآن ، فها أنا هنا ، لم أعد صالحاً لغير العذاب والموت » ... إنها العطالةُ المطلقة ، والوعي الذي يدور في الفراغ ، وغياب الحياة في الحياة نفسها ، والذي يمكن أن يُغرق أكثر الرجال بطولةً ، وأكثرهم نبضاً بالحياة تحديداً .

النضال ضدّ الذات

يدافع كاسنير عن نفسه جيداً ضد الاستجوابات ؛ فلا يزال بوسع هذا السّجين الذي يواجه أعداءه ، وقد أوصلوه إلى العجز الجسدي ، أن يسيطر عليهم بذكائه وشجاعته ، وأن يستخدم الحيلة ، وأن يبقي على شخصيته ، من خلال توصله إلى إقناعهم بأنه شخصٌ آخر ، وأن يبتكر ويمثل حياةً أخرى ، ليحافظ على تلك الحياة التي يريدون قَتْلَها ...

ولكن كيف يدافع عن نفسه ضد ذاته في جو العزلة والسلبية التامة – في ذلك النوع من العدم الذي يشعر المرء فيه بأن جسده يذوب ، إن صح التعبير ؟ فالجسدُ لايغدو أكثر من سجنٍ دبقٍ أسود مثل الزنزانة ، وهو بائس ، وغريب مثلها أيضاً ... ويتساءل المرء فجأة برعبٍ عما

(١) إن أسوأ خطر هو أقل تحطيماً للروح المعنوية من الوحدة ، والعطالة التامة . فاذا ما تعرض المرء للتعذيب ، اضطر للمقاومة ، وهذا بحد ذاته فعل ، ولكن السلبية التي يطول أمدها تفرز القلق بصورة حتمية .

إذا كان رأسه قد أصبح أضخم ممّا كان عليه حين دخل إلى السّجن ، وفيما إذا كان لايزال لديه عينان يمكنهما الرؤية. إن أفكاره تصبح جنونيةً ، وغير مترابطة ، وهي تفرز القلق فقط : فكيف يدافع عن نفسه ضد ذلك الجنون القادم ، والذي يحس بمجيئه ؟

إن كاسنير الموسيقي يحاول أن ينصرف بكليته إلى الموسيقى :

« الموسيقى ! ولكن لم يكن هناك شيء حوله ، لا شيء غير حفرةٍ هندسيةٍ داخل الحجارة الضخمة ، وفي ذلك الجحر ، هناك جسدٌ يتعرض للتعذيب ، غير أنه يمكن أن تكون هناك أناشيد روسية ، وموسيقى لباخ وبيتهوفن . وذاكرته ملأى بها . فالموسيقى على نحو بطيء ، كانت ترد جنون صدره ، وذراعيه ، وأصابعه ، وجنون الزنزانة ، كان الجنون يمس كل عضلاته ... وكانت الموسيقى تجعل الماضي بأكمله يدوم ، وتحرر كاسنير من الوقت (١) ... » .

ولكن هناك خطراً في هذا الانصراف إلى الموسيقى التي تأتي بالخلاص؛ فالاندفاع يضعف ، وحماسةُ الحياة التي يستعيدها المرء للحظةٍ من الزمن تغرق في عبودية العالم التي لا حد لها :

« إن النجوم تمر دوماً من المكان نفسه ، في هذه السماء المكوكبة بالقدر ، وتدور هذه الكواكبُ السّجينةُ إلى الأبد في الفضاء الشاسع السّجين ، مثل معتقلي هذه الباحة ، ومثله في زنزانته (٢) » .

وينبغي لكاسنير أن يرجع إلى عالم البشر « هارباً من مجال العزاءات المهزوم » — وأن يبني لنفسه نشاطاً يقوم به خياله ، على أن يكون في الوقت ذاته عملاً واقعياً يمكن أن يملأ وحدته :

---

(١) زمن الاحتقار : الصفحة : ٥١ .

(٢) زمن الاحتقار ، الصفحة /٦٠/ .

« من أجل أن يطلق ذهنه باتجاه الصور التي كانت تبقي على الحياة ! كان لابد من تنظيم ملاحقة هذه الصور ، ومن تحويلها إلى إرادة . لقد كان باكونين السجين يحرر كل يوم في خياله صحيفةً كاملةً : افتتاحيةً ، وأخباراً ، وحكايةً ، ومسلسلاً معيناً ، وأصداء ... ؛ فمشكلة الأسر بكليتها كانت تتمثل بالتوقف عن السلبية (١) » .

وحين يسترد كاسنير قواه ، وذلك بأن يستعيد مجدداً حرارة الحضور الإنساني ، من خلال الاتصال البطيء برفاقه ، عن طريق أبجديةٍ مرمزةٍ عبر الجدران — وحتى حين يتلاشى هذا التضامن المادي ، لأن حراس السجن قد ضبطوا جاره — فهو لايدع الوحدة تعود ، بل يشرع بتأليف خطابات ، وبالتحدث تأييداً لأناسٍ معينين ، حتى وإن لم يقيض لهم أن يسمعوه ! ... فما أكثر المقاومين الذين أنقذوا أنفسهم في زنزاناتهم بالصورة نفسها ، أي بأن يخلقوا شيئاً ! — أبياتاً من الشعر ، مسائل ، أغنياتٍ ، ألعاب شطرنج لم تعرف بعد ....

« أيها الرفاق ، كان فلاديمير إيليتش(٢) يحب الشعب حباً عميقاً ... وأنتم يا رفاقي الصينيين المدفونين أحياء ، ويا أصدقائي الروس الذين اقتلعت عيونكم ، ويا أصدقائي الألمان الذين تحيطون بي ، مع مشانقكم ، وأنت الذي صرعوك ربما منذ قليل ، ذلك لأن بيننا ما أسميه الحب(٣) ،

---

(١) المرجع السابق ، الصفحة /٦٨/ .

(٢) لينين .

(٣) يهتف مالرو نفسه في خطابه المؤرخ في ٢٣ كانون الأول ١٩٣٥ (عشية الميلاد) ، في اجتماع انعقد في قاعة فاغرام : « هذا المساء ، في هذه القاعة التي نسمع فيها جلبة السيارات التي تتخلل جملي ، وفي هذا الجو ، جو عشية العيد ، في هذا المكان الذي لا يمكن لأحد بيننا أن يتحرك دون أن يصطدم بمرفق أحد الرفاق ، في هذه القاعة الملأى بأشكال الحضور =

أعرفُ ما يلزم من القوة لكي يصنع الإنسانُ شيئاً طيباً يحسب حسابه .

وأعرف أيضاً أنه لن يعوض شيء ما يعانيه العديد منا هنا — سوى الانتصارات . غير أنّنا إذا كنّا منتصرين ، فهل يجد كل منا حياته أخيراً ، على الأقل .

إن الحب اختيارٌ ، ولا يكون لدى الإنسان شيء يختاره ، حين لا يكون لديه شيءٌ يعـ يه ؟(١) » .

الرجوع إلى الحياة وإلى الحبّ :

إن النقاد ومالرو نفسه على صواب ، « فزمن الاحتقار » ليست أفضل كتابٍ له (٢) وحين نقرؤه بكامله يتبدى النقـ ـس فيه . ومما يثير التساؤل أن نبرته ذات طابعٍ أدبي مفرط ، كما هي الحال أحياناً في « الطريق الملكية »... إلاأن التنويهات التي تتصدر الفصول تشير على نحوٍ كاف إلى قيمة المقاطع الكبرى ، كما أن الكتاب ينتهي ، من ناحية أخرى بمشهدين يتصفان بطابعٍ شخصي أكثر من غيرهما ، وهما جديران بأية مختارات تؤخذ .

— مشهد الطائرة التي تتعرض لعاصفةٍ محملة بالبرد : فلقد سلم أحد

= الأخوي، وبالأنوار ، تتمنى أن تتمكن الكلمات الإنسانية البائسة من أن تتجاوز ما أريد قوله حين أقول باسمكم لتيلمان ، ولرين ، ولكل سجنائنا : « أيها الرفاق ، نحن معكم في عزلتكم وفي عتمتكم . »

(١) زمن الاحتقار ، الصفحة : /١٠٨/ .

(٢) وقد وصل الأمر بمالرو ليقول لروجيه استيفان أن الكتاب « عمل أدبي تافه » .

المناضلين نفسه على أنه كاسنير ، لكي ينقذ أحد قادة حزبه (١) ، أما كاسنر الذي أطلق سراحه ، فقد نقلته منظمته حالاً . على متن طائرة عارضة كادت تتحطم فوق الجبال . إن مالرو ينقل هنا ، وبلا تعديل تقريباً ، حادثة العاصفة التي تعرض لها في السنة السابقة ، فوق جبال الأوراس ، حين كان برفقة كورنيليون مولينييه أثناء عودتهما من حملتهما التي قاما بها للعثور على العاصمة الضائعة لملكة سبأ ؛ إن الوصف والتحليل في هذا المشهد رائعان (٢) .

وللمرة الأولى سيعبر مالرو في ما يسميه « الرجوع إلى الأرض » عن الذهول أمام مظاهر الحياة ، بعد أن يتعرض الإنسان لخطر كبير ... (وسيحاول مجدداً أن يترجم ذلك في « الأمل » وفي « أشجار جوز الألتا نبورغ » وفي « المذكرات المخالفة » في موضعين اثنين) .

« كان وجود الناس مستمراً ، وكانوا يتابعون العيش ، فيما كنت أنزل إلى المملكة العمياء ! ... وكان مسرح الأرض قد شرع يقدم الرقة الكبيرة ، رقة بداية الليل ، والنساء اللواتي يتجمعن أمام الواجهات الزجاجية ، وقد تعطرن بعطور التنزهات (٣) ...

---

(١) لم يبتكر مالرو هذه التضحية ابتكاراً ؛ فلقد تمكن رئيس المنظمة الإرهابية الثورية في روسيا القيصرية ، سافينكوف ، والذي نظم اغتيال الدوق الكبير سيرج ، تمكن من الهرب لأن ثورياً مجهولاً قد أجاب ، حين نودي على اسم سافينكوف ، وأخذ مكانه على المشنقة (وأصبح سافينكوف فيما بعد وزيراً للحربية لدى كيرنسكي : انظر مقالة مالرو في مجلة كاروفور (مفترق الطرق) ٢٧ كانون الأول ١٩٤٩) .

(٢) يمكن أن نجري مقارنة مثيرة للاهتمام بين النصين التاليين : زمن الاحتقار : الصفحات : ١٣ وما يليها ، والمذكرات المخالفة : الصفحات ٩٤ وما يليها .

(٣) المذكرات المخالفة ، الصفحة : /٩٩/ .

وكانت إحدى اللحظات التي تجعل الناس يصدقون أن إلهاً قد ولد للتو ، تغمر ذلك المنزل الذي خرج منه صبي ليغيب في العتمة . فبدا لكاستر الذي لا يزال يحس بدبق كل الدماء التي انتهى من اجتيازها ، أن معنى العالم قد أخذ يولد ، وأن حياة الأشياء الأكثر حميمية كانت في طريقها إلى الاكتمال (١) ... »

— أما المشهد الذي يلتقي فيه كاسنر زوجته وابنه في براغ ، وكان يظن أنهما قد ماتا ، فهو مشهد جميل ، وهو في رأيي ، أجمل من مشاهد كيو وماي في « الوضع الإنساني » ، لأنه مشهد قد عاشه المؤلف وعبر عنه هذه المرة من زاوية الشخصيتين كليهما — وهو أكثر واقعيةً ، وأكثر حميميةً في خوفه من الكلمات ، وأكثر عمقاً لأنه لم يعد يدور فقط على مشكلات الحب ، بل على الحب ذاته ، وكل تعاطف الرجل والمرأة اللذين اختار كل منهما الآخر يظهر حاجتهما إلى الحياة المشتركة ، من خلال حركاتهما التي يباشرانها ... ومع ذلك ، فقد أخذ يتسرب إلى نفسيهما قلق الفراقات المقبلة ، عندما يستأنف كاسنير النضال في سبيل قضيةٍ تمنح حبهما عظمتها ، في نفس الوقت الذي يمكنها فيه أن تدعره إلى الأبد (٢) .

وإذا اكتفينا هنا بأن نورد جملةً أو جملتين فقط ، بسبب تلك الاستمرارية ذاتها ، استمرارية الحياة العميقة ، فلن يكون لهذا الإيراد معنى يذكر ، غير أننا سنورد على الأقل شيئاً ذا صفةٍ فريدة ، في

(١) أشجار جوز الألتا نبرغ ، انظر فيما بعد : الصفحة /١٣٠/ .
(٢) إن الألمان المناهضين للفاشية سيقاتلون بأعداد كبيرة في ألوية إسبانيا الأممية .

مؤلف مالرو ، وهو استحضار كاسنر الجالس بقرب آنّا ، والذي يداعبُ ابنهما :

« كان يداعب رأس الطفل ، فأحس بوجنته التي تبحث عن يده . إنه لم يكد يعرف تقاطيع الوجه الصغير ؛ فما يعرفه منه عن ظهر قلب كانت تعابيره ، ولم يكن الطفل موجوداً بالنسبة إليه ، قبل ابتسامته الأولى ، في اليوم الذي سبق عشية الرحيل . كان يحب الأمل الذي كان يودعه تلك الحياة ، ولكنه كان يحب قبل كل شيء الثقة المطلقة والحيوانية التي كان الطفل يضعها فيه . وحين ضربه ذات يوم على أصابعه لأنه كان يشد وبر الكلب ، لجأ الطفل إلى ذراعيه . لقد كان كل ما في ذلك الطفل اطمئناناً ، بدءاً من وجنته التي أغفت منذ لحظة في يد الأب ، وصولاً إلى أحلامه ، وبالنسبة لكاسنر وحده ، كان الطفل عالماً من الفرح (١) » .

فكيف أمكن للبعض أن يؤكدوا أن المغامر مالرو لم يكن يعرف كيف يحس بالمشاعر الأكثر عمقاً ، مشاعر الإنسان الطبيعي ، مشاعر الزوج والأب ، وكيف يعبّر عنها ؟ إن القليل من النصوص في أدبنا قد أحسنت التعبير عن ثقة الأطفال باحساس مرهف صائب إلى تلك الدرجة التي عبر عنها مالرو .

التّواصل مع الآخرين :

وأخيراً ، فان معرفة مقدمة « زمن الاحتقار » أساسيّة بالنسبة

---

(١) زمن الاحتقار ، الصفحة : ١٧٠/ كانت فلورنس مالرو تبلغ من العمر تقريباً ما بلغه ابن كاسنر ، حين ألف مالرو : « ز من الاحتقار » .

لمؤلف مالرو (١) ؛ فمالرو يحدد بوضوح مفهومه عن الفن، بعد أن أكد مجدداً ، في رده على بعض الانتقادات أن وثائقه حول السجون النازية كانت للأسف تستند على شهاداتٍ مؤكدةٍ ، وعلى أنظمة معسكرات الاعتقال الرسمية :

« هناك من يحبذ أن يكون أحدُ مدلولات كلمة الفن هو : محاولة جعل الناس يدركون العظمة التي يجهلونها في أنفسهم » .

إن مالرو واضح ؛ فالرغبة في البرهان تدمر العمل الفني ، وفن الدعاية لا وجود له ، وقيمة العمل الفني لا ترتبط بمقاصد المؤلف ، وبالعاطفة أو بالتجرد اللذين يحركان هذه المقاصد ، بل هي مرتبطة « بنوعيته » ؛ وهذا أمرٌ بدهي ، كما ترتبط بالانسجام بين ما تعبر عنه هذه القيمة ، والوسائل التي تستخدمها .

بيد أنه لا يقل عن ذلك صحةً أن الحدث في العمل الفني ، وتأثيره — شأنهما شأن ولادته ، والحاجة التي تجعله يظهر ، زيادةً على ذلك — ترتبط بحاجات الإنسان ، وبحاجات الإنسان الجديدة ، في لحظة الخلق الفني .

وهكذا ، فتقديس الفن للفن ، بما فيه من عدم اكتراثٍ ظاهرٍ بالموضوع الفني ، وازدراء مماثل لسائر الشخصيات ، لم يعد يستجيب لمتطلبات عصرنا . وقد وصل الأمر بفلوبير قبل مئة عام ليكتب : « سأصنعهم جميعاً من الطينة نفسها — طالما أنني أعمل بصورة صحيحة » .

---

(١) ليس العثور على « زمن الاحتقار » سهلا في المكتبات ، غير أن المقدمة قد وردت ثانية ، كما وردت مشاهد الموسيقى ، وعاصفة البرد ، وكاسنو و آنا ، في المشاهد المختارة (وقد اختارها مالرو بنفسه) ونشرت لدى غاليمار .

كان الفنان وحده ممجداً ، وكان مدعواً إلى البحث عن تحقيق ذاته عن طريق « الاختلاف » عن غيره ، ومن خلال فعاليته الذاتية القصوى ، وإبداعه الشخصي وحده . وكان ذلك خداعاً .

لقد اكتشف مالرو ذلك من خلال العمل ، فهذه الموضوعات ينبغي أن تجري مراجعتها ، فأية حياة ، حتى الحياة النفسية ، هي تبادلٌ ، والنزعة الفردية تؤدي إلى العقم ، ولسوف يؤكد مالرو منذ ذلك الحين :

« من الصعب أن يكون الإنسان إنساناً . أما أن يصبح الإنسان إنساناً من خلال تعميق تواصله مع الآخرين فليس أصعب من أن يصبحه من من خلال تنمية اختلافه عنهم — فالأول منهما (التواصل) يغذي كالثاني (الاختلاف) وبنفس الدرجة من القوة على الأقل ، الأمور التي يكون الإنسان من خلالها إنساناً ، ويتجاوز نفسه ، ويخلق ، ويبدع ، أو يدرك ذاته » . إن الإخاء ، بالنسبة للإنسان ، هو المتمم الضروري لكرامته .

* * *

٦
الأمـل

في السابع عشر والثامن عشر من تموز لعام ١٩٣٦ ، تمرد الجيش الإسباني المدعوم من إجماع رجال الدين شبه التام ، ومن اليمين بأكمله ، على حكومة الجمهورية التي تشكلت بصورة شرعية ، نتيجة انتخابات شباط التي أعطت الجبهة الشعبية(١) أكثرية الأصوات . ووافقت الحكومة على تسليح الشعب لتدافع عن نفسها . وقد تمكن الشعب من إيقاف تقدم المتمردين ، ومن تحرير العواصم الثلاث : مدريد ، وبرشلونة ، وبيلباو ، وقسم كبير من الأراضي كذلك ، برغم البلبلة الهائلة ، وتدني مستوى التسليح إلى حد مأسوي . فبدأت الحرب الأهلية الإسبانية .

يصعب على كل أولئك الذين لم يعيشوا تلك الفترة أن يتصوروا ، اليوم ، إلى أي حد بلورت تلك الحرب الآراء ، والعواطف ، والخيارات السياسية في العالم أجمع ، منذ الأيام الأولى لنشوبها .

كان موسوليني وهتلر يساندان فرانكو مساندةً علنية تقريباً ، وكان « الفاشيون » قد شنوا هجومهم مواجهةً ، وكانت الديمقراطية

(١) إن الفوضويين الذين تجاوزوا للمرة الأولى موقفهم المعارض للبرلمانية ، كانوا قد أدلوا بأصواتهم (في الجولة الثانية) للحصول على إطلاق سراح محكومي إقليم استوريا .

مهددةً في كل مكان ! .كان كل إنسان واعٍ مضطراً لاتخاذ موقفٍ معين ، وأخذ نضال الجمهوريين الإسبان يظهر باعتباره نضالاً عادلاً ، ودفاعاً مشروعاً ذا أهميةٍ رئيسية ، حتى بالنسبة لأكثر الناس تردداً . وحسب نتيجة هذه الحرب ، فقد كان ممكناً أن يوقف تقدم هتلر ، وربما يطاح به — أو يسيطر على أوروبا — لقد كان الجميع يعلمون أن هذه الحرب الأهلية « تحركات العالم الدامية الكبرى(١) » كانت تقرر فعلاً مصير ملايين البشر » .

وفي الوقت نفسه ، أخذ الأملُ المضطربُ والهائلُ يستولي على عددٍ كبير من الناس ؛ فبما أن الشعب الإسباني كان مسلّحاً ، وبما أنه كان لابدّ من تعبئته ، ألم يكن باستطاعته أن ينتقل إلى الثورة حالاً ، وأن يظفر فوراً ، وبواسطة العنف ، بكل أحلامه ، وبهذه الطريقة يجري الحفاظ على حماسة العناصر الأكثر حزماً ؟ أو أنه كان ينبغي قبل كل شيء عدم المخاطرة بدفع جمهور من المتمردين والمعتدلين باتجاه فرانكو ، وتنظيم الحركة المناهضة للفاشية على المثل الأعلى الوحيد الذي يصنع وحدتها وقوتها ؟ فلننقذ الحرية أولاً ، والحرية وحدها تتيح إنقاذ الباقي(٢)

لقد سبق أن تعرفنا ، وفي موقفٍ مختلفٍ اختلافاً عميقاً ، على إحدى مشكلات « الوضع الإنساني » ونتوقّع أن تكون المشكلة هنا أكثر تعقيداً بكثير . وفعلاً فقد كانت كل تناقضات الفعل مطروحةً في آن واحد ، في تلك الحرب التي تطبعها الإيديولوجيا بأجلى صورها . و«الأملُ» تجعلنا نعيش هذه التناقضات باستمرار ، ونعيشها وحدها ،

(١) الأمل : الصفحة : /١١/ .

(٢) الحرية ! لننقذ الحرية ! والحرية تنقذ الباقي (فيكتور هيغو الصفحة الأخيرة من : ذكريات شخصية) .



اسبانيا ، ١٩٣٦ ، مالرو يستريح فيما بين مهمتين : « قالت لي كلارا إنه لا ينام منذ وقت طويل أكثر من أربع ساعات ليلا (يوميات أندريه جيد ، ٤ أيلول) .

وهي تجسد كل حلٍ من الحلول ، وكل لونٍ من ألوان الحل الممكنة ، من خلال شخصيةٍ حية ، قذفت بها إلى المعركة قناعاتها « بالرغم عنها » ، وهي شخصيةٌ تكافح طوعاً في سبيل قضيتها ، الخاصة وقضية العالم . إن « الأمل » ، تلك الرواية الملتزمة ، والحرة مع ذلك ، والمحددة تحديداً ضيقاً بموضوعها ، بدون أي خيالٍ روائي ، وأية حبكةٍ سوى حبكة الحرب ، والتي تتصف بتفهم حاضر فيها دائماً ، هي بالتأكيد مؤلف سياسي بكل ما في الكلمة من معنى ، ولكنها تظل دوماً ، من خلال ابتكار سمات الشخصيات ، وصدق المناقشات وعمقها ، واقتناع المؤلف ونزعته الغنائية التي تنفذ إلينا من أطروحاته شيئاً فشيئاً ، تظل رواية ، وخلقاً فنياً لا جدال عليه ، وينبغي أن نحكم عليها من وجهتي النظر كليهما .

وثيقة ذات أهمية رئيسية

جاك مادول

يمكن لهذه الرواية أولاً أن تبدو ببساطة وكأنها تحقيق صحفي عبقري ؛ فمالرو ، الذي انخرط في الحرب منذ أيامها الأولى ، والذي حارب شخصياً ، (فقد قام بـ ٦٥ مهمة جوية ، وتعرض لحادثتين) ، والذي أنشأ الفيلق الأممي إسبانيا(١) وقاده — وهو إلى ذلك أيضاً المفاوض من أجل التزود بالسلاح ، والشاري لطائرات جديدة أو قديمة ، لصالح الجمهورية ، ورجلُ الدعاية ، وجامع التبرعات ، والكاتب المشهور ، والذي لديه تقريباً حق الدخول إلى أي مكان . إن مالرو هذا يمكنه أن يرى تقريباً كل ما يريد رؤيته ، وهو يعرف كيف يرى ... وإذا كان بوسع إيليا اهرنبورغ أن يأخذ على « الوضع الإنساني » حضور الشعب الصيني ، والشغيلة فيها حضوراً بعيداً أكثر من اللازم ، ومع أن هذا المأخذ لايخلو من السطحية(٢) ، إلا أنه صائب ؛ ولكنه هذه المرة مأخذ

---

(١) لا يتعلق الأمر ، كما يظن غالباً ، بأحد الألوية الأممية ، فهذه الألوية سيتم تشكيلها اعتباراً من ٢٢ تشرين الأول عام ١٩٣٦ فقط .

(٢) لأن موضوع الكتاب ، برغم ذلك ، لم يكن إلى حد بعيد يتعلق بهذا الأمر ؛ وكافة القراء يعلمون جيداً أن المسألة تتعلق برواية فرنسية ، كتبت من أجل جمهور العالم أجمع . فلا يطلب منها ما يطلب من رواية صينية .

غير ممكن . فلئن بقيت « الأمل » رواية « أممية» حقاً ، وهذا أمرٌ كان لاغنى له إطلاقاً لمؤلّف يدور على الإخاء الثوري ، وقد كتب في غمرة القتال ، وكان أحد أهدافه الأولى ، وعلينا ألا ننسى ذلك ، أن يأتي للجمهورية بحلفاء جدد من كل مكان ـ فالشعب الإسباني حاضر فيه ، وحي ، بجمهوره ، كما بأكبر عددٍ من ممثليه الأكثر نموذجية ، سواء كانوا واقعيين ، أم مبتكرين . وباستثناء ماغنان وسكالي(١) ، فجميع الأبطال من الإسبان ؛ غارسيا ، ومانويل ، وكزيمينس ، وبويغ ، ولونيغوس ، وهيرنانديز ، ومورينو ، وراموس ، وغيرنيكو ، وألفيار ، وجيمي ألفيار إلخ . وجميعهم تقريباً قد صوروا بطريقة لاتنسى ، مع أننا لا نعرف شيئاً تقريباً عن حياتهم الخاصة .

أما المكان المخصص للنساء فهو وحده مكان شديد الضيق ، ولا جدال في ذلك . فهل يعود السبب في هذا إلى الإحراج الذي يشعر به مالرو تجاه المشكلات التي طرحتها غالباً مقاتلات الجيش الشعبي ، وهل يعود إلى رصانة مالرو وخشيتهمن عدم التمكن من تصويرهن ، أو إلى الأزدراء الخفي لدى رجل الفعل(٢) ؟ إن مؤلف « الأمل » لا يخصص لهن أية صورة ، بل تعطى لنا بعض الصور الإجمالية الفردية الجميلة : كالفتاة

(٢) أما « المغامرون » فيطردون من الرواية سريعاً ، كما كان يجري مفضلا في الألوية الأممية ، ومالرو ليس ليناً تجاه شخصية لوكلير في كتابه ، مع أنه لا يحمل عليه فيه (الأمل ، القسم الثاني ، الفصل الثالث والرابع) .

(٢) سيشير مالرو فيما بعد دون تعليق ، وهو يذكر بعظمة سان ـ جوست : « أنه ليس له عائلة ، وهو يصنع مصيره بيده كانسان ، وليس له امرأة ، في الوقت الذي وصل فيه إلى قمة سلطته » ! ولا شك أن مالرو يعبر من خلال ذلك عن أحد ميول طباعه (مقدمة : كتبها مالرو لكتاب ألبير أوليفييه : سان جوست ـ كتاب الجيب .

(١) الأمل ، كتاب الجيب ، الصفحة : ١٧٥ .

المقاتلة في الجيش الشعبي ، والممرضة الصغيرة ، وميرسيدس ، والصور المؤثرة للفلاحات « العطوفات » اللواتي يمكثن بقرب الطيارين الجرحى ، غير أن هذه الصور تشدد على غياب النساء ، ولا تقوم بتغطيته . وليس تفسير مانويل كافياً أيضاً : « انظروا ، يا سيادة العقيد ، انظروا إلى هذا البلد ! فما الذي صنعته به الكنيسة غير أنها صنعت منه نوعاً من طفولةٍ فظيعة ؟ ماذا صنعت بنسائنا ؟ — وليست كافية كذلك الإشارة الهامة جداً والتي يكررها مالرو عما يجري حالاً في كل مدينةٍ صغيرةٍ ويستعيدها فرانكو : « إن الجميع يصبحون أكثر عبوديةً ، وليس جماعتنا فحسب ، فهذا أمرٌ طبيعي ، وإنما الصبيان الذين يسلمون إلى الكاهن ، والنساء اللواتي يوضعن في المطبخ(١) ... » .

وهكذا فقد كانت تلك الحرب هي أيضاً حرب النساء ، وتكفي أسطورة لاباسّيوناريا(٢) لتذكرنا بذلك ، كما يقول لنا مالرو ذاته ، على لسان الكاتب الكاثوليكي غيرنيكو(٣) : « كنت هناك ، في البويرتا دل دسول ، في يوم الجبل حين أطلقوا النار على الجمهور من كل

(١) الأمل ، الصفحة : /٩١/ .

(٢) لقد أتى مالرو على ذكر الأسطورة في بضعة أسطر ، وهي أسطر جميلة ، من جهة أخرى : « كان شاد قد رأى لا باسيوناريا (وهي المناضلة التقدمية الإسبانية الشهيرة دولوريس إيباروري :م: ز.ع) بوجهها الأسود العابس ، وكأنها أرملة كل الذين قتلوا في اقليم أستوريا ، وهي تقود في موكب مهيب ومخيف عشرين ألف امرأة ، وهن يرددون بشكل موزون جملة واحدة هي : « Ne Pasaram » (لن يمروا !) جواباً على جملة أخرى طويلة يصعب تمييزها ، وذلك تحت الرايات الحمراء التي كانت تحمل جملتها الشهيرة : « من الأفضل أن تكون المرأة أرملة شهيد من أن تكون زوجة جبان » (الصفحة ٣٨٠) .

(٣) أحد أفضل أصدقاء غارسيا في الرواية ، كما كان مالرو صديقاً لبيرغامان ولبير نانوس .

النوافذ ، فارتمى أولئك الذين كانوا في الشارع على بطونهم : وكانت الساحة بكاملها مغطاةً بالناس المنبطحين الذين كان الآخرون يطلقون النار عليهم . وفي اليوم الذي عقب اليوم التالي ، كنت في الوزارة ، فكان أمام الباب صف طويل من النساء اللواتي أتين للتبرع بدمائهن من أجل نقله إلى الجرحى . لقد رأيت شعب إسبانيا مرتين . وهذه الحرب هي حربه ، مهما يحدث ، ولسوف أبقى معه حيث يكون(١) ..»

ماغنان والفلاّح :

وبالمقابل ، فان صور شخصيات الشغيلة ، وحتى التي يوحي بها المؤلف إيحاءً ، هي صورٌ تدعو إلى الإعجاب . فما من قارىءٍ يمكنه أن ينسى ، كما يبدو لي ، فلاح الباراسان الذي اجتاز خطوط القتال ليدل الجمهوريين أن لدى الفاشيين مهبطاً للطيران مرياً ، على مقربةٍ من قريته . إنه لا يحسن قراءة الخريطة ، ولكنّه يقول لماغنان :

– ليس هذا العمل عملي ، ولكنك تأخذني في آلتك ، وأنا أدلك مباشرة .

وأدرك ماغنان لماذا كان غارسيا قد كفل الفلاح .

– هل ركبت الطائرة من قبل ؟

– كلا .

– ألست قلقاً ؟

فلم يفهم الفلاح جيداً .

– ألست خائفاً ؟

---

(١) الصفحة : ٣٠٤ ، لابد من الإشارة إلى أن هذا المقطع لم يكن وارداً في الصياغة الأولى للرواية .

ففكر وقال :

— كلا .

— هل ستتعرف على المهبط ؟

— أنا في القرية منذ ثمانية وعشرين عاماً . وقد عملت في المدينة ، فلتعثر لي على طريق سرقسطة ، وأنا أعثر لك على المهبط ، بكل هدوء .

غير أن الفلاح لم يجد المهبط من السماء ، ولم يتعرف على بلده !

فأمسك ماغنان الفلاح من كتفه مجدداً ، ودلّه على السّطوح التي كانت تنسحبُ تحتهم بكل سرعةٍ ، مثل قطيعٍ من الماشية .

وكان الفلاح ينظر ، وقد توتر بكل قواه ، وفمه نصف مفتوحٍ ، والدموع تنزل بصورةٍ متعرجةٍ على وجنتيه ، دمعةً ، دمعة ؛ فهو لم يكن يتعرف شيئاً .

— صرخ ماغنان : الكنيسة ! الشارع ! طريق سرقسطة . كان الفلاح يتعرفها حين كان ماغنان يدله عليها ، غير أنه لم يتمكن من التوجه . وكانت ذقنه تهتز بصورةٍ متشنجةٍ تحت وجنتيه الجامدتين اللتين تسيل عليهما الدموع ... ولو كان يمكن للإنسان أن يموت من النظر ، ومن البحث ، لكان الفلاح قد مات(١) .

دوافع الجمهوريين :

يوضح مالرو الدوافع العميقة للانتفاضة الجماهيرية ضد المحاولة التي قام بها الجنرالات ، وضد كل ما يمثله الفاشيون ، وهو يبين ذلك عن طريق الكاتالاني العجوز باركا :

— أنت تريد أن تسألني لماذا لم أكن حيادياً ؟

(١) الأمل ، الصفحات : ٤٥٠ — ٤٥٢

– أجل .

(...)

– ومع ذلك ، فهذا ليس سؤالاً مازحاً ، ولكنه سؤال جدي ... فحتى الفاشية الأشد سوءاً تعتبر أقل سوءاً من الموت ... إن رجلي تسبب لي من الألم أكثر مما يسببه لي إزعاج فاشيستي ، حسناً ، إني ...

خلاصة القول ، ها هي : أنا لا أريد أن يحتقرني أحد ...

وقد كان يمكن أن أسوي أموري معهم . ولكنهم يريدون أن يحظوا بالاحترام ، أنا أقبل أن احترم السيد غارسيا ، فهو رجلٌ عالم ، ولكن ليس هم(١) .

ولابد أن نورد تتمة الحوار بكاملها ، فهي شديدة الغنى – كالجملة التي يقولها المالك الذي أغضب باركا ، وفتح عينيه : إن هؤلاء الناس يؤثرون البشرية على أسرتهم ، ولكنا حين نريد أن نصنع شيئاً للبشرية ، فنحن نصنعه أيضاً لأسرتنا » – بالإضافة إلى الخاتمة الشهيرة للجملة ، والتي لا تبدو لنا عبارةً منعزلةً إلا إذا لم نقرأ المشهد بأكمله : « إن نقيض الإذلال ليس المساواة ، بل الإخاء(٢) » .

(١) الأمل ، الصفحة : ٩٧ ء

(٢) تتمثل المفارقة في أن دوافع المثقف غارسيا تبدو للوهلة الأولى أكثر ابتذالا من دوافع باركا بكثير : « بالنسبة لي ، لا أرتدي هذا الزي ، لأنني أنتظر من الجبهة الشعبية أن تشكل حكومة هي من أكثر الحكومات نبلا ، ولكني أرتديه لأنني أريد أن تتغير ظروف حياة الفلاحين الإسبان (الصفحة ٣٩٨) ولكنها الدوافع ذاتها ، في جوهرها . ويقول باركا : إن غارسيا « لا يعرف معرفة حسنة معنى أن يتعرض المرء المضايقة » . بيد أن غارسيا يرى بوضوح ما يجعل بعضاً من أسوأ ألوان الإذلال البشري ممكنة : كأن يحاصر الإنسان في وضع اجتماعي معين غير منصف ، ويمنع عنه أي ترق ، وهذا هو الأمر الذي يريد إلغاءه ، وهو يرى أنه لكي نحرر الناس ، لا بد أولا من تحريرهم اقتصادياً ، غير أن هذا لا يمكن أن يكون كافياً ، ولكنه الأساس ، ثم أن الناس يمكنهم ويجب عليهم أن يصنعوا ذلك بأنفسهم .

قوة الإخاء :

يهيمن هذا الإخاء على الرواية بأكملها ، وهو ليس مبثوثاً فقط في المشاهد الكبيرة الجنونية إلى حدٍ ما ، في بداية الحرب ، وفي نشوة الوحدة بين الجمهوريين الذين كانوا غير موحّدين بالأمس ؛ فالاشتراكيون ، والشيوعيون ، والفوضويون ، والليبراليون ، والكاثوليك وال Rabassain والكاتالانيون جميعهم نهضوا معاً ضد الخطر نفسه — مثل ذلك اللوح الهائل من خشب السنديان والذي يحمله خمسون رجلاً متقابلين ، والذي سيدك بوابة ثكنة الجبل في مدريد ، برغم الرصاص(١) . « لا أتصور أنه يمكن أن يكون في السجن هذا القدر من الإخاء ، هكذا يقول الفوضوي بويغ للعقيد قائد الحرس المدني في برشلونة والذي ظل مخلصاً للحكومة التي استعادت للتو فندق كولون من الفاشيين : لقد كنت محظوظاً وأنت تجتاز الساحة (٢) ... »

وعملت الحكومة على إعادة فتح مصارف التسيف الشعبية الإسبانية ، وأصدرت أمراً بإعادة كافة الرهونات دون مقابل :

« كانت جماعات تنزل الجادة بطنابرها التي تنتصب فيها قوائم الكراسي كالقنافذ ، ويتبع هذه الطنابر المارة الذين يحملون ساعات دقاقة .

لقد كانت فكرة فتح مصارف تسليف مدريد كلها ليلاً في وجه الفقر الذي أنقذ هذه المرة ، وهذا الحشد المتفرق الذي كان يرجع إلى

(١) اقرأ الوصف بأكمله ، على الصفحة : /٤٣/ .

(٢) اقرأ إن العقيد الذي كان يحب اسبانيا حباً وحشياً ، كان شاكراً للفوضوي ، ليس مجاملته ، بل إظهاره لهذا الأسلوب الذي يجدر بالعديد من الإسبان أن يجيبوه به ، على غرار ما كان يمكن أن يفعله قائد من قادة الملك شارل — كان ؛ فقد كان من الواضح أن الفوضوي الذي كان يعني بكلمة « حظ » كلمة « شجاعة » . (الأمل ، الصفحة : ٣٦) .

الأحياء الفقيرة حاملاً رهوناته التي استعادها ، كانت أول شيء جعل شاد يفهم ما يمكن أن تعني للناس كلمة « ثورة (١) » :

إن هذا الإخاء سينير المشاهد الأشد قسوة ، حتى نهاية الرواية ، وكأنه إخاء أولي ، وشبه غريزي : مثل مشهد المعارك الشرسة في المدينة الجامعية ، ومشهد رجال التفجير الذين ينتظرون المصفحات ، والنضال ضد غارات قصف مدريد وحرائقها ، وحتى مشهد الانحدار المريع من طليطلة ، والرحيل المأسوي عن مالاغا :

« كان هناك رجلٌ عجوز ، لم يبق منه النحول غير الأوتار والأعصاب وقد آل إلى تلك الشيخوخة التي تحيل الجسم إلى أوتار ، والتي لا يبدو أن لها وجوداً إلا بين الفلاحين ، كان ينادي ، وهو يحمل على ذراعه اليسرى المثنية طفلاً عمره بضعة أشهر . وقد كانت على الطريق ألوان من الشدائد أعظم بكثير ، غير أن قلب الإنسان قد يرق للطفولة أكثر مما يرق لأي شيء آخر ؛ فأوقف الطبيب العربة ، برغم حشرجة وبيس(٢) وكان وضع الفلاح داخل العربة متعذراً ، فاستقر على جناحها ، وهو لايزال يحمل الطفل على ذراعه اليسرى ، ولكنه لم يجد شيئاً يتعلق به : فمدّ بول ، الجالس على الجناح الآخر ، والذي كان يتمسك بمقبض باب العربة بيده اليمنى ، مدّ يده ، فتشبّث الفلاح بها(٣) ....

لم يكن بوسع الطبيب ، ولا بوسع أي راكبٍ من ركاب العربة أن

---

(١) الأمل ، الصفحة : ٥٤ / .

(٢) طيار من إقليم الباسك ، جراحه خطرة .

(٣) هو بولسكي الذي يقال له بول ، وهو أحد الطيارين المتطوعين في كتيبة ماغنان الدولية ، ويبدي البشاشة على الدوام تقريباً .

يزيح عينيه عن « هاتين اليدين المتحدثين » ، فقد كان هذا العامل الغريب ، وهذا الرجل الطويل القامة ، المجعد الشعر ، والذي سيقاتل مجدداً من أجلهم ، وهو يمسك بمعصم الفلاح الأندلسي العجوز الهارب أمام القطعات الألمانية من « محرر اسبانيا(١) » لقد كان هو إحدى صور تلك الحرب نفسها ... »

المشهد الكبير ، مشهد الجبل :

إن المشهد الأكثر جمالاً في الرواية كلها ، وأجمل ما كتب مالرو ، بلا ريب (ولسوف ينقله إلى الشاشة بالدرجة نفسها من النجاح) سيكون تمجيداً للإخاء في كل صوره ، من مثل : مهاجمة مدرج الطيران السري الذي دل عليه الفلاح ، والنضال ضد مطاردة نيران العدو ، وسقوط إحدى الطائرات ، وموت سعيدي ، الطيار العربي الذي أتى إلى إسبانيا ليزيل العار الذي جلبه الصحراويون ، حين قبلوا بالقتال إلى جانب فرانكو(٢) ، والجرح الفظيع الذي أصاب غارديه في وجهه ، وكان رجلاً يحب النساء ، والإنزال الطويل للتابوت ، والنقالات ، التي يتبعها جميع الفلاحين ، والفلاحات ، عبر مساحات الجبل الشاسعة الصماء : من فالد يليناريس إلى ليناريس ...

إن لذلك الإخاء من قوة الوضوح ما يجعل الشعور به يغدو وكأنه أقوى من العالم نفسه(٣) ، وهذا مالم نكن نظنه ممكناً عند مالرو . وفي هذا الفصل الأخير ، ولمرتين ، يكتشف ماغنان في الإخاء حقيقةً

(١) الأمل ، الصفحة : ٤٣٢ .

(٢) حين علمت أن الصحراويين كانوا يقاتلون إلى جانب فرانكو ، قلت لفرعي الاشتراكي إنه يجب علينا أن نفعل شيئاً ، وإلا ماذا سيقول الرفاق العمال عن العرب ؟)

(٣) على الدرجة نفسها من القوة ، على أية حال .

واقعيةٌ لايمكن إنكارها كحقيقة الطبيعة ، ومعطى أساسياً من معطيات الوضع الإنساني — ويمكن بالنتيجة أن نبني عليه :

« كان ماغنان قد اعتاد حينذاك على ذلك الهدوء ، هدوء بداية الكون الذي يعلو على عناد البشر ، غير أن الناس ، تلك المرة(١) ، لم يكونوا مهزومين . ولم يكن بحر الغيوم الذي لا يكترث لشيء أقوى من تلك الطائرات التي تنطلق متكاتفة الأجنحة ، وتطير متكاتفة الأجنحة نحو عدوٍ واحد ، في جو المحبة ، كما في الخطر المختبيء في كل موضع ، تحت تلك السماء الهادئة ، وليس أقوى من هؤلاء الرجال الذين قبلوا جميعاً أن يموتوا في سبيل شيءٍ آخر غير ذواتهم ، والذين وحدتهم حركةُ البوصلات في حتمية الإخاء ذاتها(٢) » .

لا يقل الإخاء عن الوحدة في كونه حقيقةً واقعية .

وإذا كان لا يُلغي مأسوية الموت ، فهو يعطي الناس حرارة الحضور التي تتضمن مشاعر نحس بها في آنٍ واحد :

« كان غارسيا ينظر إلى وجه صديقه ، ولكن دون أن يميزه ، ولم يكن يصدر أبداً أي صوتٍ من أصوات القتال ، ومع ذلك ، فقد كان منجل الجيش الفاشي حول المدينة ، مثل حضورٍ في عتمة غرفةٍ مغلقة، وتذكر غارسيا آخر حديثٍ له مع كاباليرو(٣) ، وكانت كلمتا : « الولد البكر » قد وردتا في الحديث ؛ فغارسيا لم يكن يجهل أن أبن

(١) في طبعة كتاب الجيب ، ثمة خطأ فادح في هذا الموضع ، فهي تحتوي التالي : هذه المرة ، لم تهزم « الغيوم » . ويجب أن نقرأ : « الناس » لم يهزموا .

(٢) الأمل : الصفحة : /٤٥٠/ .

(٣) لارغو كاباليرو : هو قائد اليسار في الحزب الاشتراكي الإسباني ، ورئيس الحكومة الجمهورية ، من ٤ أيلول ١٩٣٦ وحتى ١٥ أيار ١٩٣٧ .

كاباليرو كان أسيراً لدى فاشيي سيغوفيا ، وأنه سوف يعدم رمياً بالرصاص . لقد حدث ذلك في أيلول ، وكان كل منهما يجلس وراء أحد جانبي المنضدة ؛ فكابالّيرو كان يرتدي بدلة عمل ، ويلبس غارسيا بزة عامل فني (مونو)(١) ، وكانت جرادة قد دخلت من النافذة المفتوحةفي تلك الفترة من نهاية الصيف، فسقطت بينهماعلىالمنضدة وهي نصف محطمة ، وكانت تحرص على ألا تتحرك ، وغارسيا ينظر إلى قوائمها المرتعشة ، فيما كان كلا الرجلين يلتزمان الصمت(٢) . » .

مشكلات العمل جميعاً :

مع أن « الأمل » وثيقة حية فريدة في نوعها ، ومع أنها تمجيد للتضامن الإنساني الذي يكون أولياً في البداية ، غير أنه يصبح أكثر تضامناً واعياً ، وعنيداً ، ومثمراً ، فهي مع ذلك بصورة أساسية ، رواية العمل السياسية والأخلاقية ، ورواية شروط هذا العمل ، كما قلنا . وفي هذا ، تتمثل بنية الكتاب ، فيجري فيها تناول المشكلة الدرامية ذاتها مئة مرة ، وتنبعث المشكلة ذاتها من خلال كافة النقاشات ، ألا وهي : كيف نعمل ؟ كيف ننتصر ؟ وكيف نحقق الأمل ، وكيف نعيش ؟

لقد أفشل الشعب الانقلاب ببطولته ، إلا أن الانقلاب قد انقضى ، وعلى الشعب منذ ذلك الحين أن يخوض الحرب — ليس حرب الأنصار ، بل الحرب ! والفاشيون يمتلكون الجيش ، والتسليح ، والتقنيات ، والتنظيم ، والانضباط ، وقطعات الصدام « النشوى بالخيلاء القتالية » ،

---

(١) مونو : « Mono » هي بزة عامل فني ، ذات سحاب ، وقد غدت اللباس الموحد للجيش الشعبي ، انظر : (الأمل : الصفحة ٥ و ٨٤) .

(٢) الأمل : الصفحة : ٣١٠ / .

ولقد استولوا لتوهم على باداجوز ، وإيرون ، وسان سيباستيان ، وطليطلة ، وما زالوا يتقدّمون ، فهل ينبغي استخدام كافة الوسائل التي يستخدمونها ضدهم ؟

منذ المشاهد الأولى ، واعتباراً من العنوان الأول : « الوهم الغنائي »، تطرح المشكلة ، ويجري الإيحاء بالطرح التالي : إن الجمهورية والثورة اللتين تلجأن إلى المتاريس ، وإلى الشجاعة وحدها سوف تهزمان بالتأكيد في مجابهتهما لمصفحات فرانكو ، وموسوليني ، وهتلر ، وطائراتهم ، وبمواجهة حرب القرن العشرين التقنية ؛ ولسوف يقتل الحماس الغنائي ؛ إذا ما استمر في الاعتماد على الوهم ؛ فالمتفوقون هم الذين سينتصرون وحدهم ، لأن العالم سيأتي إليهم .

ويضطر الفوضويون ذاتهم للاستنتاج بأنه لا ينبغي للمرء أن يقاتل فحسب ، بل أن يعرف كيف يقاتل ؛ ويصاب بويغ بالرعب ، بسبب العدد الذي يسقط من رفاقه ، فيما كان يمكن لاحتياطاتٍ أولية أن تنقذهم . ويقبل الفوضويون اتباع عددٍ من التعليمات . غير أنهم يأنفون من المضي إلى أبعد من ذلك . برغم ما يدعوهم إليه قادتهم (من مثل دوروتي ، وجوان بيرو ، وفيديريكو مونتسوني) . أما الشيوعيون في الرواية(١) ، فهم الذين يجرؤون وحدهم ، أو تقريباً وحدهم ،

(١) من غير الممكن هنا أن نناقش بالتفصيل الدقة التاريخية لرواية مالرو ؛ فقد تعرض كتابه لهجوم عنيف من اليمين حين صدوره (وحتى أن أندريه روسو قد وصف مالرو بأنه « فوضوي كامل » ، وهذا وصف يتجاوز الحد فعلا ، فيما يتعلق « بالأمل » (، ثم تعرض الكتاب لهجوم الفوضويين عليه ، ولهجوم الشيوعيين ، فيما بعد) انظر مقالة روجيه غارودي : « أدب حفاري القبور ») . وتحت عنوان : قناع موت أندريه مالرو) ... وفي الواقع،فان شهادة مالرو تبدو لي منسجمة عموماً مع الحقيقة ، بالنسبة للوقائع التي =

على مواجهة الوسائل الفعالة ، وعلى أية حال ، فهم الأكثر تصميماً على ذلك من غيرهم ، وهذه الوسائل هي :

ــ نبذُ أي تدبيرٍ ثوري ، إذا لم يكن هناك يقين بأنه سيصنع الوحدة من جهة، وبأن التنظيم الجديد سيكون حالاً على نفس الدرجة من الفعالية التي كان التنظيم القديم قد وصل إليها ، من ناحية أخرى ؛ ففرانكو ذاته منظم ــ وينبغي أن يجري ذلك اعتباراً من الآن ! ...

ــ فرضُ انضباطٍ عسكري في الفيلق الخامس أولاً ، ثم في كافة القطعات ، أي فرض مجمل الوسائل التي تتيح لجماعةٍ مقاتلةٍ أن تحصل على ما يمكن الحصول عليه حتماً من نتائج فعليةٍ محددةٍ بدقة ، وذلك بكل بساطةٍ ، وبصورة تامة .

ــ معاقبة أولئك الذين يهربون ، أو يعصون الأوامر ، وإن كانوا متطوعين ، وحتى الحكم عليهم بالموت ، إذ لزم الأمر .

ــ التخلي عن روح الفروسية ، والشهامة ، وحتى الروح الإنسانية مؤقتاً تجاه الأعداء ، ورفض نقل الرسائل مثلاً ، إلى زوجاتهم ؛ فيمكن أن تحتوي معلوماتٍ معينة ... ــ ينبغي الانتصار أولاً ، وإلا فلن تكون هناك إنسانية على الإطلاق .

= تقدسها . غير أن المؤلف يلتزم الصمت ،أو يتكتم كثيراً على عدد من الوقائع الأخرى ، وذلك عموماً لكي لا يسيء إلى الجمهورية التي يحاصرها فرانكو ، وعلينا أخيراً ألا ننسى أن « الأمل » تتوقف في آذار لعام ١٩٣٧ ، غير أن الحرب قد استمرت حتى آذار ١٩٣٩ ــ وتاريخ هاتين السنتين الأخيرتين هو أكثر تعقيداً ، وأكثر مأسوية من تاريخ الأشهر الثمانية الأولى (انظر دراستنا السياق التاريخي في مجموعة : صورة جانبية لمؤلف عنوان : « الأمل » لمالرو ، باريس ١٩٧٠) .

الفعالية أو الموت :

إننا نتكهن بكل الاعتراضات الممكنة على ما سبق . ومالرو لا يخفيها، بل يزيدها عدداً ، أما اعتراضات الفوضويين فليست هي الأشد ، برغم مظاهرها :

« يقول لونيغوس : لا نريد ديالكتيكاً » ، لا نريد بيروقراطيين بدلاً من النواب ، ولا نريد جيشاً لكي نتخلص من الجيش ، ولا عدم مساواة لكي ننتهي من عدم المساواة . ولا نريد صفقات ملتوية مع البورجوازيين . نريد أن نعيش الحياة كما ينبغي أن تعاش ، منذ الآن — أو أن نموت ، فاذا أخفقنا في ذلك ، فلنخرج دون مناورة (١) » .

إنه لأمر بالغ السهولة أن نرد (حتى ولو لم يكن هذا الرد بارعاً دوماً من الناحية النفسية (بأن هذا الموقف لايمكن أن يدافع عنه دفاعاً جيداً في ترابطه إلا أولئك الذين يؤمنون بالحياة الأخرى ، وأنه حل ديني . أما الملحدون فيرون في القول : « بعدنا فليكن الطوفان » نقيض « الأمل » نفسه ، إذ أنه يقبل حتى إمكانية الهزيمة مسبقاً ، وانتصار الدولة الفاشية والعنصرية ، كما يقبل أن التضحية تغريرٌ لا يخلق شيئاً .

يقول ماغنان إن « البشر لا يقتلون من أجل التقنية ؛ ومن أجل الانضباط » ... بل يقتلون على يد تقنية وانضباط الآخرين . « ويؤكد غارسيا أن الفعل لا يفكر به إلا بعبارات الفعل ؛ فلا وجود لفكرة سياسية إلا من خلال مقارنة شيء ملموس بشيء ملموس آخر ،وإمكانية معينة . بامكانية أخرى . فهناك جماعتنا أو « فرانكو » — وهناك تنظيم معين أو تنظيم آخر — وليس هناك تنظيم مقابل رغبة ما ، أو حلم أو

(١) الأمل ، الصفحة : /٢٠٠/ . .

قيامة ! » ... وليس بوسع غارسيا إلا أن يقول أيضاً « للرُّواقي» التعس هيرنانديز الذي فكر بالثورة كثيراً من منطلق الأخلاق ، مؤملاً منها أن تحل كافة المشكلات الفردية ، أن يقول له جملةً هي بالتأكيد إحدى الجمل المفتاحية في الكتاب ، وعند مالرو :

« إذا فكر المرء ، يا هيرنانديز ، بما ينبغي أن يكون بدلاً من أن يفكر بما يمكن أن نفعله ، فهذا هو السّمُّ ، حتى وإن كان ما يمكن أن يفعله قبيحاً . وكما يقول غويا ، فهذه اللعبة لا علاج لها لأنها خاسرةٌ مسبقاً بالنسبة لكل إنسان . إنها لعبة ميئوس منها ، يا صديقي الطيب(١)».

ويكرر مالرو في «الأمل » ما كان قد قاله سابقاً ، وقبل شهرٍ من الحرب ، في لقاء جرى في لندن للجمعية الدولية للكتاب من أجل الدفاع عن الثقافة :

« ما من دولةٍ ، ولا بنيةٍ اجتماعية تخلق نبل الطباع أو نقاء الفكر . وفضلاً عن ذلك ... أيمكننا ننتظر الظروف الملائمة . إن هذا لكثير ... فالثورة مكلفة بحل مشكلاتها ، وليس مشكلاتنا ، فمشكلاتنا لا تتعلق إلا بنا(٢) » ...

إن الثورة لا تقدم للناس إلا إمكانية امتلاك كرامتهم ، ومن واجب كل إنسانٍ أن يحول هذه الإمكانية إلى حيازةٍ لهذه الكرامة(١) .

وسائل السياسة الصّحيحة :

أما الاعتراضات الأشدُّ ، إلى حدٍ بعيد (وهي ، إذا أردنا ،

---

(١) الأمل ، الصفحة : ٢١٣ .

(٢) الأمل : الصفحة : ٣٨٩

(١) خطاب لمالرو في لندن ، حزيران ١٩٣٦ .

اعتراضات الفوضويين ذاتها غالباً ، غير أنها أعمق منها بكثير) ؛ فمالرو يضعها غالباً على لسان الذين يختارون الفعالية ذاتهم ، لأنهم يتمتعون بصفاء الذهن ، ولكي يجعلهم يكبرون أكثر في نظرنا . إن غارسيا نفسه هو الذي يرد على شيوعي آخر قائلاً : « إن السياسة لا تصنع عن طريق الأخلاق ، هذا صحيح ، ولكن السياسة لا تصنع أيضاً بدون ... » .

ينبغي أن تصنع السياسة ، مع أخذ كافة المعطيات الإنسانية بالحسبان ، ونتيجةً لذلك ، معطيات الأخلاق أيضاً — وكذلك المعطيات النفسية ! ..

هناك سياسات للعدالة ، وسياسات للتعسف ، هناك حروب عادلة ؛ فالحرب ضد فرانكو هي حرب عادلة ... ولكن ليس هناك جيش عادل ، وحزب عادل ؛ فهذه أدوات ينبغي أن تكون أدواتٍ جيدة ، وتستجيب لما يُنتظر منها. هذا كل ما في الأمر(١) . إن غارسيا شيوعي، ولكنه نقيض الرجل الممتثل لحزبه دون قيدٍ ولا شرط .

ما من ضمانةٍ مؤكدةٍ للمستقبل ؛ فمن أجل تدمير العبودية الاقتصادية الرهيبة من الممكن ، كما يعتقد ألفيار ، أن يصل الأمر إلى فرض عبوديةٍ سياسيةٍ وعسكريةٍ ودينية ، وربما بوليسية ، أكثر رعباً أيضاً من العبودية الأولى ، وعلى أية حال ، فهي أكثر رعباً بالنسبة لألفيار . وغارسيا يعرف هذا الخطر ، فيكون جوابه بسيطاً : إن الخطر الحالي في إسبانيا ، هو خطر فرانكو ، وليس غيره . وضد هذا الخطر ، يجب أن نبذل اليوم كل ما نستطيع . وحالاً . أما الحكومة

(١) الأمل ، الصفحة : /٣٩٠/

فستكون فيما بعد الحكومة التي نصنعها ! ... يقول غارسيا ساخراً(١) : يا صديقي الطيب ، إن تحرير البروليتاريا سيكون من صنع الشغيلة أنفسهم (٢) » .

الممكن :

إنه موقف جلي ، ومركب ، وشديد الصعوبة ؛ فماذا سيكون هذا الموقف إذا ما أصبح عرضة للشك ؟ حتى وإن كانت سياسة العدالة ما تزال واضحة فيه ، أو إذا تكشف أن وطن الشيوعية الرسمي ، وأن الأمة التي تقدم للجمهورية أفضل مساعدة حتى ذلك التاريخ ، إذا تكشف أنها دولة استبدادية تفرض أساليبها نفسها في إسبانيا(٣) ؟ ، وهذا ما كان يخشى أن تكون عليه هذه الدولة . إن غارسيا يعلم أنه ينبغي خوض الحرب تحت طائلة الهلاك ، غير أنه لا يدري ماذا ستفعل به هذه الحرب في النهاية(٤) ... أما مانويل ، البطل الآخر في الكتاب ،

---

(١) ساخراً : لأنه يسخر بعض الشيء من الهوس الشيوعي ، هوس الاستشهادات بيد أن هذه الفكرة هي حقاً فكرته العميقة – طبعاً لجملة ماركس الشهيرة .

(٢) الأمل ، الصفحة : /٣٩١/ .

(٣) إن مالرو لا يطرح السؤال بالفجاجة نفسها في الكتاب طبعاً ، غير أنه يوحي به بضع مرات . ونعرف اليوم أن أندريه جيد كان قد استشاره عام ١٩٣٧ حول ملاءمة نشر كتابه : (العودة من الاتحاد السوفييتي) ، وهو كتاب مليء بالاتهام ، وكان مالرو قد نصحه بانتظار نهاية الحرب الإسبانية .

(٤) لم يقدم غارسيا إجابة واضحة لهيرنا نديز الذي روى له كيف من الشيوعيين قد اتهموا أمامه أحد الفوضويين بالسرقة زوراً ، فقد كانوا يريدون الخلاص منه . (لأن سياسته الحمقاء في بعض القرى كانت تودي « موضوعياً » خدمة لفرانكو) . وتستعيد هنا مآخذ الفوضويين كامل قوتها الاتهامية : « لقد ابتلعكم الحزب ، وابتلعكم الانضباط ، وابتلعكم التواطؤ ، فتجاه شخص ليس من جماعتكم ، لم يعد لديكم نزاهة ، ولا واجب ، ولا أي شيء » . (الأمل : الصفحات : ٢٠١و٢١٢) .

فكلما ارتقى في درجات المسؤولية ، باتجاه فعالية أكبر ، وقيادة أفضل ، كلما شعر بالقلق الذي ينتابه لأنه قد أصبح « أقل إنسانية » ، وأنه يخسر حتى شيئاً من إحساسه بالإخاء ، مع أنه متأكد من أنه على صواب ، وأنه يفعل ما يتوجب عليه فعله . أما المشهد(١) الذي لا يجد فيه كلمة واحدة يجيب بها الرجلين الهاربين المحكومين بالإعدام ، واللذين يتوسلان إليه ؛ فليس لهما ذنب كبير فيما فعلاه ، في حقيقة الأمر ، وبؤسهما شديد ، وهما يجسدان بالذات أولئك الذين يدفعون الثمن دائماً ، هذا المشهد مؤثر إلى أقصى حد .

كان كزيمين قد قال له إن المعركة الحقيقية تبدأ حين ينبغي على المرء أن يقاتل جزءاً من ذاته — وهو الجزء الطيب . هناك قدر من النبل أكبر في أن يكون المرءُ قائداً من أن يكون فرداً ، فذلك أصعب . وكان مانويل قد رأى سابقاً ، وهو يفكر بالقادة الثوريين ، أن أحد أجمل مصائر الإنسان هو في أن يكون محبوباً دون أن يغوي أحداً . وهو يدرك الآن(٢) أن هذا المصير أقسى بكثير مما كان يظن : فهذا يعني أن يكون المرء محبوباً دون أن يغوي أحداً ، حتى ذاته (٣) .

ولا يمكن لمانويل أيضاً أن يعرف ما الذي ينبغي فعله في المستقبل ،

---

(١) الأمل ، الصفحة : /٣٨٠/ .

(٢) في الأمل ، يجري غالباً تناول الواقعة ذاتها ، أو النقاش ذاته من جديد ، بعد تجربة جديدة ، بالتوافق مع إجابة غارسيا الشهيرة : « فلتقل لي إذن ، أيها القائد ، ما هو أفضل شيء يمكن للإنسان أن يفعله بحياته ، حسب رأيك ! فأخذ غارسيا يفكر ، وقال : — أن يحول أوسع تجربة ممكنة إلى وعي ، يا صديقي الطيب » . (الأمل ، الصفحة : ٣٨٩) .

(٣) الأمل ، الصفحة : ٤٠٣ .

وما الذي سيصبح عليه ، فربما يغدو رجلاً آخر ، لا تعرفه نفسه . إن الحرب تكتشف مرة واحدة ولكن الحياة تكتشف بضع مرات ؛ « فالأمل » و « الممكن » واسعا المدى أمام البشر ، وهما على قدر صفاء فكرهم وإرادتهم ... وتنتهي الرواية ، بعد مشاهد الجبل ، بتلك الافتتاحية العظيمة التي تتناغم مع الحركات الموسيقية لسيمفونية معينة ، ومع دقات قلب مانويل(١) ؛ فالمستقبل يرتبط بنا .

أظن أننا لن ندهش إذا عرفنا أن مالرو لايزال اليوم يؤثر(٢) «الأمل» على جميع كتبه . إن هذا الكتاب ، الذي يماثل « الوضع الإنساني » في غناه ، غير أنه أكثر منه بساطة ، وأقرب إلينا ، هو مؤلفه الأكثر أصالة والأقوى ، وهو ملحمة مأسوية وواقعية جديرة بالموضوع الذي تعالجه ، وبالأبطال الذين تدخلهم إلى ساحتها . وهذه الملحمة ، مثلها مثل شخصيتي مانويل وكزيمنيس ، لا تسعى إلى تضليلنا ، فيمكن أن نقرأها عشر مرات دون أن تكف عن إثارة الحماسة فينا . إنها تحرك الشعور ، وتهذب النفس باستمرار .

سييرا دو تيرويل :

إن هذا الفيلم الذي صوره مالرو عام ١٩٣٨ ، ليس اقتباساً عن رواية « الأمل » ، برغم عنوانه الحالي : « أمل » . ، إنه عمل فني أصيل، وكان من المقرر أن يكون خصوصاً عملاً فنياً أصيلاً يحمل اسم :

---

(١) إن مانويل موسيقي ، شأنه شأن كاسينر ، وشأن مالرو ؛ إنه يعزف على الأرغن من أجل متعته الخاصة ، وقد كان مهندس صوت ، قبيل الحرب الأهلية .

(٢) أي حوالي عام /١٩٧٠/ الذي صدر فيه هذا الكتاب الذي تقدم ترجمته الآن (م:ز.ع) .

« سيرا دو تيروييل » ؛ بيد أن التنفيذ الذي كان ينقطع كل يوم تقريباً ، بسبب الإنذارات الجوية ، وغارات القصف الإيطالية ، وانقطاعات التيار الكهربائي ، قد أوقف إيقافاً تاماً أثناء احتلال كاتالونيا في كانون الثاني لعام ٣٩ . وبقي ثلث الفيلم بدون تصوير ، ولا مجال لتعويضه . وبرغم « النماذج الفنية » الإيضاحية؛ فلسوف يظلُّ تواصلُ الحكاية باعثاً على القليل من الرضى .

لم يبق في الفيلم أي نقاشٍ ، وأية أطروحةٍ تصوغها عبارات معينة ، وأية دلالةٍ دقيقةٍ ، ذات مرجعيةٍ سياسيةٍ ، وإنما بقيت بساطة الفلاحين الإسبان وتصميمهم ، وهما سمتان مطبوعتان على كل الوجوه ، وجدارة لجان الجبهة الشعبية(١) ومواظبتها .

لقد كان السيناريو الأولي يعطيهم مكاناً أكبر أيضاً ؛ فالبربر المغاربة الذين يزحفون باتجاه ليناس ، يسوقون أمامهم قطعان الماشية الموجودة في أعالي الجبل ، كما تساند إحدى الدبابات طلائعهم ؛ أما الفلاحون الذين ليس لديهم أسلحة أخرى غير بعض بنادق الصيد ، ولكن بعض المتفجرات قد جلبت إليهم ؛ فهم يمسكون بجلاجل الأبقار ، ويعبئونها بالمتفجرات ، ويلقون بها على البربر ، وحتى أنهم ينقلون

(١) كان العنوان الأولي للقسم الأخير من « الأمل هو الفلاحون . والدي تقرير بأن مالرو قد فكر في البداية بادخال عدد من الحوادث في هذا القسم ، وقرر بعد ذلك بقليل أن يصنع فيلمه منها . ولكنه لم يحتفظ إلا ببعض الشخصيات من روايته من مثل : ماغنان الذي أصبح في الفيلم : الإسباني مونيوز . وأتينيس جوليان سوينير ، وسعيدي ، ومارسيلينو (الذي مات) ، وشريئر وبونغ ، وخصوصاً فلاح آلباراسين - أما غارسيا وألفيار ومانويل فقد حذفوا ، وكذلك مدريد . لقد كان ذلك السيناريو الذي يتميز بوحدة كبير (ويصعب على المشاهدين غير المطلعين أن يتصوروه) يستحق عنوانه تماماً ، وهو : سيرادو تيروييل .

جرس الكنيسة المعبأ بالمتفجرات على عربة صغيرة ، من فوق نتوء صخري ليرموا به على إحدى الدبابات . فيخطئوها . حينئذ ، يربط أحد الرجال جلاجل الأبقار المحشوة بالمتفجرات بسلك حديدي كان يحيط بأرض يمتلكها السيد الإقطاعي ... فتنهار الأشجار على الدبابة .

وبرغم غياب مشاهد كهذه(١) ؛ فالفيلم ، كما هو ، يظل فيلماً جميلاً ، وأخاذاً للغاية ، وخصوصاً في قسمه الثاني المبتور بدرجة أقل . وهو يتصف بواقعية أحداثه بحيث أن العديد من المشاهدين قد نظروا إليه باعتباره فيلماً وثائقياً حقيقياً . وفي واقع الأمر ، فان بعض الصور فقط قد استعيرت من أشرطة سينمائية لأحداث الساعة ، أو من لقطات من مواقع القتال . ولقد تم تشكيل كافة المقاطع السينمائية ، وأتقن العمل بها للغاية ، و«أخرجت» ، ومثلت على يد ممثلين من مثل (ميجوتو ، ورودريغز ، ولادو (، وقام بتصويرها مصورون من مثل باج وتوما . أما فنهم ، فمع أنه محجوب عن الأنظار ، فهو فن تطوعي تماماً(٢) .

---

(١) لم تصور منه سوى بضع صور ، ومن الصعب أن تفهم في الفيلم ، إذا لم يكن المشاهد مطلعاً : كالمرور الهائل القطعان التي تجعل المنازل تهتز ، والفراشات الملصقة التي تبرز من إطارها ، والماء (أو الحمض) الذي يتحرك في مقشة مثيرة للاستغراب ، وموضوع على إحدى مناضد الدكان ، دكان العطار الذي غادره خبراء المتفجرات التو ، بعد أن نقشوا التدابير الواجب اتخاذها ، والقطرات التي تقطر نقطة نقطة في سكون المكان .

(١) كان يعاون مالرو في الفيلم كل من دوني ماريون ، وتوبال ، وكورنيليون — مولينييه) ولكنه هو الذي أدار الإخراج فعلا ؛ فالحوارات بطبيعة الحال هي حواراته ، وقد ترجمها إلى الإسبانية ماكس أوب ، والفيلم ناطق بالإسبانية . ولقد زودت الدفعات الجديدة من متطوعي الجيش الشعبي الفيلم بالممثلين الصامتين ، في المشاهد الأخيرة ، والتي لم تنجز هي الأخرى أيضاً .

جمال بصريّ بنوع خاص :

بالنسبة للمشاهد التي يقتبسها مالرو من روايته (كسيارة بويغ التي تنقض بكل سرعتها على المدفع الفاشي ، ومهاجمة مدرج الطيران السري الذي دل عليه الفلاح ، والجلسة السرية المثيرة والأخوية داخل حجرة الطيار ، والنزول الطويل باتجاه ليناريس) ؛ فان مالرو يستخدم أحياناً ذات الإشارات التي يستخدمها في كتابه بالضبط ؛ فمثلاً ، هناك صورة معزولة لبضع ثوانٍ ، وساكنة ، بين المعارك التي يخوضها البشر تتوافق مع مقطع مؤلفٍ من سطرٍ واحد في الرواية ، وهو : « كانت طيور السمان تمر في رحيلها السنوي ، من تحت الطائرات » . ومع ذلك ، فلا يمكن أن يكتفي الفيلم هنا بصورة العصافير وحدها ، وهي تندفع في رحاب السماء ، ويرينا مالرو ردود الفعل على وجهي مينيوز ودايتيني ، ويجعل هذا الأخير يقول جملةً إيضاحية لكي يفهم يفهم المشاهدون كافة ... إلا أنه لا يعلق بالطبع على الطيران المتعجل لحشرةٍ تدور حول جهاز تصويب الرشاش ، أثناء المعركة نفسها . فادخال هذه الحشرة إدخالاً مقتضباً للغاية بليغٌ إلى حدٍ كاف .

وكذلك فان الموكب الطويل ، موكب الفلاحين في الجبل ، والذين يسيرون وراء الطيارين الجرحى ، يتصف بجمالٍ « بصري » خصوصاً . ومالرو ، الذي فكّر طويلاً في « الإخراج » ، لدى المصورين البندقيين الكبار ، كما فكر في نفسية مشاهد السينما(١) ، يأخذ من جديد « الحركة الصاعدة الكبيرة التي تبدأ من اليسار إلى اليمين ، وتستمر من

---

(١) نعلم أن مالرو قد نشر عام ١٩٣٩ : « لوحة إجمالية لسيكولوجيا السينما » ، وقد أصبحت سريعاً لوحة شهيرة .

اليمين إلى اليسار » هي حركةٌ شديدةُ القوة في لوحة لوتانتوريه : « الصعود إلى درب الآلام(١) » ، وفي فيلم : « الدارعة بوتمكين لإيزنشتين(٢) ، غير أنه يوافق هذه الحركة مع موضوعه ويقلبها — وذلك من دون أن يفسد الاعتدال أبداً ؛ فهذا الاعتدال هو إحدى صفات الفيلم الأساسية ، ولربما أكثرها فعالية .

وينظم مالرو كذلك تداخل الصوتِ والصورة بمهارة بحيث تحدث أكبر تأثيرٍ ممكن ، من خلال إعادة مونتاج(٣) الفيلم حتّى ست مرات . ويقطع عمداً الصورة التي ينتظرها المشاهد ، وهي صورة الاصطدام بحد ذاته ، بعد أن تتقارب اللقطات بصورةٍ متزايدة ، وذلك في مشهد السيارة التي تنقض على المدفع . ويحل محل الصورة طيران حماماتٍ مذعورة ، مع حذف لصوتها ، واستبدال قرقعة السيارة التي تتحطم به. وبدلاً من أن يُحَلَّ التوترُ الدراميُّ ،فهو يبقى ويتواصل في اللقطة التالية ؛ فالسيارة تتدمّر على الشاحنة ، وأحد الدواليب يدور في الفراغ ، وفي صمت المكان ، الذي يغدو الآن صمتاً تاماً ، يأخذ الوقود بالسيلان ، .... وفي البعيد ، يدوي جرس إنذار(٤) ، بعد بضع ثوانٍ .

---

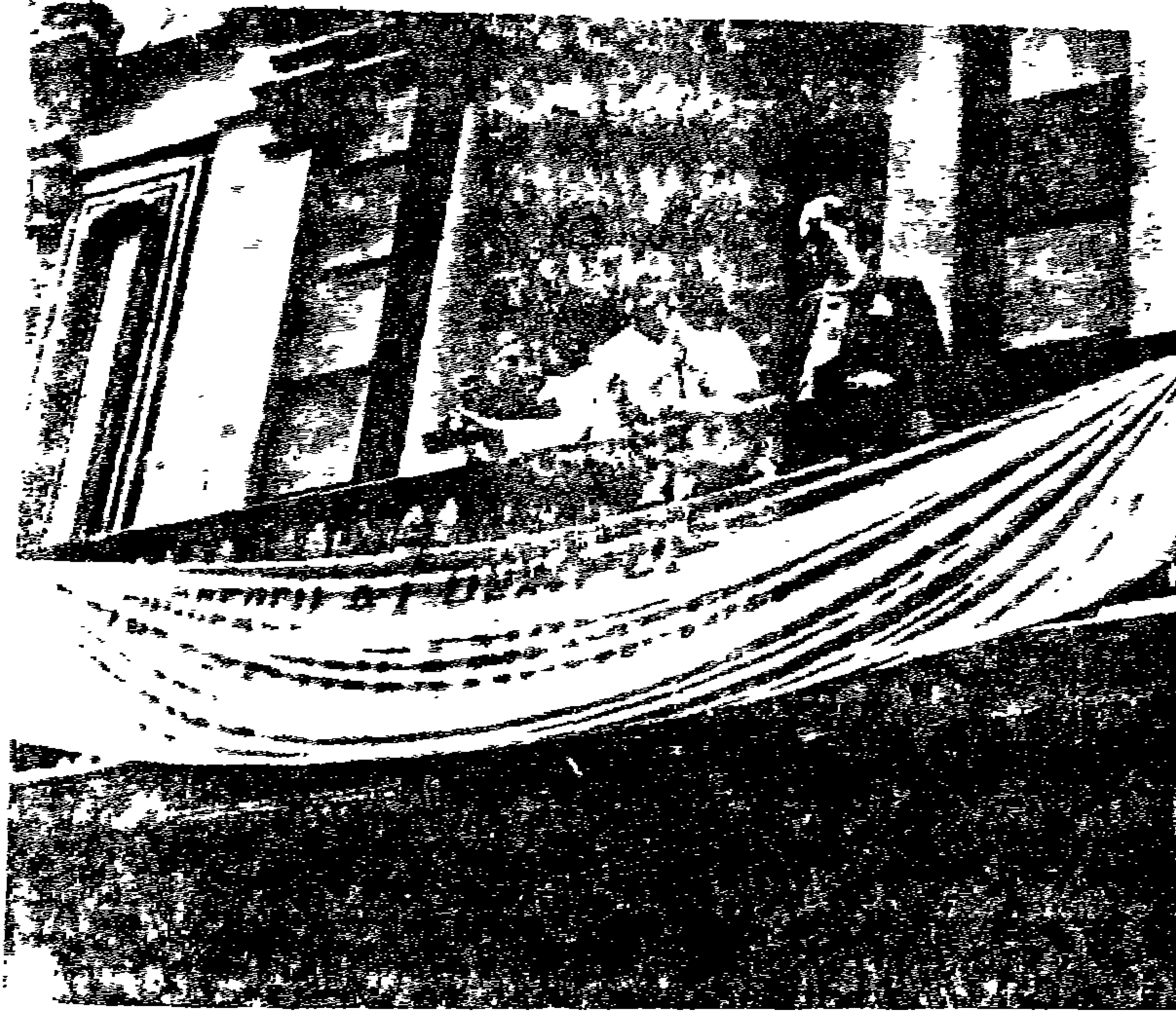
(١) نجد صورة عن لوحة لوتانتوريه ، وتعليق مالرو عليها في كتابه : « أصوات الصمت » . الصفحة: ٤٤٣ ، غير أن ملاحظة مالرو حول إيزنشتين ترد فقط في طبعة سكيرا لكتاب : « الإبداع الفني » .

(٢) في مشهد جسر السفينة ، يتناول مالرو مجدداً حركة لوتانتوريه بصورة أفقية ، على مستويين .

(٣) اختيار وترتيب الصور في فيلم معين (م: ز. ع) .

(٤) لن يفوت محبيء السينما أن يدرسوا بصورة خاصة فن المونتاج في هذا الفيلم بكامله وربما يدرسون بصورة منفردة مشهد الطائرتين (الدرامي للغاية) وسقوط الطائرة التي أصيبت في الثلج ، فضلا عن المقاطع التي أشرنا إليها سابقاً .

وتذكر هنا أيضاً اللقطة الثابتة الكبيرة ، لقطة دوار الشمس ، وذلك فوراً بعد طعنة السكين التي يكيلها الفلاح الخائن في ظهره .



برشلونة ، عام ١٩٣٨ ، تصوير المشهد الأول من فيلم سييرا دو تيروييل ونشاهد مالرو ، خلف آلة التصوير ، وإلى جانبه دوني ماريون وريغويرا .

إن فيلم « سيرا دو تيروييل » الذي كان من المفروض أن ينجز في آب لعام ١٩٣٩ قد منعته الرقابة حالاً ، ونجا بين أعوام ١٩٤٠ — ١٩٤٤ من أعمال التفتيش التي قام بها الألمان ، ولكنه لم يقيض له أن يعرض ، تحت عنوان يذكر بأكبر قدرٍ ممكن بعنوان الرواية ، إلا بعد التحرير(١) . كما أن المشهد الأخير الذي حكم عليه بأنه مفرط الطول ، قد اقتطع منه بضع مئاتٍ من الأمتار في النسخة التجارية . وهذا ما يبدل إيقاع الصور ، وتوافقها مع موسيقا داريوس ميلود ... وقلما شهد هذا العمل الفني نجاحاً شعبياً ، ولكنه استقبل بحماسٍ في نوادي السينما ، وحيّاهُ النقد الحديث باعتباره « الفيلم الأكثر أهمية » في السينما الفرنسية ، منذ فيلم : « قانون اللعبة(٢) » . وقد ظهر هذا العمل الفني مجدداً في وضح النهار عام ١٩٧٠ ؛ فأذهل الشباب بقوته البسيطة . إنه شاهد يدعو إلى الإعجاب .

* * *

(١) وأضيف إليه ، وهذا ما يبدو اليوم غريباً ، تقديم لموريس شومان للمساعدة . نجاح الفيلم ... فقد كان صوت مذيع فرنسا الحرة حينذاك ، إضافة إلى صوت دوغول ، هو الأكثر شعبية في فرنسا ، والجمهور ، الذي لم يكن لديه تلفزيون ، كان يريد أن يعرف وجهه .

(٢) قال روجيه لينهارت ، في مجلة « شعر ٤٥ » ان قانون اللعبة » هو أحد أجمل أفلام جان رينوار (١٩٣٩) ، أما فيلم : « أمل » ، فقد نال جائزة لويس دولوك .

٧
الصراع مع الملاك

إن « الصراع مع الملاك » ، مثله مثل « سيير ادو تيروييل » عمل فني مبتور ، وقد تبقى قسم واحدٌ فقط من أقسامه الثلاثة المقررة ، وهو : « أشجار جوز الألتا نبرغ » ، والذي توفرت إمكانية نشره في لوزان عام ١٩٤٣ – بعد أن أجرت الرقابة السويسرية بعض الاقتطاعات عليه .

أما تتمته التي لم تنجز فقد صادرها الغستابو وأتلفها(١) . فهل كان يمكن لمالرو أن يعيد تأليفه ؟ لقد قال : « قلّما يعيد المؤلف كتابة رواية معينة » ؛ فكيف نخلق الطفل نفسه مرتين ، ونعود من جديد إلى ما كنا عليه ، فنبعث الانفعال الأول ، ونجري الاختيار ذاته فيما بين الممكنات؟ وحسب معرفتي ، فقد كشف مالرو فقط عن أن القسم المفقود كان يحتوي مشهداً يدور على الدور الأساسي الذي يلعبه استعدادُ الإنسان ليتذكر أمراً ما بدلاً من أمرٍ آخر في تكوين شخصيته .

« إذا كان هناك أناس يمكن إنقاذ حالة التذكر الطافية التي تلون الحياة لديهم ، وكان هناك آخرون تشكل هذه الحالة تهديداً مستديماً لهم ،

(١) انظر ، الصفحة ٢٥ (الأصل الفرنسي) .

فان الاختلاف بين هذين النموذجين هو من أعمق الاختلافات التي تفرق بين البشر (١) » .

إنه مؤلف غير مكتمل إذن – ويمكن لمثل تلك السطور التي أوردناها أن تجعلنا نتخيل فقط الأشياء التي ضاعت و « التي كان يمكن أن تكون موجودة » – ومع ذلك ، « فأشجار جوز الألتا ببرغ » تشكل كلاً متكاملاً اعترف بقيمته الاستثنائية فوراً . ومنذ تشرين الأول لعام ١٩٤٣ ، أخذت مجلة الآداب الفرنسية السرية تنشر تحليلاً مفصلاً للرواية ، وهو في رأيي ، تحليل صحيح في لهجته ، وقد نشر هذا التحليل في نفس العدد الذي وردت فيه الرسالة الرائعة الأخيرة لمؤسس المجلة(٢) ، جاك دوكور الذي أعدم رمياً بالرصاص ، كما نشر فيه نص عن الفعالية ، مستوحى من رواية « الأمل » مباشرة :

« فليظهر كتاب يوضع فيه كل شيء من ذواتنا موضع تساؤل ، وتستنفد فيه كافة الوسائل ، إلى أن يلتمع أخيراً ، في أعماق النفي المأسوي ، السر الذي يمكن أن يجعلنا نؤسس حياتنا ، فنتعرف فجأة الصوت العظيم الذي يؤمن فعلنا واستمرارنا ، عبر القرون » .

وختم جان لوسكور (فقد عرف عند التحرير أن المقالة من إعداده) استحضاره للماضي بهتاف بيرجيه النموذجي ، في نهاية الكتاب ، وهو الهتاف الذي كان له ، كما نتكهن، صدىً شديد القوة ، في تلك المرحلة ،

---

(١) من كتاب : « مالرو من خلال نفسه » طبعة سوي ، الصفحة /٦٠/ : « إن البشر يختلفون في شكل ذكرياتهم ، كما يختلفون في شكل طباعهم » . (المذكرات المخالفة ، الصفحة : ١٥١) .

(٢) لم تكن هناك أية مقالة موقعة في الصحافة السرية ، بطبيعة الحال ، باستثناء مقالات الموتى ، أما المقالة التي تدور على فعالية المقاومة وانضباطها فقد كانت لكلود مورغان .

عند أناسٍ انغمسوا رغماً عنهم في النزاع الذي أدى إلى موت الملايين :
« فليظل النصر معقوداً لأولئك الذين يخوضون الحرب دون أن يحبوها ! (١)

لقد ظهر كتاب مالرو في ذلك الوقت تماماً ، كما لايزال يظهر اليوم ، وكأنه رواية « الوضع الإنساني » الجديدة (٢) .

مشاهد كبيرة مستقلّة
حول موضوع وحيد

يبدو تأليف الكتاب للنظرة الأولى تأليفاً غريباً ، ومتقطعاً ؛ فهناك إطار أوسع من إطار الثورة ، وهو إطار ما بين الحربين العالميتين ؛ فيقدَّمُ فيه جنود ألمان (في غمرة النضال المناهض للنازية) وهم ينقذون عام ١٩١٥ جنوداً روس مضروبين بالغازات السامة ، وهجوم خطير بالمصفحات في أيار من عام ١٩٤٠ ، ومعسكرات أسرى حزيران وتموز(٣) المثيرين للشفقة ، وتصويرٌ لم يعد يقتصر على عالم المحاربين وحدهم ، بل يتناول الجمهور ذاته ، وأناس هذا الجمهور ، وهو تصوير يتماشى مع النقاش الفكري العالي المستوى ، والعميق جداً ،

---

(١) أشجار جوز ، الصفحة : /٢٧١/ .

(٢) يرى النقاد الماركسيون غالباً في هذا الكتاب (أي أشجار جوز الألتا نبرغ) شاهداً على كسر عميق في تطور مالرو الإنسان والكاتب . فثمة تطور بالتأكيد ، غير أن الاستمرار لا يزال أكثر وضوحاً من التطور . وحتّى أن الكتاب لا يفتقر إلى التحية المباشرة الموجهة إلى الألوية الأممية ، ومع أن هذه التحية قد لطفتها سمات الشخصية التي تحملها : « وحين نعود من تلك الحرب ، وبراديه هو الذي يقول لكم ذلك ، لا حاجة البحث عن عمل » .

(٣) يجب ألا يكون القارىء فعلا قد عرف هذه المعسكرات لكي يقول إن مالرو يغالي في اللوحة هنا ، أو إنه يجعل شخصياته مبتذلة .

والمتهكّم جداً في آنٍ واحد ، والذي يجري في دير الألتا نبرغ ، كما يقدم فيه الانتحار الذي ينفذه بتصميم رجل عجوز صارم ، وقصةُ موجهٍ خفيّ في السياسة يكفّ فجأة عن الإيمان بالسياسة المضللة التي كان يخدمها ، تحت تأثير إذلالٍ يتعرض له ؛ والاستحضار الغريب ، والمؤثر على نحوٍ عميق ، لعبقرية نيتشه التي تنبثق من الجنون — إن هذه المشاهد الكبيرة المتباينة ظاهرياً تنتظم انتظاماً قوياً حول التأمّل المركزي ذاته ، والذي يجري تناوله من شتّى جوانبه :

« ما الذي يستحوذ علي ، ككاتب ، منذ عشرة أعوام ، إن لم يكن الإنسان ؟ ... إن والدي الذي لم يكن أكبر سناً بكثير حين بدأ هذا « السر الخفي ، سر الإنسان » يطرح نفسه عليه . وهذا السر هذا الذي يستحوذ عليّ اليوم ، ويجعلني أبدأ ربما بفهمه (١) » .

يصاب ابن فنسان بيرجيه بجراحٍ في رجليه ، ويقع أسيراً في شارتر . (فيوضع ، أول الأمر ، في الكاتدرائية التي ليس فيها نوافذ زجاجية ، والتي جرى فيها تكويم كافة الجرحى كيفما اتفق ، ثم في معسكرٍ بقرب المدينة) ، فيصوغ ، إذا أمكن القول ، « مذكرات » والده و « لقاءاتهمع الرجل » ، ثم يتبعها بمذكراته الشخصية ... إنهما شخصيتان ألزاسيتان كبيرتان ؛ فيعيش الأب في الفترة التي ترجع إلى ما قبلعام ١٩١٨ ، فهو ذو جنسيةٍ ألمانية إذاً ، والابن في عام ١٩٤٠ ، وهو كاتبٌ ومحاربٌ فرنسي . ولقد عرف مالرو كيف يستغل هنا التقييد الذي ألقى نفسه خاضعاً له في البداية ، وذلك ليحقق أكبر تأثيرٍ فاعلٍ لروايته ، ويتطلب هذا التقييد منه ألا يغير مكان المشهد العظيم ، مشهد

(١) أشجار جوز ، الصفحة : /٢٩/ .

الإخاء الألماني – الروسي ، بعد الهجوم بالغازات السّامة ، والذي وقع فعلاً على جبهة الفيستول بتاريخ ١٢ حزيران لعام ١٩١٥ ، وذلك ليحافظ على المصداقية التّامة لهذا المشهد(١) ؛ فجعل إذن من أسرة بيرجيه أسرةً ألزاسيةً (يمكن أن يلفظ الاسم بحد ذاته على الطريقة الألمانية أو الفرنسية ، ونقل إلى الألزاس ذكرياته الشخصية ، ذكريات طفولته الفلمندية ، والسّقائف التي يمر منها المهرجون ، بين جذوع أشجار السّرو الطويلة ، والتي تحلّ محل السقائف التي كانت تجف فيها الأشرعة ؛ فالغابة تحل محل البحر ، وتزوده حتّى بالرمز ، الذي هو عنوان الكتاب (٢) .

حوار الألتا نبرغ :

وكذلك الأمر فان حوارات الألتا نبرغ تحل محل محاورات بونتينيي(٣) وبقرب سانت أوديل ، وفي المكتبة الكبيرة لدير قد تحول لغرض آخر ، إنما يجعل مالرو مثقفيه يناقشون ، بحيوية شديدة(٤) ، ولكن في إطار « التجريد » ، السؤال الكبير الأساسي الذي ستجعلنا الرواية نعيشه ، وهو : « هل هناك معطى» معين يمكن أن يتأسس عليه مفهوم الإنسان (١) ؟

---

(١) ... إن مالرو ، مثله مثل كورنيي ، كان يحرص حرصاً شديداً على أن يستمد من التاريخ المواقف غير المألوفة التي يضع شخصياته فيها ، لكي تكون مواقف قابلة التصديق .

(٢) دير قديم في منطقة ال(يون) ، وقد جرت فيه ، قبل الحرب محاورات بين المثقفين حول أسئلة كبرى مختلفة ، أما اليوم فيشغله الرهبان من جديد .

(٣) يجري تناول المشهد للمرة الثانية بصورة جزئية في « المذكرات » المخالفة ، غير أنه من الأفضل قراءته في أشجار جوز الألتا نبرغ ، أو في : مشاهد مختارة ، فهو وارد فيها بصورة أغنى ، وأكثر حيوية .

(٤) أشجار جوز ، الصفحة : /١٥٠/ .

إن عالم السلالات مولبرغ يجيب على هذا السؤال فيما بعد بالنفي بصورة ٍ قاطعة ، ويقدم إثباتاته بناءً على أربعة أمثلة ٍ مثيرة للدهشة...(١) فالمعطيات النفسية لمختلف الحضارات لا تتواصل فيما بينها إطلاقاً ، إذا كان هناك تباعد زمني لبضعة قرون بين هذه الحضارات ، وتتلاشى البنى الذهنية دون رجعة ، مثلما انقرض البلصور والبنى الذهنية تعني بالضبط ما يكون الإنسان باعتباره إنساناً ؛ فما هو الشيء المشترك المتبقي ؟

« — ويخلص مولبرغ إلى القول : إن الشيء المشترك المتبقي هو الحيوان ، هو الحياة الأكثر حيوانيةً فقط ، وكلما قل اشتراك الناس في صنع حضاراتهم ، كلما أصبحوا أكثر تشابهاً فيما بينهم ، حسناً ! بيد أنهم بقدر ما يقل اشتراكهم في ذلك ، بقدر ما يزداد تلاشيهم ... ويمكن أن نتصور استمراراً معيناً للإنسان ، ولكنه استمرارٌ في العدم .

— أو في الأساسي ؟

إن بيرجيه هو الذي يطلق هذا الاعتراض ، ولكن بصيغة ٍ استفهامية ٍ

(١) لا يمكنني أن أورد هنا سوى أحد هذه الأمثلة : « ... إن هؤلاء السكان ، سكان « ميلانيزيا » لم يكتشفوا الصلة التي تربط بين العمل الجنسي والولادة — وهم ينفون ذلك نفياً قاطعاً ، حين يبين لهم المبشرون ذلك ، ويردون بأن « الدليل على أن هذا خطأ هو أن المرأة يمكن أن تكون لها علاقات جنسية دون أن يكون لديها أولاد » (وحين نفكر بالأمر ، فان ما يذهلنا ليس أن هذه الصلة قد بقيت لدى هذه الشعوب سراً مغلقاً ، بل أنها لم تبق زمناً أطول كذلك ، في أمكنة أخرى) .. ففكروا بعدد المؤسسات التي ترتكز على معرفة الأبوة ، وفكروا بما يمكن أن تكون عليه الأخلاق الجنسية التي تجهل هذه المعرفة ، وفكروا بالوضع الذي كان عليه المبشرون حين تعذر عليهم أن ينقلوا عقائدهم إلى بلد يرى الفكرة القائلة « إن الرب قد أعطى ابنه من أجل خلاص البشر » و « التجسد » هما أمران غير مفهومين (اشجار جوز ، الصفحة ١٢٤)

فحسب ؛ فهو لم يجرؤ على تأكيده ، ولا شك أنه قد ردد منذ قليل البداهات الأولى :

« نحن نعلم أننا لم نختر ولادتنا ، ولا نختار موتنا ، وأننا لم نختر أهلنا ، ولا نستطيع أن نفعل شيئاً حيال الزمن ، وأن بين كل واحد منا والحياة الكونية نوع من ... الصدع . وحين أقول إن كل إنسان يحس إحساساً قوياً بوجود المصير ، فأنا أقصد أنه يحس — وعلى نحو مأسوي شبه دائم ، وعلى الأقل في بعض اللحظات ، باستقلالية العالم عنه(١) » .

ولقد ردد بيرجيه أيضاً رد عمه فالتر ، ليعارض به موتبرغ ؛ فقال : إن الإنسان الذي ليس على مستوى الكون ، قادرٌ على أن يخلق لذاته ، ولأقرانه عالماً مقوماً ، ومؤنسناً ، على قدر حدوده :

« إن السر الأعظم ليس في أننا قد رمينا بالصدفة بين الكثرة الكاثرة للمادة ، وكثرة الكواكب ، وذلك لأننا في هذا السجن ، نستمد من أنفسنا صورة قوية إلى حد كافٍ بحيث ننفي عدمنا .. إن بعض الإنجازات تقاوم الدوار الذي ينشأ من تأمل موتانا ، وتأمل السماء المليئة بالنجوم ، وتأمل التاريخ(٢) ... » .

ولكن هذه الإجابات قلما ترضيه ؛ فهل يصمد أجمل عمل فني دائماً بجانب عيني ضرير ؟ وهل هو أقوى تأثيراً من وجه ميت ، إذا كان هذا الوجه هو وجه محبوب(٣) ... أين الإنسان الأساسي ؟ وتحت التماثيل الرائعة المصنوعه من خشب الجوز والتي تزين مكتبة الألتا نبرغ ،

(١) أشجار جوز ، الصفحة : /١٢٧/ .

(٢) أشجار جوز ، الصفحة :/٩٨/ .

(٣) كان هذا السؤال في مركز المناقشة التي دارت بين سكالي ، وألفيار المجوز ، « الأمل » الصفحة : ٣١٤

هل سيقال يوماً إنْ هناك « شجرة جوز أساسية » أو « أحطاب » ، كما يؤكد موابرغ (١) ... إن الإنسان ، لدى الجميع ، ليس أكثر من جسدٍ ، يأكل ويشرب وينام ويضاجع فقط ؛ فالإنسان ليسْ فقط لا شعوره ، وليس الأشياء التي يخفيها ، وليس كتلةً بائسةً من الأسرار مخصصةً لتغذية بعض الروائع الفنية(٢) . إن الإنسان أيضاً مرهون بما يعمل خصوصاً(٣) . ، فهناك ، قبل كل شيء ، أشجار الجوز الحية — « هذه الفوارات القوية البنيان ، والكثيرة العقد التي تجتث قوى الأرض لتبسطها إلى فروع » ، هذه القوة الغريبة التي تفرض في آن واحد فكرة إرادةٍ معينة ، وتحولاً لا نهاية له(١) . وبالنسبة للإنسان كذلك ، فهناك الحياة أولاً ، وإصراره على أن يبقى على طبعه — وبالنسبة للبعض ، أن يبقوا على ما هم عليه ، حتى في انتحارهم (٢) .

الانتفاض ضدّ اللاّإنساني :

إن فنسان بيرجيه الذي يساق إلى الخدمة العسكرية ، سيعرف تماماً عن كثب الحياة العادية للناس العاديين الذين هم جنس آخر فعلاً مختلف

(١) أشجار جوز ، الصفحة : /١٤٦/ .

(٢) أشجار جوز ، الصفحة /٩٠/ .

(٣) أشجار جوز الصفحة /٩٠/ ، يقول فنسان بيرجيه بفظاظة أن « الإنسان رهن بما يفعل » ، غير أن هذه الجملة واردة في أحد الحوارات ، وهي تأكيد غاضب ، وشديد البساطة يبقي فقط التشديد على شيء جوهري ، بمواجهة موقف ترفضه الشخصية ؛ أما مالرو فلا يأخذ الجملة بكاملها على عاتقه ، مثلما وردت ، زد على ذلك ، أنها موجودة لدى هيغل .

(٤) أشجار جوز ، الصفحة : ١٥١ و١٥٢ .

(٥) أشجار جوز ، الصفحة : ٣٦ وما يليها ، و٨٦ وما يليها .

عن جنس المثقفين(١) ، « وهم أولئك الذين يعيشون ليومهم ، منذ آلاف السنين » . فهل سيدع نفسه عرضة لخداع أسطورة الإنسان الغريزي ؟ كلا . فهو ليس من أولئك الذين يعجبون بالشعب أو يحتقرونه انطلاقاً من منهج معين . إنه يرى جيداً أن الغباء الشعبي يحاكي الحكمة الشعبية محاكاةً ساخرة بالصورة نفسها التي يحاكي بها الغباءُ الفكري الذكاء(٢) . إن واقعية الجنود الذين يريدون أن يخصوا المهزومين لكي لا تعود هناك حروب ليست من مستوى آخر غير مستوى الأستاذ هوفمان ، ذلك المخترع المخيف الوقح لوسيلة حرب مقيتة(٣) ، أو مستوى النقيب فورتز ، البطل العسكري الذي لا يتردد في استخدام طفل ، هو الطفل المفترض لجاسوسة مفترضة ، وليجعل منه أداةً متقنةً لخيانةٍ معينة ...(٤) .

إلاّ أن بيرانجيه يرصدُ ما هو جوهري — ولسوف يسيطر عليه « بعد » جنوده ، ولكن « مثل جنوده » اندفاعٌ لايمكن كبحه ، اندفاعٌ مليءٌ بالقلق ، والتمرد ، والإخاء ، أمام هؤلاء الروس الذين يختنقون تحت الغازات السامّة ؛ ولسوف يحمل بنفسه ، وهو الضابط الألماني أحد هؤلاء الروس على كتفيه ، مخالفاً بذلك الأوامر مخالفةً مطلقةً ، لكي يعيد هذا الروسي إلى المؤخرة ، وإلى سيارات الإسعاف ، وإلى الحياة إن أمكن .

---

(١) أشجار جوز ، الصفحات : /٢٧و١١١/ : « إن المثقف ليس ذاك الذي تعتبر الكتب ضرورية له ، بل كل إنسان ترتهن حياته ، وتنتظم بفكرة معينة ، مهما كانت فكرة بسيطة .

(٢) أشجار الجوز ، الصفحة : ١٩١ .

(٣) غاز سام جديد مميت ، أشجار الجوز ، الصفحات : ١٦٦ وما يليها .

(٤) أشجار الجوز ، الصفحات : ١٦٠ ، وما يليها . « لم يكن والديَّ يعلم أنه من الممكن بالنسبة إليه أن يتعذب من الخجل إلى تلك الدرجة .. والشيء الذي لم يقيض له أن يتساءل قط ، كان ذاك الوجه الباسم ، والذي اختير ليصير الوسيلة الكاملة للخيانة » .

نداء السّعادة :

ويصبح المشهد في نهايته بالغ الشدة بحيث يتجاوز ، هذه المرة ، ما أراده مالرو . فيحس فنسان بيرجيه فجأة بأنه ينبغي أن يعرض نفسه للغازات السّامة :

« كان ذلك غير ممكنٍ ؛ فقد تأخر الوقت ، ولم يكن يتألمُ إلا من ركبته ... ولكن ماذا أتى الإنسان ليفعل إذن على هذه الأرض ! يا للعبث السّاطع (١) وهرع نحو سيارات الإسعاف :

« قفزاً ، فأحس في كل خطوةٍ يخطوها بطعنة شيءٍ كالمذراة في ثنية فخذه ، وبهذا الطعم المحرق الذي يصل إلى داخل الأنف والحنجرة ، واغتاظ لأنّه رأى ركضه يكبح عند كل هبوطٍ ، فسيطرت عليه فكرةٌ بدهيةٌ ومضت في خاطره بسرعة ، حاسمةٌ مثل هذا الصفير المستمر في حنجرته ، وهي : أن معنى الحياة هو السعادة ، أما هو ، فكان قد اهتمّ ، ويا له من أبله ! بشيءٍ آخر غير أن يكون سعيداً ! إن الوساوس ، والكرامة ، والرأفة ، والتفكير لم تكن سوى خداع فظيعٍ ، وأنخاخٍ نصبتها لخداعه قوة غاشمة كان لابد لضحكاتها المهينة أن تسمع حتى اللحظة الأخيرة . ومن خلال ذلك الانحدار المخيف ، تحت قبضة الموت ، لم يبق سوى تلك الكراهية الجائرة لكل ما كان قد منعه من أن يكون سعيداً . وبدا له أنه يلمح سيارة الإسعاف ؛ فحاول أن يركض بسرعةٍ أكبر أيضاً ؛ ولكن رجليه دارتا في الفراغ ، فترنح الكون دفعةً واحدة ، وقفزت الغابة في سماء غلت في الوقت نفسه تحت قدميه (٢) . »

(١) أشجار الجوز ، الصفحة : /٢٤٥/ .
(٢) أشجار الجوز ، الصفحة : /٢٤٤/ .



العقيد بيرجيه ، بعد بضع ساعات من استعادة سانت أوديل من القطعات النازية ؛ وعلى يد لواء الألزاس – اللورين (نهاية عام ١٩٤٤) وكان رفاق مالرو لا يزالون يسمونه ، في تلك الفترة ، باسمه السري المستمد من أشجار جوز الألتا نبرغ ، وهو : « بيرجيه » .

« إن نداء السعادة ، كما يقول مالرو ، هو مجرد رد فعل نفسي هنا(٢) » ، ولكن أي قارىء لا يتوصل إلى تصديق ذلك ؛ فبعد خمسة وعشرين عاماً ، أو في أيار لعام ١٩٤٠ ، يختبر ابن فنسان بيرجيه ، الذي نجا لتوه من الموت الكارثي الذي تتعرض له طواقم المدرعات (أي القصف المباشر الذي تقوم به المدفعية المصوبة مسبقاً على الحفرة التي تسقط فيها المصفحة) ، يختبر نفس الكشف الذي يعجز عنه الوصف ، كشف الحياة ، وكشف تمسك الناس بالحياة ، وهذا هو معطى أساسي من معطيات الوضع الإنساني :

« ويعود باسكال مرةً أخرى إلى ذاكرتي : « فلنتصور عدداً كبيراً من الناس مكبلين بالأغلال ، وجميعهم محكومون بالموت ؛ وفي كل يوم ، يذبح بعضهم على مرأى من الآخرين ، أما الباقون فيرون وضعهم من خلال وضع أقرانهم .. هذه هي صورة وضع البشر » ؛ فالى أي مدى يمكن لتأمل كهذا أن يجعل البشر يتشبثون بنصيبهم البائس من السعادة (٢) ؟ » .

أجل ، إن هذا التأمل مرضي ، فحين يحتك الإنسان بالعدم ، يتكشف له ، على العكس ، انبثاق الكائنات الحية المعجز . إن ابن فنسان بيرجيه لا يسعه هذا الصباح ، مثله مثل مالرو عند كل رجوع له إلى

---

(١) « إن نداء السعادة الذي يقلب كيان فنسان بيرجيه حين يلاحظ أنه قد تعرض للغاز السام، قد اعتبره بعض النقاد،عندما نشر الكتاب في سويسرا،جواباً على الأسئلة التي طرحت في القسم الأول ، أما نداء السعادة هنا فهو مجرد رد فعل نفسي » (ملاحظة تمهيدية لمالرو في طبعة غاليمار) .

(٢) أشجار الجوز ، الصفحة /٢٨٩/ .

العالم ، إلا أن يحس بالإعجاب أمام حضور الواقع(١) الرائع ، وأمام النباتات ، ،الحيوانات ، وأمام أصغر ارتعاشة من ارتعاشات الوجود — بالدهشة نفسها التي يبديها كما لو كان يكتشفها للمرة الأولى . .

« أحس أنني أمام هبة عصية على التفسير — أمام تجلٍ ما .

فكل هذا كان يمكن ألا يكون موجوداً ، ألا يكون موجوداً بهذه الصورة ، فكم تنسجم هذه الأشكال الفريدة وكلها مع الأرض ! إن الكون ممتلىء ومكتنف بالأسرار مثل جسد فتي ... لقد انكشفت الحياة لي هذا الصباح للمرة الأولى ، قويةً كالظلمات ، وقويةً كالموت..

أيتها الحياة ، الموغلة في القدم ! والشديدة العناد(٢) . » .

إن المرأة العجوز الموجودة هناك ، « والمتكئة على الكون مثل حجر » ؛ مهما تهمس برقة للجنود : « أما أنتم ، فشبان ، وحين يصبح المرء عجوزاً ، لا يعود لديه شيء سوى التلف » ؛ فتلك المرأة العجوز تبتسم مع ذلك ابتسامةً بطيئةً ، تأتي متأخرةً ، وعن قصد منها ؛ « فوراء ملعب كرة القدم ، ومرميبه الوحيدين ، ووراء بريجات المصفحات التي تلتمع بالندى ، مثلما تلتمع شجيرات الدغل التي تموهها ، يبدو وكأنها تنظر بعيداً إلى الموت بتسامح ، وحتى بتهكم(٣) — فيا لهذا الغمز الخفي ، والظل الحاد الذي يرتسم على حدود جفونها — إن سر العالم بأكمله يتعمق في السر الذي يطفو على شفتيها التالفتين ، وفي ذلك

(١) الواقع ، وليس « الظاهر ». انظر الصفحات : ١٤٣ وما يليها (في الأصل الفرنسي) .

(٢) الصفحات الأخيرة من « أشجار الجوز » ..

(٣) الصفحة الأخيرة من « اشجار الجوز » .

السر ، سر الإنسان الذي سيحمله ابن فنسان بيرجيه معه من الآن وصاعداً ، والذي جعلنا مالرو نكتشفه من جديد .

... إن كلمة « سر خفي » ليست جواباً ، هذا صحيح ؛ فما من مشكلة من المشكلات المطروحة في هذا الكتاب قد حلت ؛ لا مشكلة تعريف معين للإنسان ، ولا مشكلة الحرب ، ولا مشكلة الهدف والوسائل ، ولا مشكلة سلبية البشر وإرادتهم ، وحتى المشهد العظيم ؛ مشهد الغازات السامة فهو ينتهي بالهزيمة : إن سد الرأفة في وجه الحرب لن يكون فعالاً لبضع مرات ؛ كما يوضح الكاتب لنا بدقة (١) . وإذن ؟ ... هل كان يمكن لتتمة الرواية أن تقول لنا أكثر مما قالت ؟ — هذا احتمالٌ بعيد . إن صراع الإنسان مع الملاك (٢) ، مثله مثل الرواية التي تحمل اسمه ، لن ينتهي أبداً وإلا لكان ذلك هو نفي الحياة ذاته . إن التأكيد الأقوى في هذا الكتاب ، والذي هو غني جداً به يبقى بلا شك هو تأكيد ديتريش بيرجيه العجوز ، مع أنه مسكونٌ بالرغبة في الموت ؛ :

(١) لكي يقول لنا مالرو ذلك ؛ فهو يقسو حتى مشابهة الحقيقة ؛ فالموجة الثانية من الجنود الألمان ترتدي أقنعة واقية : فندرك أنها لن تبدي ردود الأفعال الطبيعية نفسها ، والتي أبدتها بشدة الموجة الأولى ...

إننا نتساءل حقاً عن السبب الذي لم تعط القيادة من أجله أقنعة واقية للموجة الأولى التي تعرضت للغازات السامة بدرجة ، أكبر بكثير . (والصحيح أن المنطق لا يراعى دوماً في الحرب ، وهيهات أن يراعى) .

(٢) إشارة إلى معركة أيوب الشهيرة في الظلمات ، ضد الكائن المجهول (سفر التكوين ، الفصل : ٣٢)

« حسناً ! مهما يحدث في الواقع ، ولو كان يتحتّم علي أن أعيش من جديد حياةً ثانية ، فلن أرغب في أن أعيش حياةً أخرى حياة ديتريش بيرجيه(١) » .

إن هذه الجملة ، على أية حال ، هي الجملة التي تحرك شعور ابنه ، وحفيده ، وهي التي تبدو لهما أكثر الجمل هدايةً . فاذا استطاع الإنسان أن يقول ذلك في لحظاته الأخيرة ، فهو لن يكون خاسراً .

* * *

(١) أشجار الجوز ، الصفحة : ٨٧ .

«٨»

حوارات حول الروائع

كتابات مالرو في الفن

« حين كان فنان العصر الوسيط ينحت تمثالاً للمسيح المصلوب ، وحين كان نحّات مصري ينحت وجوه البدائل الجنائزية ؛ فقد كانا يبدعان أشياء محسوسةً يمكننا أن نسميها أصناماً ، أو وجوهاً مقدّسة ، ولم يكونا يفكران بابداع آثار فنية ، ولم يكن بوسعهما حتّى أن يتصورا أن تلك الآثار يمكن أن يكون لها وجود ؛ فتمثال المسيح المصلوب كان موجوداً من أجل المسيح ، والبدائل من أجل الميت . أما فكرةُ إمكان جمعهما معاً ذات يوم في متحف واحد لتقدير حجمهما ، أو للنظر في منحنياتهما ، فلم يكن بامكانهما تصورها إلا باعتبارها تدنيساً للقدسيات ...

إن كل أثر فني يتم إبداعه ليرضي حاجةً معينة ؛ إلا أنها حاجةٌ تستهوي النفس إلى حد كاف بحيث تولد هذا الأثر الفني ، ثم أن الحاجة تنسحب كما ينسحب الدم من الجسد ، ويبدأ العمل الفني في تحويل صورته تحويلاً خفياً . إنه يدخل إلى دائرة الظلال ، ولن تخرجه منها غير حاجتنا الخاصة بنا ، وشغفنا الخاص بنا وحدهما . وحتّى ذلك الحين ، يبقى العمل الفنّي مثل تمثال كبير ذي عينين كفيفتين ، ويمر أمامه موكب طويل ، موكب المكفوفين . والضرورة ذاتها التي توجّه

نحو التمثال أحد المكفوفين ستتفتح لكليهما(١) عينيه في الوقت ذاته(٢)....

إن أثراً فنياً معيناً هو شيءٌ محسوسٌ ، غير أنه أيضاً لقاءٌ مع التاريخ. وكل عمل فني يصبح ميتاً إذا انسحب منه الحب (ولا يعيش ثانية إلا بالحب) .

ليست هذه الجمل مقتطفة من « أصوات الصمت » ، أو من « تحول الآلهة » فقد ألقاها مالرو في جمعية التضامن ، في حزيران ١٩٣٥ ، وذلك في المؤتمر الدولي لجمعية الكتّاب من أجل الدفاع عن الثقافة ، أي في أوج الفترة التي اتفق على تسميتها بـ « مرحلته الشيوعية » .

إن الجوهري في تلك الموضوعات الكبيرة التي تدور على الفن واردٌ في نصوص تلك المرحلة — وليس في النصوص السرية ، بل في الخطابات العلنية التي نشرت في الحال ، في مجلة « كومون(٣) » ، فاذا كان مالرو قد تغير ، فهو لم يتغير من هذه الناحية .

كان ماركس أول من قدم الاعتراض التالي على نفسه ، وهو اعتراض يغفله العديد من تلاميذه : كيف يحدث أن تؤثر فينا دوماً تأثيراً بالغ العمق ، بعضُ الآثار الفنية (كالأعمال الأدبية ، أو الفنية) والتي ظهرت في مجتمعاتٍ مختلفة اختلافاً مطلقاً عن مجتمعنا ، ولا يمكن

(١) أي الكفيف والتمثال معاً (م:ز.ع) .

(٢) كان كلود فانيك قد قال في « الطريق الملكية » « إن ما يثير اهتمامي هو تحول الآثار الفنية التي يصنعها موت الناس .. فالمتاحف ، بالنسبة لي ، هي الأماكن التي تنام فيها أعمال الماضي الفنية ، وقد غدت أساطير — وهي تحيا حياة تاريخية — بانتظار أن يعيدها الفنانون إلى وجود واقعي ، ولئن أثرت بي تأثيراً مباشراً ، فذلك لأن الفنان يمتلك تلك القدرة ، قدرة بعثها » الصفحة : ٤٢ .

(٣) أعيد نشر النص الوارد أعلاه في العدد : ٢٣ من مجلة كومون (تموز ١٩٣٥) .

حتى إجراء مقارنة بين ظروفها الاقتصادية والاجتماعية وعلاقاتها الطبقية ؛ ففي مقبرة الحضارات الميتة ، لاتزال الروائع الفنية باقية ، فلماذا ؟ ومن أين يأتي هذا الاستمرار ، إن لم يكن من استمرار جزء ما من الإنسان ، ومن الحاجات الإنسانية الكبرى ؟

وفي لندن ، وباريس ، وحتى في موسكو (التي يستثير مالرو فيها « مختلف الحركات ») ، ينبذ مالرو موضوعة الاشتراط الاجتماعي للفنان(١) بين أعوام ١٩٣٤ — ١٩٣٦ ، كما ينبذها الآن تماماً ، ويرفض رفضاً صريحاً سياسة « الفن الموجه ، أو الخاضع للجماهير » .

« يخضع الفن لمنطقه الخاص الذي يصبح غير متوقع أكثر بقدر ما يصبح اكتشاف هذا المنطق وظيفة من وظائف العبقرية(٢) » .

وحتى قبل ذلك الوقت ، يستخدم مالرو ، وقد جرفه اندفاعه ، بعض التعابير المبالغ فيها ، والتي ستؤخذ عليه فيما بعد ، وستؤخذ عليه بحق . :

« إن الفن يعيش بوظيفته التي هي أن يتيح للناس الإفلات من

---

(١) لا يعبر الفن الحديث عن المجتمع البورجوازي ، ويمكن أن نقول أكثر من ذلك إنه ينتج جزئياً عن إحدى الرغبات غير المحققة التي يستشعرها الإنسان بقوة أكبر في المجتمع البورجوازي ، ولسوف يقول مالرو فيما بعد : « باللغة الماركسية ، يتعين علينا أن نقول إن سيزان تعبير عن الرأسمالية مثل لينين ! وكما كان لينين ، بفضل البروليتاريا الروسية ، يستخرج من الرأسمالية المحطمة صورة مجتمع جديد ؛ فان سيزان كان يستمد من تلميذ النزعة الأكاديمية ليس الفن الحديث فحسب ، بل (انبعاث الأشكال الفنية التي ترجع إلى خمسة آلاف عام) خطاب بتاريخ ٣١ أيار ، ١٩٥٢ ، في المؤتمر المكرس لحرية الثقافة) .

(٢) خطاب بتاريخ ٢١ حزيران : ١٩٣٦ .

وضعهم كبشر ، وليس عن طريق الهروب ، بل عن طريق الامتلاك ؛ فكل فنٍ هو وسيلة لامتلاك المصير (١) » .

الامتلاك وليس الهروب ، لاشك في ذلك ، ولكن ماذا تعني بالضبط كلمة الإفلات ؟ من الصعب ألا نعترض فوراً بقولنا إنه حتى الروائع الفنية التي لاجدال عليها ، وتلك التي صمد حضورها الهادىء أو الصاخب لكل تبدلات التاريخ ، لا تجعلنا على الإطلاق « نفلت» من وضعنا الإنساني ؛ فنحن نواصل الموت ، ونرى الآخرين يموتون ، حتى وإن أبدعنا أعمالاً فنية تستمر عبر القرون ، وقد أشار مالرو إلى ذلك مرات عديدة .

مالرو يكرّس نفسه للفن :

إن الجديد في سنوات ما بعد الحرب ، في هذا المجال ، هو أن مالرو ، بعد أن رجع ديغول إلى كولومبي ، وغرق « تجمع الشعب الفرنسي » (٢) في الركود ، قد سرح نفسه من السياسة ، إن صح القول . ومنها ، فقد تخلى بالفعل عن الإبداع الروائي . . وبما أنه كان يزدري الجمهورية الرابعة بقدر ما كان يزدري الجمهورية الثالثة على الأقل ، وأصبح بلا أملٍ ثوري ، فقد كرس نفسه للفن هذه المرة ، منصرفاً عما عداه .

كان قد بدأ كتابة « سيكولوجيا الفن » ، وكانت مقتطفات منه قد نشرت اعتباراً من ١٩٣٧ ، وأتلفت بمقتطفات أخرى منه على يد الألمان في الوقت ذاته الذي أتلفت فيه الجزء الثاني من « الصراع مع

(١) خطاب بتاريخ ٢١ حزيران : ١٩٣٦ .

(٢) هذا التجمع هو الحركة التي كان ديغول يقودها . (المترجم : ز.ع) .

الملاك » ولسوف يشرع منذ ذلك الحين في إنجاز نشره ، فينشر بلا انقطاع : « المتحف الخيالي » ، (١٩٤٧) و« الإبداع الفني » ، (١٩٤٨) و«عملة المطلق » (١٩٤٩) و« زحل » (١٩٥٠)... ولا يتوقف بعد ذلك ... مع أن مشروع مسرحية عنوانها « أنتيغون » يراوده ، وفي هذه المسرحية ، ينوي ألا يقيم تعارضاً بين الفتاة وكريون الذي يمثل القوة ، بل بينها والكسندر الذي يمثل الحلم : فمع روائع الفنون التشكيلية ، إنما يختار مالرو أن يتابع حياته . « ويفضي بسر اروجيه ستيفان قائلاً : إنني في الفن كما في الدين ... فأنا أحب الموسيقى كما أحب الأدب ، إلا أن الشيء الذي أعرفه فعلاً بصورة جيدة هو الفن ، هو التصوير والنحت . أما في الأدب ، فأنا محدد باللغات ، ولكن ما من أثر فني لا أعرفه(١) » . « ومن جهة أخرى ، فلماذا نميز ميدان الفنون عن غيره من الميادين ؟ »

« لا تبدو لي إرادة الإبداع الفني متعارضة مع إرادة تغيير العالم أكثر مما هي متعارضة مع الفكر العلمي ، مثلاً ... فحين أحاول التعبير عما كشفته لي الثورة الإسبانية ، أكتب « الأمل » ، وحين أحاول التعبير عما كشف لي الفن وتحولاته الحالية أكتب « أصوات الصمت » ، هذا كل ما في الأمر (٢) ... » .

ولا يكف فعلياً عن مراجعة نصوصه ، وقلب مخططها ، وإعادة صياغة تحليلاته(٣) . فتصدر « أصوات الصمت » عام ١٩٥١ ، أما

---

(١) ليس هذا تفاخراً ؛ فمعرفة مالرو في هذا الميدان مثيرة للدهشة .

(٢) روجيه استيفان ، في كتابه : « نهاية فترة الشباب » الصفحات : ٥٨و٦٢ ، في مجلة الأخبار الأدبية : حديث مع مالرو بتاريخ ١٩٥٢/٤/٣ .

(٣) فلنحاول أن نقارن مثلا : « المتحف الخيالي » كما صدر عام ١٩٤٧ ، في كتاب سيكولوجيا الفن ، وعام ١٩٥١ ، في « أصوات الصمت» ، وما أصبح عليه الكتاب عام ١٩٦٣ ، في مجموعة الجيب : « أفكار وفنون » .

الأجزاء الثلاثة الأولى من « المتحف الخيالي للنحت العالمي » فتنشر من عام ١٩٥١ حتى ١٩٥٤(١) ، وتحول الآلهة » عام ١٩٥٧ .... ومع زوال الجمهورية الرابعة في عام ١٩٥٨ ، يستأنف مالرو العمل السياسي ، ولكن دون أن يتخلى عن الروائع ، ويصبح وزيراً للثقافة .

المتحف الخيالي
وتحولات الروائع

« المتحف الخيالي » هو الكتاب المقدس الجديد ، وهو الأكثر غنى بلا حدود من أي متحفٍ واقعي ، والذي يجمع كافة الروائع العظيمة ، روائع الفن العالمي ، ويجابه بعضها بالبعض الآخر ، وبما أن التقنية تعتبر ، بالنسبة للفنون التشكيلية(٢) ، ثورةً على نفس الدرجة من الأهمية التي للمطبعة ، بالنسبة للمؤلفات الأدبية ؛ فهي تتيح لنا اليوم أن ننسخ بالأسود والأبيض ، وحتى بالألوان ، وعلى نحوٍ متزايد الدقة ، كافة رسومات ومنحوتات العالم عملياً ، باستثناء ماله منها أبعادٌ كبيرة جداً ، وتبدأ السينما حتى بأن ترد إلينا فن العمارة ، والانفعال الذي نحس به داخل كاتدرائيةٍ مثلاً ، وفيما كان شاعرٌ كبودلير ، أو رسّام كدولاكروا ، منذ مئة عام ، لا يعرفان حينذاك غير عددٍ من الأعمال الفنية طفيفٍ نسبياً ، فقد كشف القرن العشرون للجمهور المثقف بأكمله ليس فقط أعداداً كبيرة من الأعمال الفنية غير المعروفة ، وإنما القيمة التي لا ريب فيها لأعمالٍ أخرى كانت موجودةً تحت

---

(١) علينا ألا نخلط هذا الكتاب : « المتحف الخيالي النحت العالمي » بذلك الجزء الذي صدر في : « أصوات الصمت » ، وفي « سيكولوجيا الفن » والذي يحمل عنوان : « المتحف الخيالي » وقد نشر بصورة منفصلة في مجموعة : « أفكار وفنون » .

(٢) لقد ابتكرت الفنون التشكيلية مطبعتها (أصوات الصمت ، الصفحة : ١٤) .

أبصارنا . ولم نكن نحسن رؤيتها . إن فنون الماضي قد جعلتنا نتعرف أيضاً ماضي فنّنا ، وللمرة الأولى ، يمكن أن ننظر إلى روائع أبدعها البشر في كل العصور ، وهي موضوعة جنباً لجنب ، وأن تأسرنا هذه الروائع فنتأمل بما لاتزال تقوله لنا ، وللمرة الأولى ، يمكن لجيل بشري أن يرث بإعجاب ميراث ثقافة العالم. إنه ميراث غريب ، فيصيبه أو يبتره الزمن تكبره أو تضيقه النسخ التي نأخذها عنه، وينتزع من الطبيعة، أو من الأبدة التاريخية ، ويقتلع من أرضه ، ويكون أحياناً غير أمين من حيث الدقة نفسها ، والتي تعزل أو تضخم تفصيلاً معيناً كانت له مثلاً قيمة أخرى من خلال الكل ... إن مالرو يلح شخصياً ، وعلى نحو مسهب جداً ، جداً ، على هذه « التحولات(١) » كافة ، والتي ليس التحول الناشىء عن أذواقنا الحالية ، وحاجاتنا اليومية أقلها شأناً ، فيقول(٢) : « إننا لا نعثر فيها إلا على ما نفهمه وعلى ما نجد له تسمية معينة » ؛ فمن المسلّم به أن الماضي لا يبعث كما هو . إن الذي يبعث بالنسبة إلينا هو : « ذلك الجزء من الماضي الذي صار حاضراً (والذي صار أحياناً مثالاً يحتذى ، أو ذا دلالة معينة) ، بسبب التحول الذي لا يمكن فصله عن الحاضر(٣) .

إلا أن سؤالاً يطرح نفسه منذ ذلك الحين بقدر أكبر من القوة :

« إن التماثيل السومرية تتحدث إلينا ، مع أن الصدى الذي التقطه الكون في نفس كاهن سومري قد تلاشى بلا رجعة ، ومع أن أية دراسة تتعرض للأديان في سومر وفي مصر لا تتحدث إلينا .

(١) لقد أخذ البعض عليه كثيراً هذه التحولات ، غير أنه أشار بذاته أفضل بكثير مما أشار إليها نقاده ، ومن الواضح أنها لا ترتبط به ، وربما يؤدي أخذها بالحسبان إلى السخف ؛ فهل ينبغي إلغاء كتب الفن الكبيرة بحجة أنها لا تقدم ابتسامة ريمس في كاتدرائيتها ، أو أفروديت تحت سماء اليونان ؟ إن المتحف الخيالي يعتبر فتحاً في مجاله .

(٢) أصوات الصمت ، الصفحات : / ٦٤ و ٦٦/ .

(٣) مالرو من خلال نفسه (سوي) ، صفحة : ١٠٨ .

فما هو إذن هذا الميدان – الذي يبدو متعالياً على التاريخ(١) ، وغير منتمٍ إلى الخلود – والذي يجد فيه التعبير النوعي عن أقدم جهدٍ الصدى الأخوي بصورةٍ يصعب تفسيرها(٢) » . لابد لنا ، بطبيعة الحال أن نشير إلى هذه الكلمة الأخيرة ، كلمة « أخوي » ؛ فمالرو يجد في الفن ، كما يجد في نضالات الثورة ، أو التحرير ، التضامن الإنساني المؤثر الذي يمتد هذه المرة على تاريخ العالم بأكمله . بيد أن المسألة المطروحة هي الأمر الجوهري هنا ، وهي تستحوذ على مالرو . فيطرحها علينا بكافة الأشكال الممكنة ، مقارناً باستمرار عملاً فنياً بعملٍ فني آخر ، وبأعداد كبيرة من الأعمال الفنية الأخرى التي تستدعيها إلى ذهنه ذاكرةٌ بصرية خارقةٌ ... فيحيي عدداً كبيراً من هذه الأعمال الفنية ثانية ، بتقديم نسخ مصورةٍ منها ، وبالكتابة عنها ، ولكن دون إطالة – ثم يعاود الانطلاق حالاً لاكتشاف جديدٍ ، وبكل ما أوتي من اندفاعٍ ، سواء تابعه القارىء أم لم يتابعه . ويقول في نفسه(٣) : إن الأعمال الفنية « أشياء محسوسة » مع ذلك ، وليست « أساطير » ، وينبغي أن نتمكن من الحكم عليها بموضوعية ، دون أن نتيه في التأملات ، وأن نتمتع بالحصافة التي لا غنى عنها ، حصافة العالم ، « فهل يمكن

---

(١) مهما يكن عصر من العصور بغيضاً ؛ فان إبداعه الفني لا ينقل منه أبداً سوى الموسيقى ، والمتحف الخيالي هو نشيد التاريخ ، وليس توضيحاً له » . ومهما يكن الفن مرتبطاً بالحضارة التي نشأ فيها ، فهو يتجاوزها غالباً – ولربما يتعالى عليها – كما لو أنه يستدعي قوى تجهلها هذه الحضارة ، ويستدعي شمولية الإنسان التي يمكنها إدراكها . (أصوات الصمت ، الصفحة ٦٢٢) .

(٢) المتحف الخيالي للنحت العالمي ، الجزء الأول ، الصفحة : ٥٨ ، والجزء الثاني ، الصفحة : ٦٦ .

(٣) مالرو من خلال نفسه ، (سوي) الصفحة : ١١٢ .

للنزعة الإنسانية الشاملة أن تكون معقولة ؟ نعم أم لا ؟ (ومن غير جواب توفيقي) (١) .

إن الجواب صعبٌ ، كما سنرى .

فنون المقدس :

يمكننا أن نقول ، توخياً للتبسيط ، إن مالرو يميز بين شكلين كبيرين من أشكال الفن .

١ ــ فنونُ المقدس : وهي فنون العبادات الصوفية الكبرى ، والأديان المنزلة ، أي «التبجة» ، فنون تاريخ العالم بأكمله تقريباً ــ وهي الفنون التي حاولت أن تعبر عن ذعر الإنسان أمام الكون ، وأن تهدىء ، ما أمكنها ذلك ، من خوفه من العذاب ، والموت ، والمجهول : إنها فنون الخلود والأبد ، والسر الخفي ، والتقرب من الآلهة ، ومن الإله .

٢ ــ فنون ارتياد المجال الإنساني : وهي فنون أقل عدداً ، ولكن الغرب يعرفها أفضل من غيرها بكثير ، وهذه الفنون هي التي لا تهدف لشيءٍ آخر غير تصوير الإنسان والطبيعة على أتم وجهٍ ممكن ــ وهي الفنون التقليدية والإنسانية الكبرى ، والتي أعطانا بودلير عنها ، ومن دون إرادةٍ منه ، العبارة التي لا تنسى :

« كل ما فيها ليس سوى نظامٍ وجمالٍ ، وترفٍ ، وهدوءٍ ، ولذة(٢) » . إن مالرو ، بالطبع ، على درجةٍ عالية من الاطلاع بحيث

---

(١) التوفيقية أو التأليفية « Symcretisme » ، وهي التأليف المتماسك تقريباً بين مختلف المفاهيم الكبرى .

(٢) بودلير : الدعوة إلى السفر . .

لايمكن إلا أن يرى أن هذين الشكلين الكبيرين للفن قد امتزج كل منهما بالآخر ، في أغلب الأحيان ، وأن الفن القوطي مثلاً ، والفن الروماني ذاته(١) قد « قدسا الإنساني » ، في العديد جداً من آثارهما الفنية ، إذ صح التعبير ، أو أنهما قد « أضفيا صفةً إنسانيةً » على المقدس. إن التعابير هنا قابلةٌ إلى حدٍ ما للتبادل فيما بينها ، وهذا ما يدل دلالةً كافيةً إلى أي حدٍ يمكن لكل إنسانٍ أن يستمد من الروائع الفنية ما يروي ظمأه ! .. ولكن لا سبيل إلى إنكار أن تعبيري « المقدس » و« الإنساني » ، في نهاية المطاف ، يشكلان تفريقاً جيداً بين الاتجاهين الأساسيين ؛ وأن كل فنانٍ يختارُ منهما ، من أجل نفسه بالضرورة ، أحد هذين الاتجاهين ، من غير أن يزدري الاتجاه الآخر ، بطبيعة الحال ، فيستمد منه كل ما يمكنه أن يعطيه إياه .

فأي الاتجاهين سيختار مالرو ، ذو النزعة اللاأدرية ، والذي أراد بوضوحٍ شديد أن يجعل من حياته حياةً واضحة الرؤية ، وأن يؤمن الكرامة الإنسانية أو يسعى للظفر بها ؟

فنون ارتياد المجال الإنساني :

إن مالرو يمجد الفن والحضارة الإغريقيتين تمجيداً رائعاً فيقول :

« ما من كتاب منزل قد وضع يوماً قانونهما ؛ فالمعابد لا تنشر التعاليم الدينية ، وليس في اليونان طبقة كهنوتية . أما المسيحيون فسرعان ما ميروا الوثنيين الذين ليس لديهم رجال دين ، ولا فئة حاكمة (ثيوقراطية) ، ولا خالق ، ولا ديّان ، ولا أبدية ... عن غير المؤمنين الآخرين .

---

(١) نسبة إلى روما القديمة (م: ز.ع) .

إن الذي يظهر حينذاك للمرة الأولى — وليس للمرة الأخيرة — هو العالم الذي يجرؤ الإنسان فيه على أن يستمد قيمه العليا مما تدعوه إليه أحلامه ، ويطلب من نفسه ، ما يمكنه أن يفعله لينسجم مع هذه الأحلام ، وليس ما يجب أن يكون عليه لينسجم مع الأبدي (١) » .

« إذا نظرنا إلى اليونان من آسيا ، نراها بسطاً طائراً من الأشرعة . ونحن ندين لها بالرقص — أي ما نسميه الرقص ، وليس الباليه الطقسي ... ؟ وندين لها بعظمة سوفوكل المؤثرة : « لا أظن أن الناس سيبقون أحياء بعد أن قتلوا الفرح » . « لم تبتكر اليونان الفرح ، ولا الشباب ، ولكنها ابتكرت مجد الروح والشباب » . لقد ابتكرت الحركة والابتسامة في الفن ، وهي أول من غنّت المرأة حقاً — المرأة ، وليست المعبودة الجنسية ، أو رمز الخصب ، بل رفيقة الرجل الرقيقة والذكية . « إن المدينة الأولى التي سينادى بها بعد قليل عاصمةً للفكر ستجد نفسها في نقيشة أثينا المفكرة (٢) المتكئة على رمحها(٣) » .

« لقد فقد السر الخفي في اليونان الصوت الحاسم الذي يمتلكه المستغلق على الإدراك في الحضارات التي يهيمن عليها(٤) » . « فالسّامي يخلف المقدس ، والعجيب يخلف ما فوق الطبيعة ، والإعجاب يخلف العبادة ، والمأساة تخلف المصير ذاته ؛ فالمأساةُ قصيدةٌ منتزعةٌ من المصير الحتمي » ، فنحن بعيدون هنا عن الوضوح الإغريقي ؟

---

(١) تحولات الآلهة ، الصفحات : /٥٠و٥٩/ ، ولقد تناول مالرو هذه الأفكار ثانية في خطاب عن الأكروبول ، في أيار ، ١٩٥٩ .

(٢) أثينا المفكرة : نقيشة بارزة لربة الفكر ، والفنون والعلوم والصناعة الإغريقية (م:ز.ع) .

(٣) تحول الآلهة ؛ الصفحات : من / ٥٠ إلى ٥٩ /

(٤) تحول الآلهة ؛ الصفحة : /٨٠/ .

ويجرؤ أوريبيد على أن يقول ، وهذا حدثٌ أساسي : « لا أحب الآلهة التي تعبد في الليل » . وكلمة « GOSMOS » (كوسموس) تعني ، بالنسبة للإغريق ، العالَم : ونظامه ، وجماله في آن واحد .... فالجمال إذن هو هدف الفن ، وعن طريق الجمال الفائق إنما يتعين على الفن أن يمثّل الحكمة السامية . إن تعريف الرائعة الفنية بسيط ، ولسوف يقره في الغرب كل الفنانين العظام ، ورثة الإغريق ، من أمثال : دافنشي ، وميشيل أنجلو ، ورافاييل ، وبوسّان ، وفيرمير (١) : إن الرائعة عملٌ فني لا يمكن للخيال أن يتقنه أكثر ، وهي تتنافس مع الرائعة المثالية التي تستوحيها ، وتتفوق عليها . إن الجمال هو أن يمتلك الإنسان أحلامه في الكمال عن طريق الفن (٢) .

الفن الحديث :

ومع ذلك ، فمالرو يميل ، حين تتعلق المسألة بعصرنا (٣)، إلى احتقار هذا الفن ، فن الجمال – فن التلذذ كما كان يمكن لبوسّان أن

(١) ولكن فيرمير ، كما يقول مالرو ، يقف شاهداً على « أن التصوير في عالم ليس فيه قيمة أساسية يمكن أن ينقذه فرد وحيد يمنح هذا العالم التصوير نفسه كقيمة أساسية : أصوات الصمت ، الصفحة : ٤٩٣ .

(٢) إن مالرو يميز بين الفن والجمال ؛ فالجمال يبدو بسيطاً ، وذلك ربما لأن الكلمة نفسها تعبر عن جمال التماثيل ، وجمال النساء ، ومع ذلك ، فنحن اليوم نصف بالجمال مسرحيات شكسبير الأكثر كآبة ، كما نصف روائع فيدياس . إن جمال المرأة قصير الأجل ، ونحن نقر بالجمال في الفن الجمال الذي يحافظ على استمراره .

(٣) حين يدور الكلام على الماضي ، يعارض مالرو غالباً الاتجاهين الكبيرين بعبارات ، تجبرنا على تفضيل الفن التقليدي : « فمن جهة ، هناك الأشكال الجمالية لكل ما ينتمي إلى الإنساني أولا ، بدءاً من جمال النساء ، حتى الإخاء ، وبدءاً من رائعات الجمال عند لوتيسيان ، وحتى عذراء المتحجبة ، ومن الجهة الأخرى ، الأشكال التي تسحق الإنسان أو تفلت من متناوله ، بدءاً من أبي الهول ، حتى الصنم (أصوات الصمت ، الصفحة ٥٩١) .

يقول عنه ، أو فنّ الإشباع ، كما سيقول عنه مالرو أمام نسخه المقلّدة الأكثر رداءة .

إننا نعيش في حضارة ٍ ليس لها مطلق ؛ فالأديان تكمل موتها ، ويمكن للفن اليوم أن يحيي تجريدات ٍ أو أحلاماً ، كالربيع ، والموسيقى ، وعصر البرونز . ولن يكون بامكانه أن يصور أوثاناً أو أرواحاً ؛ فهو لم يقيض له أن يبني معبداً أو قبراً . أما الإغريق ، فقد كانوا يعرفون على الأقل كيف يستبدلون « بالمقدس » « الإلهي » الذي كانوا قد خلقوه بأنفسهم . أما ورثتهم ، فهم يقبلون العالم ويصورونه كما هو ، دون تمرد ٍ على وضع البشر الذين يتعذبون ويموتون ، فأصبحوا من جراء ذلك ، حسب رأي مالرو ، غير قادرين على الخلق الفعلي . إن الفن القادر على ذلك ، من الآن فصاعداً ، هو وحده فن التمرد الذي يدمر العالم ، ويعيد بناءه ، من خلال أعماله الفنية ، وهو الفن الذي تغلو قيمته الأساسيةُ في ذاته ، ويصير « عقيدةً » — فيولّدُ مثل أية عقيدة ٍ متعصبيه وشهداءه . إن الفن ، بالنسبة للفنانين ، هو « وريثُ المطلق(١)» .

« ليس الفن ولا الثقافةُ تزيينات ٍ لتجميل الفراغ ، بل هما انتصارات ضارية للإنسان ، لكي ينصب ، في وجه العالم الواقعي ، عالماً لا ينتمي إلاّ إلى الإنسان (٢) .

هناك قيمةٌ أساسيةٌ للفن الحديث ... وهي تلك الإرادة القديمة جداً ، إرادة خلق عالم ٍ مستقل ٍ « هي إرادة مكتفيةٌ بذاتها فقط للمرة الأولى(٣)» ... إنها نضالٌ ضدّ الظاهر — ضد كل ظاهر ٍ يأتمر بقيم غريبة على

(١) أصوات الصمت ، الصفحة : / ٥٩٩ / .
(٢) حديث مع مالرو ، مجلة : فنون . بتاريخ ٥١/١١/٣٠ .
(٣) التشديد لمالرو .

الفن(١) » . وهنا يبدأ سوءُ الفهم ، فما معنى « وريث المطلق » ؟ هل هو حقاً مطلقٌ جديد ؟ ليس بوسع مالرو أن يؤكد ذلك . « إن الفن غير قادر على إسكات السؤال الذي يطرحهُ الموت على الإنسان » هكذا سيقول لنهرو ، في المذكرات المخالفة(٢) » ، كما أن الإنسان لن يخلص لأنه لا يتعدى أن يكون حادثاً من حوادث الكون(٣) ... وهذا « المطلق » إذن لا يملك أن يكون على أية حالٍ سوى « مطلقٍ أصبح نسبياً(٤) — مثل أولئك الآلهة البوذيين أو المصريين الذين لم نعد نعبدهم ، مع أنهم يرضون دوماً جزءاً من ذواتنا . ولابد أن نقرّ بأن تعبير مالرو يحملُ ما يبعثُ على الدهشة ، إذا اعتبرناه قيمةً من قيم اليوم ، ولا يتوصل فن مالرو بكامله هنا إلى تمرير التناقضات التي يدل عليها تضاد العبارات . إن « عمْلَة المطلق » ، وهذا ترديد للعنوان الذي يضعه مالرو للقسم الأخير من « أصوات الصمت » ، تعتبر حتى عملة زائفة من حيث التعريف ، كما لم يفت المؤمنين أن يقولوه له حالاً(٥) . إن المطلق لايقدر بالمال — إنه يعبد . أو يجري الخلاص منه .

ومع ذلك ، فباسمِ المطلق فقط ، إنما يتمكن مالرو من أن يرفض رفضاً منطقياً ما يسميه «الظاهر» ، وتستمر الأكثرية الهائلة من الناس ، وستستمر في أن تطلق على الواقع تسمية العالم الواقعي ؛ مع أنه بلا شك واقعي بصورةٍ ناقصة ، بحيث لا نعرف منه سوى حدٍ غامضٍ على

(١) أصوات الصمت ، الصفحات ، ٦٠١و٦١٤ .
(٢) المذكرات المخالفة ، الصفحة : /٣٤٣/ .
(٣) أصوات الصمت ، الصفحة : ٦٣٧ / .
(٤) أصوات الصمت ، الصفحة : / ٦١٧ /.
(٥) بيير هنري سيمون ، شهود الإنسان ، الصفحة : ١٧٨ .

درجة من العمق تزيد أو تنقص . ومع أن العلم ، كالفن ، يتعين عليهما أن يجهدا للتوغل فيه أكثر فأكثر ، فهو واقعي دون ريب ، إلا إذا تلاعبنا بالكلمات ، أو رجعنا إلى أسوأ الاعتقادات الباطلة ... وحتى لو وجد ، بجانب هذا العالم ، « شيء آخر ! (١) » .

ويلفى مالرو نفسه هنا قريباً جداً من الفنون المقدسة ، ولكن من دون أي مصدر من المصادر التي كانت تعطي هذه الفنون قوتها . إنه يستخدم مفردات دينية يعلن بنفسه أنها مفردات « مثيرة للغضب(٢) ، في هذا الميدان . ولكنه مع ذلك يعلن أنه سيستمر في استخدامها قائلاً إنه ليس هناك غيرها :

- « إن ما يجمع بين فننا والفنون المقدسة ليس أن فننا مقدس مثلها إطلاقاً ، ولكنه ، مثلها (لا يعتبر إلا الأشكال غير المتجانسة مع أشكال الظاهر مقبولة (٣) » .

- « إن لوحة : « طبيعة ميتة » لبراك ليست بالتأكيد موضوعاً مقدساً ، غير أنها تنتمي كهذا الموضوع إلى عالم آخر ، وتأخذ منه صفات إله غامض يمكن أن نسميه الرسم ، وهو يسمى الفن (٤) » .

إنه حقاً إله غامض ، وهو أكثر غموضاً بكثير من إله الكتاب المقدس ، وباسكال (٥) Deus apsconditus (الإله الخفي) ، فنحن بعيدون هنا عن الوضوح الإغريقي .

---

(١) « بالنسبة لكافة الأشكال التي التقطت نصيبها مما يتعذر إدراكه ... هناك شيء آخر موجود ، وهو ليس ظاهراً ، ولا يسمى دائماً الله » (المذكرات المخالفة ، الصفحة : ٥٢) .

(٢) أصوات الصمت ، الصفحة : / ٥٩٨/

(٣) التشديد لمالرو ، أصوات الصمت ، الصفحة : / ٥٩٤ / .

(٤) أصوات الصمت ، الصفحة : / ٥٩٨/ .

(٥) « إنك إله خفي حقيقة » (أشعيا) أورده باسكال ، الفصل ٤٥ ، المقطع : ١٥)

وفي الواقع ، فإن بعض العبارات التي يستخدمها مالرو شديدة الغموض ، كعبارة : (ذلك الجانب الموجود فينا ، جانب الخلود) مثلاً ، بحيث يضطر لتوضيحها باستمرار ، ليتلافى التفسيرات الخاطئة لفكرته ، فيكتب إلى رئيس الدير بيير بوكيل :

(إني أسمي إرادة الخضوع عند الإنسان لما يتجاوزه في ذاته ، اسميها « الجانب الخالد في الإنسان(١) ») ... ومن ناحية أخرى ، ألم يفكر مالرو في تسمية أحد كتبه بشيطان المطلق (٢) ، بينما أعطى هذه الكلمة شيطان تعريفات خالية من الرحمة ، مراراً عديدة .

« إن أحد التعريفات الممكنة للشيطان ، بالنسبة لإنسان ، ذي نزعة لا أدرية ، هو التالي : الشيطان هو ما يتطلع في الإنسان لتدمير هذا الإنسان(٣) ؛ فمن الحرب التي فيها الشياطين الكبرى ، إلى المجمعات الصناعية التي فيها الشياطين الصغرى ، أخذ الجانب الشيطاني الحاضر تقريباً في سائر الفنون الهمجية ببراعة ، أخذ يدخل الساحة (في الحضارة الغربية)، وميدانه هو ميدان كل ما يتطلع في الإنسان لتدمير هذا الإنسان ؛ فلشياطين بابل ، والكنيسة ، وفرويد(٤) ، وبيكيني(٥) ، وجه واحد(٦) » .

---

(١) رسالة بتاريخ ٢٩/٨/٤٨ ، أوردتها جانين موسوز ، وكان الأب بيير بوكيل عام ١٩٤٤ مرشداً دينياً لواء الألزاس والورين ، وقد ظل صديقاً لمالرو .

(٢) صدر منه فصل واحد ، وهو تأمل جميل جداً حول إخفاقات لورنس العرب ، تحت عنوان : ألم يكن الأمر إلا ذلك إذن !

(٣) زحل ، الصفحة : /٥٩٨ .

(٤) أنظر الصفحات : ٥٨و٦٠و١٢٦و١٤٦ .

(٥) جزيرة في أرخبيل مارشال التي كانت تجري فيه تجارب على القنابل الذرية ، فأطلقت الدعاية الأمريكية مايوهات « بيكيني » كقنابل ذرية .

(٦) أصوات الصمت ، الصفحة : ٥٣٩ .

ولكن إذا كان المطلق حقاً هو أحد هذه الشياطين ، وربما أسوأها وإذا كان يمكن تسويغ كل شيء باسمه ، وهو الذي يسمم كل فرح دنيوي مدوّن في الزمان بالضرورة(١) ؛ فلماذا يتعين على الفن أن يرجع اليه أيضاً بصورة أو بأخرى ؟ فلقد أصبح الفن اليوم في سن الرشد .

وكم يقنعنا مالرو أكثر حين يعرف الفن « بكل بساطة » على « أنه قدرة مبدعة رائعة للإنسان » ، في الوقت الذي يبقي فيه على تساؤلاته في الفن ، ومن غير أن يستعين بمفردات مضللة .

لقد صنع الإنسان لنفسه قيمه التي هي : الحقيقة ، والوضوح ، والإخاء ، والعدالة . أما الجمال فقيمة مختلفة قليلاً ، ولكنها ليست من نوع آخر ، فهي الملك « دفاع لمصلحة الإنسان(٢) » . وحفاظ على ما يريد أن يصبح عليه ... والجمال لا يمنع البحث أبداً ، ولا الابتكار ، بل يفترضهما .

إن كل فنان يرجع إلى « صورة الإنسان التي يقبلها ، كما يقول مالرو ، والتي هي بكل بساطة أسمى صورة يكونها عن نفسه ... وهذا الرجوع هو الذي يتيح للإنسان أن يستمر حياً بعد مبدعه(٣) » ، فلقد اكتشف مالرو من جديد ، فعلاً ، ما كان يسمى بالمثل الأعلى قديماً ، فيما وراء ضروب قلق عصرنا وسفاهاته .

« ... إن العمل المبدع ، الذي يرتدي دوماً لبوس التاريخ ، ولكنه يشبه نفسه مع ذلك ، منذ سومر وحتى مدرسة باريس ، يحافظ عبر القرون ، على إنجازات متجددة ، وقديمة قدم الإنسان(٤) » .

---

(١) « من لديه ميل المطلق ، يتخلى بسبب ذلك بالذات عن كل سعادة ، فأية سعادة تقاوم هذا الدوار ، وهذا التطلب المتجدد باستمرار » (أراغون) .

(٢) أصوات الصمت ، الصفحة : ٦٣١ .

(٣) خطاب بمناسبة تدشين دار الثقافة في غرونوبل .

(٤) أصوات الصمت ، الصفحة : ٦٣٧ .

« ولئن كانت نوعية العالم هي مادة كل ثقافة ، فان نوعية الإنسان هي هدف كل ثقافة ... إن الثقافة هي مجمل أشكال الفن ، والحب ، والفكر كافة ، وهي التي أتاحت للإنسان أن يكون أقل عبودية(1) ، على مدى آلاف السنين » .

« إن عالم الفن ليس عالم الخلود ، بل عالم التحول ، والتحول اليوم هو حياة الأثر الفني ذاتها(2) » .

ليس مالرو ، بالتأكيد ، هو أول من قال ذلك ، ولكنه قاله وبينه أفضل من أي إنسان آخر : أي قوله إن الروائع الفنية ، في تحولاتها ، يمكن أن تستمر في البقاء ، بعد زوال الإنسان ، وبعد زوال المدينة(3) .

وقد يجيب اليأس دائماً : وما أهمية ذلك ؟ « فهذا بقاء بائس لن يمهله الزمن ليرى انطفاء النجوم التي سبق أن ماتت ! » ... — بيد أنه من الجميل أن ينتزع الحيوان الذي يعلم أنه يتحتم عليه أن يموت ، أن ينتزع من سخرية النجوم السديمية نشيد كوكبات النجوم ، وأن يطلقه جزافاً عبر القرون التي سيفرض عليها أقوالاً غير معروفة(4) » .

---

(1) مجلة « فنون » بتاريخ ٥ حزيران ١٩٥٢ .

(2) المذكرات المخالفة ، الصفحة /٦٨/ .

(3) يمكنها أن تستمر في البقاء ، ولكن ليس جميعها ؛ فحالات الموت العرضي تصيب الروائع أيضاً — كما تقتل الناس على الطرق ، للأسف . وإننا نتذكر بالطبع القصيدة الشهيرة ، قصيدة تيوفيل غوتييه على الفن :

كل شيء يمضي ، فالفن القوي
وحده له الخلود
والتمثال النصفي
يستمر بعد زوال المدينة .

(4) أصوات الصمت ، الصفحة : /٦٣٩/ .

فهل الفن « ضد القدر (١) » كما يؤكد مالرو ؟ — أجل ، إذا عنينا بضد القدر إبداع « ممكنات » جديدة لم تكن موجودة في الطبيعة . إن العالم يحررنا من ألوان العبودية ، والحب والإخاء يجعلاننا نتجاوز أنانيتنا ؛ فالفن نشيد وبحث ، وهو إحدى قوى الإنسان العظيمة ، وهو ، بالنسبة إليه ، منبع بعض من أرقى أفراحه . إنه يجعل البشر يتمنون أن يعيشوا ، وأن يستمروا في الحياة بحرية أكبر ، وبسعادة أكبر(٢) ، فلم الخوف من كلمة سعادة ؛ فالسعادة لم تكف عن أن تكون فكرة جديدة ، في العالم أجمع ، وحتى في أوروبا(٣) .

* * *

(١) أصوات الصمت ، الصفحة : /٦٣٢/

(٢) إن تقنيات الإشباع قد استخدمت ولابتزال كلمة « سعادة » استخداماً سيئاً ، بحيث أن الكثيرين يشعرون حيالها بحرج وإحجام . ومالرو يرتاب بهذا التعبير ؛ ومع ذلك ، فالمفهوم الذي يشتمل عليه هو أحد المفاهيم التي قد يكون إيضاحها هو الأمر الأهم من أجل وعي حياتنا ، وتنظيمها (انظر ، الصفحات : ١٢٩و١٣٠) .... وإنه لأمر يدعو للاستغراب أن نتبين أن دولتين فقط قد أوردتا حتى ذلك التاريخ الحق في السعادة في لائحة حقوق الإنسان لديهما وهما : الولايات المتحدة الأمريكية ... والفيتنام الشمالية .

(٣) السعادة فكرة جديدة في « أوروبا » ، سان جوست ، ٣ آذار ، ١٧٩٤ . إن مالرو قد كتب مقدمة جميلة لكتاب سان جوست الذي ألفه ألبير أوليفييه ، وهو لا يورد الجملة التي ذكرنا بها أعلاه ، بل الجملة التالية : « تتمثل القضية في جعل الشعب سعيداً بدرجة أقل ما تتمثل في الحؤول دون أن يكون تعيساً » .

« ٩ »

المذكرات المخالفة[1]

الجزء الأول : ١٩٦٧

« لا ينبغي أن يبقى من الماضي سوى الثررات الحقيقية ، والمقتنيات التي تنجو من فعل الزمن ، وتزيد من قدراتنا على العمل ، وتفقد بالضرورة القيود التي تربطها بمنشئها ، في الوقت ذاته » .

« بول فالبري » .

كان الفتى غارين يقول في رواية « الظافرون » ... : « إذا استثنينا « المذكرات » ، فأية كتب تستحق أن تكتب ؟ » ... كما أن المذكرات بالنسبة إليه ، ليست غالباً سوى الشهادة على المقدرة المفقودة ؛ « إن الفتح هو الذي « يبقي » على روح الزعيم ؛ وقد وصل الأمر بنابوليون ليقول في سانت – هيلين : « وعلى أية حال ، فيالحياتي من رواية عظيمة ! » إن العبقرية أيضاً تتعفن (٢) » .

إن مالرو لا يريد أن يقدم « رواية » لحوادث جرت في الماضي ،

---

(١) ترجمة مقترحة للعنوان الذي وضعه مالرو لكتابه : Antimémoires وهو يريد أن يكون كتابه هذا نقيضاً للمذكرات التقليدية الشخصية ، وربما يمكن أن نترجمه : اللامذكرات ، أو ضد المذكرات . (المترجم : ز.ع) . أو نقيض المذكرات .

(١) « الظافرون » ، القسم الأول : المقاربات .

ولا يقصد إلى كتابة مذكراته ، ولا ، بدرجة أقل من ذلك ، إلى كتابة اعترافاته ، أو حياته الخاصة ، « تلك القصص الصغيرة ، قصص وجوده » ولا إلى كتابة سيرته الذاتية بلا شرط(١) . إنه لا يبتغي « الكشف عن نفسه » ، انطلاقاً من البحث عن الزمن الضائع ، أو من اللاشعور ...

يمكن للتحليلات العظيمة لماضي الفرد أن تصل إلى الفن ، هذا صحيح ، غير أنه ليس لنا تأثير فعال إلا على « الحاضر » ؛ ففي « الحاضر » وحده ، يمكننا أن نقلل إلى الحد الأدنى نصيبنا من الملهاة ؛ فالزمن الضائع لا جدوى منه كالظلال ، أما عن اللاشعور ، فنحن نخلط بمراعاة مفرطة منا بين ما يخفيه الإنسان ، وهو في أغلب الأحيان شيء يدعو إلى الرثاء ، وما يجهله عن نفسه(٢) » ؛ فيجدر بالإنسان أن يكون فاعلاً أكثر مما يجدر به أن يغرق في مثل هذا البحث والأكثر من ذلك ، هو أن مالرو يمقت طفولته التي خرج منها بأسرع ما أمكنه ذلك ، وتنوع من فراغ الصبر الخانق(٣) ، وهو ينظر إلى نفسه بلا تعاطف قائلاً : « أيتها الصورة المتغيرة لنفسي ، إنني لا أكن لك حباً ، هكذا كان يقول في « إغراء الغرب » ... لقد أعطيتك كل شيء ، ومع هذا ، فأنا أعلم أني لن أحبك أبداً » . ، وهو يردد ذلك هنا بصرخة فيها احتقار وكبرياء : « قلما أهتم بها ... فماذا يهمني من الأشياء التي لا تهم أحداً غيري (٤) ؟ » .

(١) ترفض المذكرات المخالفة التسلسل الزمني ؛ إنها تروي « تجارب » لا تأخذ قيمتها غالباً ، شأنها شأن العديد من التجارب ، إلا من خلال مقارنات مستحدثة .

(٢) أشجار جوز الألتنبرغ .

(٣) المذكرات المخالفة ، الصفحة : ١٦

(٤) المذكرات المخالفة ، الصفحة : ١٠ .

ومع ذلك ، فنحن نظن أن المذكرات المخالفة تصدر عن الذكريات بصورة مستمرة ؛ فما هو غرض كتاب كهذا ؟ ولماذا فرض مالرو على نفسه ، بدلاً من أن يخضع لعلاج طبي خلال فترة من التعب الشديد ، أن يكتب ٦٠٠ صفحة من القياس الكبير ، ولسوف تتلوها ١٨٠٠ صفحة أخرى ، على ألا تنشر بكاملها إلا عند موته ؟ — ولقد تم ذلك بالضبط ، لكي لا يترك مالرو من نفسه ومن الآخرين بقدر الإمكان ، إلا ما كان قد استمر في البقاء من قبل ، أي ، بالنتيجة ، ما لعله سيستمر لو أن المؤلف قد توصل إلى التعبير عنه كتابةً وبلغة جميلة . إن « تحول الفن » ينطبق على حياتنا . فاذا كان اقتدار الأسلوب يستطيع أن يحول صورة الأشياء التي يخجل بها روسو ، و« الحوادث الصغيرة الحقيقية » عند ستاندال ؛ فما الذي لا يستطيع هذا الاقتدار أن يفعله بالنسبة للأمثلة العظيمة ، أمثلة جان مولان ، والمقاومة ، والمسير الطويل ، مسير ماو ، وكفاح (١) غاندي « الذي حرر الهند دون ضحية انكليزية واحدة » . ، والمنفيين الذين صانوا الكرامة الإنسانية ضد أقوى محاولةٍ شهدها العالم للإذلال في تاريخه ؟

ما الذي يقدر عليه الانسان :

إن موضوع الكتاب ، هو الموضوع ذاته دوماً ، ألا وهو موضوع وضعنا كبشر . إن مالرو سيستخدم في الكتاب ضمير المتكلم أنا(٢)

---

(١) الكفاح وليس « السلبية السامية » ، كما يظن الناس غالباً في الغرب ، إن مالرو يذكر بأن تشرشل قد عامل غاندي لفترة طويلة على أنه « درويش متمرد ، نصف عار ، ويقيم في قصر نائب الملك » .

(٢) وحتى أن فيه أكثر من اللازم قليلا « رأيت ... رأيت » ، وكلمات من مثل : خيزة ، وجدارية منرشة في المقاطع « التصويرية » ... ولكن قصر الكتاب على مثل هذه التعدادات قد يكون ظلماً صارخاً .

« Je » ، هذا مؤكد . ولكن بما أنه أراد واستطاع أن يشارك في العديد من أحداث العالم ، وأن يشهد تحولاً اجتماعياً غير عادي أكبر بكثير من التحول الذي عاشه شاتوبريان ، بدءاً من النظام القديم ، ووصولاً إلى الجمهورية الثانية ؛ فهو سيدعونا ، قبل كل شيء ، إلى التفكير بامعان بهذا التاريخ الأساسي ، وبما يمكنه أن يخبرنا عن ذواتنا جميعاً . أما المسألة الأساسية التي كان فاليري ينسبها إلى السيد تيست وهي : ما الذي يقدر عليه الإنسان ؛ فمالرو يطرحها علينا هنا باستمرار ، بمواجهة مشكلات عصرنا : ماذا يستطيع الجسد ؟ وماذا يستطيع الفكر (الفكر الذي أخذ يخلف الروح أكثر فأكثر ؟) ؛ وماذا يمكن أن تصنع إرادة البشر ومعارفهم ؟ وبماذا ترد حياة الإنسان ، وحياة الإبطال الذين عرفهم على تطور العالم ؟

« إن ما يثير اهتمامي في إنسانٍ ما (وفي نفسي) هو الوضع الإنساني ففي الإنسان العظيم تثير اهتمامي امكانات عظمته ، وطبيعتها ، وفي القدّيس ، صفة القدسية لديه ، وبعض السّمات التي تعبر عن مزيةٍ فرديةٍ أقل مما تعبر عن علاقةٍ خاصةٍ بالعالم .

إني أسمّي هذا الكتاب : « مذكرات مخالفة » لأنه يجيب على مسألةٍ لا تطرحها المذكرات ، ولا يجيبَ على تلك المسائل التي تطرحها المذكرات ؛ ولأننا نجد فيها حضوراً لايمكن دحضُه ، ومتسلّلاً مثل قط يمر في العتمة ، ومرتبطاً غالباً بالمأسوي ، وهو : حضور الغرابة التي بعثت اسمها دون أن أدري (١) » .

(١) المذكرات المخالفة ، الصفحة : ٢٠ / كان مالرو يجهل أنه يستخدم مجدداً مصطلحاً قديماً جداً لكريستين دوبيزان ، ولرابليه (انظر أعلاه ، الصفحة : ٤٤) .

حين تتسلل هذه « الغرابةُ » . فقط في ظل المأسوي ، كما هي الحال في استجوابات مالرو الأولى على يد الألمان مثلاً ، فهي تشدد في حقيقة الأمر ، وعلى نحوٍ أقوى أيضاً ، على مفارقة الإنسان الحي ، وتشجب ما يستحق الازدراء . ولكن حين تستقر هذه الغرابة ، وتصبح سيدة للموقف ، وتحتل المكان كاملاً ، تفقد تأثيرها بصورةٍ تامة ، في هذا الجزء الأول من الكتاب على الأقل . ولقد حذرنا مالرو منذ البداية ، ولكن دون جدوى ، قائلاً : « ليس هناك من هو أكثر إزعاجاً من العاملين بالأدب(١) » . ولكن هذا لا يجعلنا أكثر تسامحاً ؛ فالسيناريو الذي يشرع المؤلف بجعل كلابيك ينفذه بالحركات ، وقد التقى به صدفةً في سنغافورة عام ١٩٦٥ هو سيناريو مفرط في طوله ، ولا فائدة منه . وهو المقطع الوحيد الممل في مؤلف مالرو كله . هذا إذا صدقنا أن شخصية كلابيك هي شخصيةٌ حقيقية فعلاً ! ويمكن أن نتخطى هذا المقطع غير آسفين .

الجنرال ديغول :

بالمقابل ، فالمقاطع الكبرى التاريخية ــ صور الأشخاص والحوارات خصوصاً (« لعلي لم احتفظ من حياتي بشيء آخر غير هذه الحوارات(٢)») مقاطع مشوّقةٌ ... فلقد كنّا نرصد فيها « ديغول » الذي سيقدمه مالرو ؛ على أنه بسيط جداً ، ووقور ، ودقيقٌ ، ولا يظهر تميزاً ، ولا يخيب الظن به ، ومالرو ينصفه في البداية من الأسطورة التي تقول إن ديغول

(١) المذكرات المخالفة ، الصفحة ٣٨٠ ، وبعد مئة صفحة ، يسأل كلابيك عن رأيه في السيناريو الذي أعده ، فلا يجيبه مالرو ! فلماذا قام مالرو إذن بكتابة « مملكة الشرير » ، هل كان ذلك تنفيذاً لوعد معين !

(٢) المذكرات المخالفة ، الصفحة ٥٦١١/ .

قد ردد عام ١٩٤٤ بصدد مالرو الجملة الشهيرة التي قالها نابوليون عن غوته : « وأخيراً ، التقيت برجل(١) » ، وذلك لدى عودة ديغول من جولة تفتيشية على جبهة الألزاس . وحتى أن مالرو يظن أن ديغول لم يفكر باستدعائه (ولم يفكر هو أيضاً بعرض خدماته عليه سوى في عام ١٩٤٠(٢) ، وأن إرادة ثالثة « مكيدة تدعو للاستغراب » ، وهو لايقول عنها شيئاً أيضاً ، قد قربت كلا منهما إلى الآخر ... إن مايؤثر بمالرو ، بدءاً من أول لقاء غريب لهما ، هو شكل وقوة صمته .

« لم يكن اللقاء استجواباً ؛ فهو يحب المجاملة الفكرية ، بل كانت هناك مسافة داخلية لم أصادفها فيما بعد إلا لدى ماوتسي تونغ ... وهي مسافة فريدة من حيث أنها لم تكن تظهر فقط بين محدثه وبينه ، بل بين ما كان يقوله وما كان عليه فعلاً ؛ وبرغم مجاملته ؛ فقد كان يبدو أن المرء يحسب له حساباً دوماً ... لقد كان شخصية تسكنها فكرة معينة ، ويملأ ذهنها مصير فرنسا التي « كان عليها أن تكتشفها وتؤكدها » .

وفي الحديثين الوحيدين اللذين يرويهما مالرو في عامي ١٩٤٥ و١٩٥٨ ، يردد ديغول لمالرو القول التالي : « لا تخطىء الحكم ، إن فرنسا لم تعد تريد الثورة ؛ فلقد مضى أوانها » . أما مقاصده في عام ١٩٥٨ ، والتي لايزال يدور النقاش حولها اليوم كثيراً ، فهي شديدة الوضوح :

« إن المسألة تنصب على إعادة بناء الدولة ، وعلى تثبيت النقد ، والخلاص من الاستعمار ... غير أن ديغول لم يكن قد تحدث عن الجزائر ،

(١) إن مالرو يورد بذاته هذه الجملة ، بطبيعة الحال .

(٢) المذكرات المخالفة ، الصفحة : /١٣٤/ .

ولكنه كان يبدو أنه يوليها الثقة ؛ فكان لابد أولاً أن يكون الجيش الفرنسي فيها هو جيش فرنسا التي كانت تعرض الحرية ١٧ بلداً ، وليس جيش إمبراطورية استعمارية . وكان مزمعاً على الذهاب إلى الجزائر ، بعد إعلان توليه الوزارة . وأصبح طريق الجزائر مرةً أخرى يمر عبر برازافيل (١) .

لم يتحدث إلا قليلاً عن المشكلات الاجتماعية ، والطريقة التي كانت تميزه في طرحه لها بدت لي ذات دلالة (بينما كان بصورة جلية متمسكاً تمسكاً شديداً بالمشكلات الثلاث الأخرى (، لقد كان في سباق مع الزمن ، ولكن ليس في هذا المجال (٢) » .

ولا يضيف مالرو شيئاً ، ولا يعلق بشيء . أما الأمر الذي لا يمكن إنكاره ، من ناحية أخرى ، فهو أن مشكلة الجزائر عام ١٩٥٨ ، كانت بالنسبة للفرنسيين تفوق إلى حد بعيد كل ما عداها من المشكلات من ناحية إلحاحها — وتفوق — بالنسبة للجزائريين — المشكلات الاجتماعية .

« الماركسية الملموسة » (٣)

ماركسية ماوتسي تونغ

في بكين من عام ١٩٦٥ ، وبعد الأحاديث الذكية الرسمية مع شن يي ، وشوإن لاي ، يملأ ماوتسي تونغ المسرح فجأة ، وكأنه

---

(١) إشارة إلى المؤتمر الأفريقي الذي انعقد في برازافيل عام ١٩٤٤ ، وقد أعلن فيه عن سياسة جديدة على أراضي ما وراء البحار (المستعمرات) .

(٢) المذكرات المخالفة ، الصفحة : ١٤٧ — ١٣٨ .

(٣) « ليس هناك ماركسية مجردة ، بل هناك ماركسية ملموسة منسجمة مع الوقائع الملموسة في الصين ، وهي ، كما يقول ماو ، متلائمة مع الأشجار العارية كالناس العراة ، لأن الجائعين يأكلون القشور » .

شخصيةً من شخصيات « الأمل » التي كبرت بحجم الصين ، ولقد عني مالرو أولاً بأن يجعلنا نعيش من جديد ملحمة المسير الطويل ، فيقول : إن هذا المسير يصف ماو بصورة أقوى مما تصفه به أية سمة شخصية ؛ وهو لايزال يوقظ آمال الشرق الأقصى بكامله ، وسيبقى هذا المسير على أية حال « مثلاً للبشرية جمعاء(١) » .

« يقول ماو : إن كل الروس الذين كانوا يستندون إلى الماركسية — اللينينية ، وكل الصينيين الذين ارتبطوا بهم مباشرة كانوا يطرحون مبدئياً أن طبقة الفلاحين لا يمكنها أن تنتصر أبداً ، التروتسكيون منهم والستالينيون . ولكن التأكد من أن استلام السلطة على يد الفلاحين ممكن قد بدل كل شيء .

— وكيف نشأ هذا التأكد ؟

— إن قناعتي لم تتشكل تشكلاً ، بل كان لدي إحساس دائم بها ، وإني أتذكر كلمة الجنرال ديغول حين سألني : متى فكرتم بأنكم ستستعيدون السلطة ؟

— « دائماً (٢) » .

ولكن ماو يقدم أيضاً التفسير العقلاني ، وبصورة مسهبة :

« علينا أن نعلم الجماهير بدقة ما تلقيناه منها بصورة مشوشة ، فما الذي ضم إلينا أكبر عدد من القرى ؟ إنها عروض المرارة » .

---

(١) برقية من وكالة الصحافة الفرنسية ، وهي مرسلة من بكين بتاريخ ١٣ آب لعام ١٩٦٥ (وقد أوردتها جانين موسوز) .

(٢) جرى الحديث بحضور عدد من المسؤولين ، ومنهم ليو شاوشي بصورة خاصة — والذي لم يقل شيئاً على الإطلاق ، ولكنه كان قد قال فيما مضى : إن السمة العبقرية لماو تتمثل في أنه قد نقل الطابع الأوروبي للماركسية — اللينينية إلى شكلها الآسيوي . (المذكرات المخالفة ، الصفحة : ٥٤٦) .

« إن عرض المرارة هو اعتراف علني يعترف فيه ذلك الذي يتكلم ، أو تلك التي تتكلم ، بما يعانيه كل منهما بمفرده أمام القرية بكاملها ؛ فيلاحظ أكثر المستمعين أنهم قد عانوا الآلام نفسها ، فيروونها بدورهم ... ويقول ماو : لقد أوصينا بالعروض في سائر القرى ، ولكننا لم نبتكرها (١) .

وفي ذلك التاريخ ، لم يكن هناك أحدٌ ، لا في الصين ، ولا في العالم ، يتكلم بعد عن الثورة الثقافية ؛ ومع ذلك ، فمالرو يجعلنا نحسها ، وقد تشرب بها فكر ماو ، فحاكمها في نفسه ، وتفكر فيها بروح متشائمةٍ عميقة ، ولكنها روحٌ لا تتخلى عن تغيير الإنسان .

« لم تحل المشكلة الزراعية ، ولا المشكلة الصناعية ، وبدرجةٍ أقل من ذلك أيضاً ، مشكلة الشبيبة ، فاذا أردنا تربية الثورة والأطفال ، فينبغي تأهيلهما ... وعلى الشبيبة أن تثبت إمكاناتها ...

وإذا تركت البشرية لنفسها ، فهي لن تقيم الرأسمالية بالضرورة (لذلك فقد تكونون على حق حين تقولون إن الروس لن يعيدوا الملكية الفردية لوسائل الإنتاج) ، ولكن البشرية تقيم مجدداً عدم المساواة ؛ فالقوى التي تدفع إلى خلق أشكالٍ طبقيةٍ جديدة هي قوى مقتدرة ... وكان يبدو بأن خروتشوف مؤمنٌ بأن الثورة تتحقق حين يستلم الحزب الشيوعي السلطة ، كما لو أن المسألة تتعلق بتحررٍ وطني ! ...

وكان لينين يعلم جيداً أن الثورة حينذاك تكون في بدايتها . أما القوى والتقاليد التي كان يتحدث عنها فليست موروثةً عن البورجوازية

(١) المذكرات المخالفة ، الصفحات : ٥٢٥ و ٥٣١ .

فقط ، فهي قدرنا أيضاً ، والناس لا يحبون أن يحملوا الثورة طينة حياتهم ...

هناك شبيبة بأكملها تتمسك بالعقائد الجامدة ؛ والعقيدة الجامدة أقل فائدة من روث البقرة ، ونستطيع أن نصنع منها ما نشاء ، حتى التحريفية ، ومهما يكن رأي سفيركم بهذه الشبيبة ، فهي تطرح اتجاهات خطرة ... وقد حان الوقت لتبيان وجود اتجاهات أخرى(١) » .

ويدور الحديث مجدداً على الروس — وعلى الأمريكيين ، وماو الذي لا يقوم بأية حركة حتى تلك اللحظة ، مثل « امبراطور من البرونز » ، يرفع فجأة ذراعيه إلى السماء ، ثم يدعهما تسقطان دفعة واحدة ، ويقول « حلفاؤكم وحلفاؤنا ! » بلهجة من يقول : « كم هم سيئون (٢) ! » .

مشكلات نهرو
وقناعاته الراسخة

يشير مالرو بوضوح ، مع أنه لا يلح على ذلك ، إلى ما ينتقده في شيوعية ماو ، وفي نزعته القومية ، وسيشير أيضاً إلى ما ينتقده لدى نهرو . بيد أن الرجلين هنا متقاربان جداً : إن شكل ذكرياتهما ، وإحساسهما بالطبيعة وبالحياة متماثلان ؛ وقد شعرا في السجن بالأمور نفسها ، في القسم الأكبر منها ، وانصب اهتمامهما على المشكلات ذاتها ، في السلطة ، وخارج السلطة .

---

(١) المذكرات المخالفة ، الصفحات : ٥٣٨و٥٤٨، و٥٥٢ .

(٢) المذكرات المخالفة ، الصفحة : / ٥٣٥/ .

وفي أحد لقاءاتهما الأولى ، يطرح مالرو ، الذي أصيب بجرح لتوه ، في إسبانيا ، على نهرو ، الخارج من السجن ، سؤالاً يبدو بعيداً إلى حد غريب عن اهتماماتهما المباشرة :

« ما الذي أتاح للهندوسية أن تبعد من الهند البوذية ، الجيدة التنظيم ، ودون صراع خطير ، منذ أكثر من ألف عام ، وكيف استطاعت الهندوسية أن تنجح تقريباً في ابتلاع دين شعبي عظيم ، منتشر انتشاراً واسعاً ، بدون الحروب الدينية المعهودة(١) ؟ » .

ويناسب هذا السؤال نهرو ، فيتفكر طويلاً في الرد :

« مازلت لا أعرف كيف ماتت البوذية ، هكذا قال نهرو ، ولكني أظن أني أتوقع السبب . إن عبقرية بوذا ترتبط بكونه إنساناً ، وبكونها فكراً يعد من أعمق ما قدمته الإنسانية من فكر ، وعقلاً لا ينثني مع رأفة لا يسمو عليها شيء ، لقد كان يقف موجهاً الاتهام لجمهرة الآلهة . وحين تألّه ، ضاع في تلك الجمهرة التي انغلقت عليه (٢) » .

وتصل حوارات الرجلين عام ١٩٥٨ سريعاً إلى المستوى نفسه ، ولكنها في الوقت ذاته حوارات بسيطة جداً ، ويومية تقريباً ، مع أنها تدور على أكثر المشكلات خطورة . إن الرجلين كليهما لا أدريان في نزعتهما ، ويبحثان بحماس عن القيمة القادرة في أيامنا على أيقاف قدرة الإنسان العلمية عند حدّها ، وإيقاف الشر المرعب الذي تستطيع أن تفعله هذه القدرة .

---

(١) المذكرات المخالفة ، الصفحة : /٢٣٣/ .

(٢) المذكرات المخالفة ، الصفحة : /١٩٤/ .

« ويسأل مالرو : ما الأمر الذي كان أصعب من غيره ، منذ الاستقلال ؟ »

فيجيب نهرو دفعةً واحدة ، فيما كان يبحث عن أفكاره رداً على الأسئلة السابقة : « إقامة دولة عادلة بوسائل صحيحة ، ويبدو لي... ربما أيضاً ، إقامة دولة علمانية في هذا البلد المتدين ... لقد قيل إن العمل غير العنيف وهمٌ ، ولكنه كان هنا هو الوسيلة الوحيدة الواقعية الممكنة للعمل السياسي . فحتى في السياسة لكل عملٍ سيء نتائج سيئة ، وها هنا ، كما أظن ، قانون من قوانين الطبيعة على نفس الدرجة من الوضوح التي يتصف بها أي قانونٍ فيزيائي أو كيميائي » .... غير أن غاندي كان يقول أيضاً : « من الأفضل للإنسان أن يقاتل من أن يخاف » . . أما هجراتُ التقسيم الجماعية (من الهند ، ومن الباكستان) ، والصراعات الدينية في هذا البلد ، بلد اللاعنف ، فقد كانت ولا تزال رهيبةً ؛ فقد ماتَ غاندي غيلةً ... فبأية قوةٍ يمكن إيقاف العنف ؟

ويتضح لمالرو أن حضور الكتاب الفرنسيين الكبار ، في الهند ، وأفريقيا السوداء هو أقوى غالباً من الماركسية :

« في البلدان المتدنية التطور ، تأتي الآلةُ بعمالٍ موصوفين أكثر مما تأتي ببروليتاريا عمالية ، وفي كل مكانٍ لا تأتي البروليتاريا فيه بالثورة ، بل يأتي بها الشعب ، يحتفظ التبشير بالثورة الفرنسية . وتمجيد الكفاح من أجل العدالة والذي أعلن من سان — جوست إلى جوريس ، مزوراً بميشليه ، وفيكتور هيغو خصوصاً ، يحتفظ بنفوذٍ يعادل على الأقل نفوذ الماركسية ... لقد رأيت أكداماً من كتاب البؤساء ، بين كتابات

باكونين ، وكتابات تولستوي النظرية ، على جادات برشلونة ، أثناء الحرب الأهلية (١) » .

« ولكن المأساة التي تمسك بخناق الهند هي الجوع . فهل سيظهر التخطيط الشيوعي أكثر فعالية ضد المجاعة من الاقتصاد الرأسمالي الحر ؟ » . إن الشعور الطائفي المغلق في الهند أقوى من الوعي الطبقي . والهند الألفية ترى في انتفاء العدالة الاجتماعية جزءاً من النظام الكوني الذي هو العدالة(٢) ، فهل تستطيع الهند وهل يتعين عليها أن تبدل حضارتها تبديلاً تاماً ، وأن تتغرب ... في حين أنها عرفت كيف تنسجم مع الموت ؟

الحضارات التي تعتبر أن للموت معنى

إن شغف مالرو بآسيا ، وبحضاراتها القديمة التي لم تندثر يرجع دوماً إلى الدهشة الأساسية نفسها أمام الأشكال التي أمكن للإنسان أن يستمدها من الحياة ، والإجابات التي قدمها عليها ؛ ففي عام ١٩٥٨ ، كما في القديم ، هناك مشهد الآلهة والجموع ، في الأماكن المقدسة العليا في الهند ، وهناك الاعتقاد الباطل الأقوى من الديانات نفسها (كما كان بول فاليري يرى)، ومحارق الموتى الجنائزية ، في بيناريس ، حيث ينظر الباقون على قيد الحياة بدون اكتراث إلى أرواح أهلهم الموعودة بتجسدات لا نهاية لها ، وهي تتخلص من أجسامها :

---

(١) المذكرات المخالفة ، الصفحة / ١٩٤ / .

(٢) ذلك لأن كلا من جيواتنا المتعاقبة تكافىء أو تعاقب الحيوات السابقة ، وتستحق أفراح أو أتراح الحيوات اللاحقة ، تبعاً لعدالة الكائن .

مثلما نرمي ثياباً مهترئة

كذلك يرمي من يرتدي جسداً

الأجساد المستهلكة ... (١)

إن هذه المفاهيم الكبرى المطمئنة ، والتي ليس للموت فيها من سلطان ، تثير لدى مالرو دوماً الاضطراب نفسه ، اضطراب الأسئلة التي يطرحها ، وتبعث لديه القلق ذاته الذي يعتريه بصورة مشوشة . ولكي يحدث مالرو توازناً مقابلاً لمجيئه على ذكر هذه المفاهيم ، فهو يورد ، عن قصد منه ، الحوادث المطبوعة أكثر من غيرها بالصفة الشخصية . في « المذكرات المخالفة » ، وهي الحوادث التي كانت ، بالنسبة إليه أكثر الحوادث حسماً : كالهجوم في « أشجار جوز الألتا نبرغ » ، والسقوط في الحفرة المضادة للمدرعات ، ومروره شخصياً أمام فصيل الإعدام في غرامات » في شهر تموز ١٩٤٤ ، و« إعادته غير المجدية لقراءة » إنجيل القديس يوحنا ، في الليلة التي كان يظن أنه لابد أن يعدم فيها رمياً بالرصاص ، وجدياً تلك المرة ، وخصوصاً انتظاره للتعذيب أمام رفاقه الذين تعرضوا له ، بينما كان حراس ألمان يلعبون في الباحة لعبة قفز الخراف :

« يا حضارات الهند التي يصبح للموت معنى بالنسبة لها ، ويا أيها الرجال من بلادنا ، والذين ليس للحياة معنى بالنسبة إليهم ... وهذا

(١) بيتان شعريان من لابافاغاد جيتا (وهو الكتاب الديني الأكثر انتشاراً في الهند) وهذان البيتان يردان مرتين في « المذكرات المخالفة » .

أمرٌ كنت قد خبرته لدى براديه(١) ، أيها الملتجئون إلى مغاراتهم ، مغارة العدم ! أيها الكافرون بكل شيء ، وربما بأنفسهم » ... أيتها الوحدة الكثيبة ، وحدة أفرادٍ من الغرب ، في وجه ألوان التآخي الدينية والسياسية في آسيا(٢) » .

الانتصار على الشر :

لقد ألفى مالرو نفسه ، في الشرق ، بمواجهة الوساوس ذاتها دوماً ؛ بيد أن الموت لم يعد ، بالنسبة إليه ، في تلك المرحلة ، مشكلةً أساسيةً ؛ فقد بقي لديه الاطمئنان النهائي ، اطمئنان أشجار جوز الألتا نبرغ . وتغدو مشكلته الكبرى ، منذ ذلك الحين ، هي الشر ، وما يمكن للإنسان أن يفعله ضده . إن الفصل الأخير من المذكرات المخالفة ، وهو فصل رائع بكامله — ففيه الاستحضار العنيف لذكرى معسكرات النفي ، والحوار الرقيق والمرير لحوادث الرجوع إلى الحياة ، يجمع الموضوعات الأكثر إثارة للمشاعر من « الأمل » ، ومن إسبانيا(٣) ، ومن « الوضع الإنساني » ، ومن « أشجار الجوز » ، ويقوم بتعميقها أيضاً .

« تمر امرأة من شرطة الـ أس.أس(٤)،وهي قائدة المعسكر ،على

---

(١) براديه : هو أحد المقاتلين الذين يشنون هجوماً بالمدرعات في « أشجار جوز الألتا نبرغ . ولكن الحياة اليومية تسد أفقه ، ولا تطل على أمل معين غير الأمل الذي يصنعه بابنه ، ومع ذلك ، فهو يجابه الموت إلى جانب مالرو ، وبالشجاعة نفسها .

(٢) المذكرات المخالفة ، الصفحات : ٢٩٣و٣٢٥ .

(٣) إن أحد المنفيين هو جمهوري إسباني ، ومالرو يستحضر كذلك ، في منظر طبيعي جميل ، إقلاع الطائرات ، عند الفجر ، في سماء كاستيليا ، والدم والندى الممتزجين الممتزجين داخل حجرة الطيار ، في الطائرات التي أصيبت .

(٤) الـ : . (الشرطة العسكرية النازية) (م:ذ.ع)

دراجتها النارية ، على طول رتلٍ من المعتقلات اللواتي يتجهن إلى العمل ، فتنزل عنها ، وتصفع سجينةً ربما لم تصطف جيداً ، فتقوم هذه الأخيرة ، وهي قائدة شبكةٍ سرية ، ومدركة لما ستفعل ، بصفعها بكل قوتها ، فيلهث الرتل بكامله ؛ فتنزل عليه ضربات أصواط رجال ونساء الـ أس.أس . بصورةٍ مهووسة . ويفلتون الكلاب على السجينة ، ولكن دمها يسيل تحت قدميها ، والكلاب ، بدلاً من أن تعضها ، تلعق جراحها ، كما في الأساطير المسيحية ؛ ولكن عناصر الـ أس.أس ، الأقل عاطفيةً ، يطردون الكلاب ، ويضربون السجينة حتى الموت ، فتسيل الدموع بصمت (١) على وجوه المعتقلات الواقفات باستعداد » .

« كانت مدركةً لما ستفعل ! » ... وكان من المفروض أن يستمر السجين حياً ، وكان أفضل دفاعٍ بالنسبة للمهجرين ، في أغلب الأحيان ، هو أن يتحملوا ما كان مفروضاً عليهم كما لو كانوا يحتملون سرطاناً ولكن دون أن يشاركوا فيه إطلاقاً . غير أنّ ذلك لم يكن كافياً أحياناً ؛ فكان ينبغي كذلك ، وقبل كل شيء ، مقاومة تنظيم الإذلال . وفي المقام الأول ، أن يحافظ المرء على صفته كانسانٍ ، في نظر نفسه ، وأن يعطي لنفسه البرهان على ذلك ؛ « فالموت عنصر بين عناصر أخرى ، والذين أطلق سراحهم يقولون إن إرادة النجاة من الموت ربما تكون أقوى رغبةٍ من رغبات الإنسان ، و« إن الذين لم يكونوا يستسلمون » هم وحدهم الذين كانوا ينجون من الموت(٢) . إن التعريف الذي يبحث عنه مالرو طويلاً ، وتلك الفكرة المشوشة والعميقة ، فكرة

---

(١) المذكرات المخالفة ، الصفحة : /٥٨٢/ .

(٢) المذكرات المخالفة ، الصفحة : /٥٨٦/ .

الإنسان ، والتي قاتل هو ورفاقه في سبيلها كثيراً ، تصبح فجأة شديدة الوضوح ، أمام حقارة المعسكرات ، وتبقى على وضوحها ، حتى وإن ظلت فكرةً سلبيةً مفادها « أن الإنسان هو ذلك الشيء الذي كان يراد أن ينتزع من البشر (١) » .

وينتهي الكتاب بصورة رقيقة ، مثلما ينتهي « أشجار الجوز » ، بالإحساس الغريب ، والكلي القدرة نفسه ، وهو الإحساس بجلاء الحياة ووضوحها . « أيتها الحياة القديمة جداً ، والعنيدة جداً ! » . إن تيارها الصبور يمحو ذكرى حتى اللاإنساني ، والبشر يستأنفون دوماً مهمتهم التي لا تنفد ... والآن في لاسكو ، فان أعمال الحماية قد شملت المستنكفين(٢) ضميرياً ؛ وهذا تقدم طفيف ، ولكنه حقيقي . أليس معنى الحياة في الحياة ذاتها ؟ لقد كان مالرو يقول إن ما نجده في المذكرات المخالفة هو الشيء الذي كتب له البقاء ، هو الحياة .

* * *

---

(١) المذكرات المخالفة : الصفحة : / ٥٨٧/ إن هذه الجملة تتجاوب مع الرد الشهير في « الوضع الإنساني » : « ما الذي تسمية كرامة ؟ إنها لا تعني شيئاً . أما كيو فيقول : إنها نقيض الإذلال ، وحين يأتي المرء من المكان الذي أتيت منه ، فالكرامة تعني شيئاً ما » .

(٢) المستنكفون ضميرياً : هم المعارضون الخدمة العسكرية لأسباب سياسية أو دينية . (م:ز.ع) .



أندريه مالرو ، يرى في خلفية الصورة ، داخل طائرة قاذفة تابعة لفرقة « إسبانيا » .

فكر مالرو

ونشاطه العملي

جوانب الإلتزام عند مالرو

ثوابتها ، وتطورها

الثوابت :

« يمكن لقناعةٍ واحدة أن تنظم العالم ، بالنسبة لكل من يريد أن يعيش بمعزلٍ عن بحثه الآني المباشر » .

« إغراء الغرب »

أمن الضروري أن نميز تمييزاً دقيقاً بين المراحل التي مر بها « فكر وعمل مالرو » بهدف دراستها ، كما يفعل غولدمان ، على سبيل المثال(١) . ثمة ما يعزينا بأن نظن ذلك ؛ فمالرو قد تغير ، من الناحية السياسية ، ولا أحد يجهل ذلك ، ويمكن أن نبحث عن أساس هذه التغيرات التي طرأت عليه في تطورٍ له أكثر عمقاً .

وينبغي القول إنه قد لا يكون في هذه التغيرات ما يتيح لنا مسبقاً تكوين حكم ذي قيمة ، وحين يشدد فيكتور هيغو على أن الأمانة الجامدة ليست فضيلة ، فهو على صواب تماماً ، إذ يقول : « إنه لإطراءٌ سيء لرجلٍ ما أن نقول عنه إن رأيه السياسي لم يتغير منذ أربعين عاماً ؛

---

(١) « مدخل إلى دراسة بنيوية لروايات مالرو » ، انظر : المراجع العامة التي نقدمها في نهاية الكتاب .

فهذا يعني أنه لم تكن لديه تجربة يومية ، ولا إعمال للفكر ، وأنه لم يجعل فكره يعكف على الوقائع ، ومعناه الثناء على الماء لأنّه راكد ، وعلى الشجرة لأنها ميتة (١) »..

« ويشير مالرو أيضاً إلى أن تطور بيتشه له من الأهمية في التاريخ أكثر مما لثبات هذا الشخص أو ذاك(٢) » .

ومع ذلك ، فأنا شخصياً ، أتلمس ثبات مالرو ، في المواقف الأساسية أكثر مما أتلمس لديه تطوراً كتطور بنتشه . فقد كان تطوره يبدو لي بالأحرى أشبه ما يكون بتلاؤم لخياراته الأولى نفسها مع مواقف مختلفة . وهكذا ، فسأحاول جهدي أن أحصر قبل كل شيء « الثوابت» الملحوظة في مؤلفاته بأكملها — وهي الثوابت التي تلقي الضوء جزئياً على الأقل ، على جوانب الالتزام المتعاقبة لديه . وأي حكم يخرج به بعد ذلك ، وأي اتجاه نختاره بأنفسنا ، سيكون بحثاً غنياً بالدروس لفهم عصرنا .

وعي المصير :

إن الكلمة الكبيرة ، كلمة « مصير » هي بلا ريب الكلمة التي تتكرر في مؤلفات مالرو ، في أكثر الأحيان . إنها تتكرر أكثر مما ينبغي !: فلا يسعنا أن نمتنع عن التفكير بالمقطع التالي من أحد حوارات رواية « أشجار جوز الألتا نبرغ » :

— الوعي الذي نمتلكه عن مصيرنا .

---

(١) يوميات أحد ثوريي عام ١٨٣٠ ، تشرين الأول .

(٢) رسالة من مالرو إلى أرمان هوغ ، قد ترجمها عن الانكليزية جوزيف هوفمان، في كتابه : « النزعة الإنسانية عند مالرو » الصفحة ٣٦٩ .

فقال تيرار متشككاً :

ـ يا للشيطان !

ـ أنت لا تحب هذا النوع من الكلمات ؟ ... ولا أنا .

ـ أي أني أود أن أعرف ماذا تعني بالضبط ... (١) .

إن الكلمة خطيرة فعلاً . فهل تعني « القدر » ، وعدم إمكانية القيام بأي عمل حر ؟ أو تعني فقط الشروط المفروضة على الإنسان والتي يمكن مع ذلك أن تتوفر له في إطارها الإرادة والفعل ؟ ... إن مالرو يورد أحياناً ذكر) (الإذلال « الذي لا يحول ») ، إذلال مصيرنا ، وأحياناً (« إمكانيته » غير المحدودة) . ولا شك أن القارىء المتنبه سيرى جيداً كيف يمكن لهذين التعبيرين أن يتوافقا (٢) ــ ولكن لماذا لم يستخدم مالرو العبارة ذاتها ؟ هل يستخدمها لأثرها الغنائي ؟

ومع ذلك ، فالمعطيات الأولى التي يذكر بها فنسان بيرجيه هي معطيات بساطتها حتمية : فنحن لم نختر أن نولد ، ولا أن نولد كما نحن : إن صبغياتنا ، وأبوينا ، ووسطنا ، وعصرنا ، « تفرض علينا فرضاً » . سوف نموت ، ولكننا لا نعرف اليوم ، ولا الساعة التي نموت فيهما . إن الملايين من الكائنات البريئة تتعذب وتموت كل لحظة في العالم ،

---

(١) أشجار جوز الألتنا نبرغ ، الصفحة : /١٢٧/ .

(٢) إن موت أولئك الذين نحبهم ، وعذاب الأبرياء هما بالنسبة إلينا إذلال لا يحول ، وهما الدليل على عجزنا ، وعلى ظلم العالم . ومع ذلك ، فالحياة تضع أمام إرادتنا كثرة كاثرة من الممكنات ... ومن بين المعنيين اللذين أشرنا إليهما لكلمة مصير ؛ فالمعنى الثاني هو الذي يجب أن نختاره ، في الوقت الذي نؤكد فيه تأكيداً شديداً على الشروط التي تفرضها على الإنسان قوانين الكون المختلفة ، وسيقول مالرو ، في المذكرات المخالفة ، إن أحد أعمق التحولات التي يمكن للإنسان أن يخلقها هي تحول المصير الذي نتحمله إلى مصير نسيطر عليه .

أمام أولئك الذين يحبونهم ، ويضيعون في العالم الذي يجهلهم ... فهل هناك حاجةٌ لنتكلم عن ذلك أكثر ؟ هذا هو الذي يمكن أن نسميه المصير .

ماذا نستطيع حياله ؟ ... يقول بيكون : « نحن لا نتحكم بالطبيعة إلا إذا امتثلنا لها » ، وحين نتوصل إلى معرفة حتمية الظواهر معرفةً دقيقة ، في مجالٍ معين ، نستطيع ، من خلال تغيير عنصرٍ معين موجودٍ تحت تصرفنا ، أن نوجه مجمل العناصر حسب أهدافنا . إن معرفة قوانين الصاعقة ، والطاعون هي القدرة على التغلب عليهما . أما النجوم السديمية فقلما تهمنا . والعلم يعيد اليوم أطفالاً كانوا يموتون في السابق إلى أمهاتهم . فما أكثر الذين آمنوا بأن العلم يحمل آمال العالم ؟

إن ما يدعو إلى الاستغراب هو أن مالرو قلما يتحدث عن « الصدفة »، باستثناء كلامه عليها في أول مؤلفٍ له ، فهي التي تقذف بنا إلى المأسوي « يكتب ألبير كامو أن قرننا يكتشف بقلقٍ أن تخليص الإنسان من المصير يؤدي إلى تسليمه للصدفة(١) » ؛ فالعلم ، الذي ينقذ الطفل حين يعرف قوانين مرضه ، هل يمكنهأن يمنعه يوماً من أن يقع تحت سيارة سائق مجنون ؟ وحتى لوتوصلنا إلى معرفة حتميات حقيقية،وليس حتميات إحصائية فقط ، كما كان اينشتاين يرى ، خلافاً لها يزنبزغ لبقي أن حتميات القطاعات السببية المختلفة ستتقاطع دوماً فيما بينها ، بالنسبة إلينا ، في نقاطٍ غير متوقعة . ومهما وضعنا من « ضمانات » ، وأثرنا

---

(١) الإنسان المتمرد ، الصفحة : /١٤٨/ .

على المجموعات الكاملة ، حين لا نتمكن من التأثير على العناصر المنفصلة ؛ فان الخطر يترصدنا دوماً . وسواء كنا محظوظين أم سيئي الحظ ؛ فان الطارىء يفلت منا ... « قالت ملكة مدينة الغرائب(١) ؛ إنهم يدعونني الموت ، وأنا فقط الطارىء ، وما التدمير البطيء سوى أحد أقنعتي » .

استحواذ الموت :

وعلى أية حال ، « فالموت هو الذي يفوز دائماً(٢) » ،في الحقيقة ، كما كان ستالين يقول لديغول . « إن ظروف الموت قد ترتبط بالصدفة ، أما الموت نفسه فلا يرتبط بها بالتأكيد(٣) » . وسواء سببه الناس ، أو كان عرضياً ، أو « طبيعياً » (وأية بلاغة في هذه الكلمة ! (، فالموت ينتظرنا جميعاً — وهو حاضرٌ باستمرار في مؤلفات مالرو ؛ فلقد كان مستحوذاً عليه .

إنه يطرح على نفسه السؤال التالي بلا جدوى :

« بالنسبة للملحد مثلك ، من أية ناحية تعتبر لحظة الموت مقبولةً أكثر من أية لحظةٍ أخرى ، أو إذا شئت ، أكثر منها أهمية ، من حيث الحكم الذي تجعلك هذه اللحظة تحكم به على الحياة ؟ (١) » .

فالرد هو الجواب الذي أوحى لسارتر بمسرحية « جلسةٍ سرية » بكاملها : « إن الشيء الرئيسي في الموت هو أنه يجعل ما سبقه غير قابلٍ للتعويض ، وإلى الأبد . أما التعذيب ، والاغتصاب اللذان يتلوهما

(١) أقمار من الورق ، الصفحة : /١٨٥/ .
(٢) رسالة من مالرو بتاريخ ١٩٦٩/٩/١١ / .
(٣) ان هيرنانديز هو الذي يطرح السؤال ،غير أن مالرو قد نسب لنفسه رد مورينو ، « الأمل » ، الصفحة : /٢٢٦/

الموت ، فأمران مخيفان فعلاً ... » إن الموت يحول الحياة إلى مصير واعتباراً من الموت ، لا يعود بالإمكان أن يعوض شيء ، ولا يعود للمرء سلطان على نفسه..

إن مالرو لا يسلم بالرضوخ للموت ، وهو يرفض ذلك الرضى الذي أبداه تجاه الموت كل من مونتيني ، وغوركي ، وفرويد ، وألكسي تولستوي ، ولانجوفان ، والكثيرون غيرهم ، منذ عهد أبيقور : « لقد كان أبيقور يقول إنه لا ينبغي للموت أن يخيفنا ؛ فهو تلك اللحظة من لحظات الحياة التي لن يتعين علينا أبداً أن نعيشها » . ويردد جان باروا(١) أن الموت ليس سوى جانب من جوانب الوجود الكوني ، وهو رجوع العناصر التي تكوننا إلى عمليات الإنتاش البطيئة لحياة الكون . أما التفكير بصورة مستمرة أننا قد خلقنا من التراب وسنعود إلى التراب فهو لا يعدو أن يكون إفساداً لحياتنا بتفكير ما ورائي . ألم يمت أندريه جيد مطمئناً ، حسب شهادة مارتان دوغار ، وهو في حالة من عدم الإيمان صافية ، ومن الامتثال الكامل : « إن هدوء تلك النهاية حسنُ الأثر ، كما يكتب صديقه ، إن هذا التسليم ، وهذا القبول النموذجي للقوانين الطبيعية هي أمور معدية . ويجب أن نكون في غاية الامتنان له ، لأنه عرف كيف يموت ميتةً « حسنة » بهذه الصورة(٢) » . أما مالرو ، الذي خاطر بحياته مئة مرة ، وهو يعي ذلك ، فيرفض رفضاً شرساً ذلك القبول لقوانين العالم . فيمكن للمرء أن يقبل موته الشخصي ، وحتى أن يرغب فيه ، فليكن أما موت الكائنات التي يحبها ؟ موت أطفاله ؟ والعذابات التي

---

(١) روجيه مارتان دوغار ، جان باروا : « الوصية ، الصفحات الأخيرة من القسم الثاني » .

(٢) روجيه مارتان دوغار ، ملاحظات حول أندريه جيد ، الصفحة الأخيرة .

لا جدوى منها ، والتي تحيل الكائنات الشابة والمفعمة بالحياة إلى جثث ؟

ومع ذلك فالموت ، وحتى موت أقاربنا ، ليس أعظم أمر لا يحتمله الإنسان فنحن محدودون في كل شيء ، وموثقون فوراً ، مثل كلب بسلسلته ، وغير مؤهلين للديمومة ، فليس لنا إلا حياة واحده ؛ بينما نشعر أننا قادرون على أن نعيش ثلاثين حياة . إن أشكال العبودية تحاصرنا ... وأكثر الأحاسيس الإنسانية مأسوية هو بالتأكيد الإحساس بالعجز » . أمام الموت ، وأمام الحتميات الطبيعية — بل أكثر من ذلك أيضاً أمام ما يمكن أن يكون مختلفاً حسب ظننا وهو : ضروب قصورنا الذاتي مثلاً(١) . وإرادة الشر لدى كائنات هي في مثل وضعنا ، أو إرادة الشر في أنفسنا ، وسحق إمكانات الإنسان ، وتبديدها تبديداً منافياً للعقل على يد الإنسان أو المجتمع :

« يقول مالرو : إن الحوار بين الكائن البشري والتعذيب ، وبين الكائن البشري والإذلال هو أكثر عمقاً من حوار الإنسان والموت(٢) » ، وليس هناك حاجة للتعليق على هذه الجملة ؛ فهي تستهل في « المذكرات المخالفة » ، الفصل الذي يدور على معسكرات الاعتقال .

رفض كل دين :

إن الأديان والأساطير ، منذ آلاف السنين ، تبني لنا من الأحلام ما تحمينا به من الموت ، ومن العبث ، ومن وساوسنا المتسلطة ؛ فاعتقادات

---

(١) إنها مأساة ت.ا. لورنس ، فهو يقول : « إن أحد الأشياء الأكثر إثارة للحزن في الحياة ، هو أن يصل الإنسان إلى اكتشاف قصوره الذاتي » وقد أورد مالرو ذلك ، في فصل : « أكان ذلك كل ما في الأمر ! » وهو الفصل الوحيد الذي نشر في : « شيطان المطلق » .

(٢) المذكرات المخالفة ، الصفحة /٥٥١/ .

التقمص في الهند يمكنها أن تهيىءالأذهان لقبول الألوهية والشر في آن واحد ، وحتى لقبول عذابات الأطفال . أما المسيحية ، العاجزة أمام هذه المشكلة ، فتضطر لتقديمها على أنها سر خفي لا يمكن سبره (١) . وهي تبشر ، على أية حال ، بإله للمحبة قد قاسى لأجلنا أسوأ أنواع الإذلال البشرية .

لئن كان مالرو يطعن على الكنائس ، فقد تكلم على الأديان الكبرى دائماً بتفهم واحترام : « كان أول تبشير بالمسيحية في روما لا يقهر ، لأنه كان يقول لعبدة مسترقة ابنة أرقاء ، وهي ترى ابنها العبد يموت عبثاً ، بعد أن ولد عبثاً : « إن يسوع ابن الله ، قد مات تحت التعذيب ، على الجلجلة ، لكي لا تكوني وحيدة أمام هذا الاحتضار(٢) » .

ولاتزال الأديان في أيامنا هذه تعرض معنى لحياتنا ، وأملاً . بيد أن تنزيلات وحيها المتناقضة لا تستند إلا على رغباتنا ، وهي لا ترتكز على أي إثبات ومالرو يرفض وهمها . وهو لم يتغير قيد أنملة حول هذه النقطة ، بدءاً من عام ١٩٢٦ حين كانلايزالمؤلفاًمغموراًتقريباً،وحتى عام ١٩٦٦ ، حين غدا كاتباً مشهوراً ، ووزيراً للثقافة ، فيؤكد في خطاب رسمي أثار احتجاجات عنيفة ، وبالوضوح نفسه :

---

(١) يجيب تشن على راعي الكنيسة الذي يسأله في « الوضع الإنساني » قائلا : « أية عقيدة سياسية تحسب حساباً لعذاب الإنساني ! » يجيب بقسوة : « أفضل أن أخفف هذا العذاب من أن أحسب له حساباً » . أما عذاب الحيوانات التي ليس لها روح ، ولا فردوس فتطرح على المسيحيين مشكلة مستعصية على الحل أكثر أيضاً من مشكلة عذابات الأطفال الأبرياء . ولقد سمي باسكال الخطيئة الأصلية : « الخطيئة الأكثر استعصاء على الفهم من سائر الأسرار الخفية » ، ومرشد فيركور الديني الذي كان مالرو يحبه ويحترمه ، وقد توفي في غلبيير ، يبين أيضاً أن الشر بالنسبة إليه ، ليس مشكلة ، بل هو سر خفي . (المذكرات المخالفة ، الصفحة : ٦٠٢) .

(٢) أصوات الصمت ، الصفحة : /٢٧٩/ .

« لن أقبله أبداً (أي الإيمان الديني) ، ولن أذل نفسي فأطلب منه الاطمئنان الذي يدعوني إليه ضعفي(١) . إن حضارتنا الحديثة قد أحلّت الفكر محل الروح ، ولم تستبدل بالدين الميتافيزياء ، بل الفكر العلمي ، وأحلت قوانين العالم محل معنى الحياة . إني لا أطلق حكماً هنا ؛ فلا فائدة من ذلك على الاطلاق(٢) » . إن أول ما يشرف الإنسان اليوم هو صفاء الفكر(٣) ، ومالرو ، شأنه شأن فاليري ، وكامو ، يرفض هنا رفضاً تاماً دعوة باسكال إلى التسليم : « لماذا ؟ ماذا لديكم لتخسروه؟.. إن هذا بالطبع سيجعلكم تؤمنون ، ويبلّد أذهانكم(٣) ... » ، أما مالرو القريب جداً من باسكال ، فلا يقدم حتى جواباً .

الفوز بالعظمة الإنسانية :

ولكن مالرو يرفض بالقوة ذاتها العبارة الثانية من تعميمات جان بول سارتر اليائسة : « كل منا يولد بالصدفة ، ويعيش بسبب جبنه ، ويموت اتفاقاً .. كل موجود يولد بلا مبرر ، ويمتد به العمر بسبب ضعفه ، ويموت مصادفة » .

فلئن كانت الولادة والموت يفلتان إلى حد كبير من سلطتنا ، فلدينا المقدرة على أن نؤثر في حاضرنا بعض الشيء : وأن نختار ، ونحصل من أنفسنا على أفضل ما نستطيع أن نكون عليه . إن المشكلة الدائمة لدى مالرو ، وهي مضمرة في كل ما يكتب ، كما يقول شخصياً ، هي

---

(١) إغراء الغرب ، الصفحة : ٢١٧ ، وانظر هنا الصفحة /٥٩/- (الأصل الفرنسي)

(٢) خطاب بمناسبة تدشين دار الثقافة في أميان .

(٣) انظر أعلاه ، الصفحات من ٥٨ - ٦٣ (الأصل) .

(٤) الصفحة ما قبل الأخيرة في رهان باسكال .

المشكلة التالية : « كيف نجعل الإنسان يدرك أنه يستطيع تأسيس عظمته ، بدون الدين ، وعلى العدم الذي يسحقه (١) » .

إنها المشكلة الفردية لبيركن ، وكلود فانيك ، وغارين . أما إذا كان بيركن قد اختار الثورة ، وليس شيئاً آخر ، ليحقق ذاته ، فليس ذلك فقط بسبب كراهيته للبورجوازية وتقززه منها ، بل لأن الثورة وحدها ، في نظره ، وبعد زوال البوذية ، يمكن أن تظهر الكرامة الإنسانية للبؤساء الذين لا أمل لهم ، بؤساء المدن الكبرى ، في آسيا ، « الذين تنهكهم دهشة وجودهم في هذا العالم ، خلال ثلاثين عاماً من الجذام ، والزهري ، أو السل ، في جو من عدم اكتراث الناس اللامتناهي بهم .

« إن الحمالين يعرفون الآن أنهم موجودون ، وأنهم موجودون فحسب ! » وتلتقي هنا جمل « أصوات الصمت » جمل « الظافرون(٢) » ، فالهدف العميق لها هو الهدف ذاته .

ويتعين على كيو ، وكاتوف ، وماي ، وكاسينر ، وغارسيا ، ومانويل ، وكذلك على هيرنانديز أو على لونيغوس ، وعلى فنسان بيرجيه وابنه ، وعلى العجوز باركا ، وعلى المقاومين الفرنسيين ، والإسبان ، في « المذكرات المخالفة » ، يتعين عليهم جميعاً أن يؤكدوا أولاً كرامتهم الأساسية هذه ؛ وتلك هي المشكلة الاولى في « الأمل » ، والثورة لا تحلها لنا ، كما يقول غارسيا ، بل تتيح القضاء على ألوان الاضطهاد الأكثر إحداثاً للاستلاب ، وهذا شيء كثير ؛ « فبالنسبة

---

(١) رسالة من مالرو إلى أرمان هوغ ، وقد ترجمها عن الانكليزية جوزيف هوفمان (النزعة الإنسانية عند مالرو ، الصفحة ٣٦٩) .

(٢) أصوات الصمت ، الصفحة : ٢٨٠ ؛ والظافرون (القسم الأول) .

للإنسان الذي يفكر ، تعتبر الثورة مأسوية ، إلا أن الحياة أيضاً بالنسبة لإنسان كهذا تعتبر مأسوية . وإذا كان يعتمد على الثورة ليزيل مأساته ، فهو يفكر بطريقة سيئة ، هذا كل ما في الأمر(١) » .

يجب أن نطلب من البنى الاجتماعية أن تكون قادرة على أن توفر لكل فرد إمكانات كرامته ، ولكن هذه الكرامة نفسها ستكون مثلما نصنعها .

قيم مالرو :

ما هي القيم الكبرى للإنسان ؟

إن مالرو ، حسب معرفتي ، لم يتغير حول هذه النقطة أيضاً . ولربما يكون قد أعلن ، بأكبر قدر من الجلاء ، الخيارات الأساسية لحياته كلها ، تلك الخيارات الواضحة للغاية ، وذلك في أحد خطاباته التي يغلب عليها الطابع السياسي (في آذار من عام ١٩٤٨ ، في قاعة بلييل ، حين كان مالرو في أوج الفترة التي عمل فيها مع تجمع الشعب الفرنسي) :

إننا نعلن أولاً قيم معينة ،
وهي ليست اللاوعي ، بل الوعي .
وليست التخلي ، وإنما الإرادة ،
وليست حشو الرؤوس ، بل الحقيقة ،
وأخيراً ، حرية الاكتشاف .

---

(١) « الأمل » ، الصفحة : / ٣٩٠/ .

إن كل تلك القيم لا تتخذ لها شعاراً: « نحو أي هدف؟ » لأننا لا نعلم عن هذا الهدف شيئاً ، بل « انطلاقاً من أين ؟ » كما في العلوم المعاصرة(١(

إن الذي ضلل عدداً من النقاد في هذا الميدان ، فضلاً عن المفردات الدينية التي استخدمها مالرو بصددالفن المعاصر ، هو أنه غالباً ما طعن بعنف على النزعة الإيهامية للعقل والتقدم ، كما هيمنت في القرن التاسع عشر ، على نحو بالغ الانتشار . خصوصاً في إحدى محاضراته الشديدة التشاؤم ، والتي ألقاها في السوربون ، بعد الحرب بقليل . إن مالرو لا يقبل بالأحلام . ويبدو تنبؤ أنجولرا في « البؤساء(٢) » كئيباً بالنسبة لمن يقرؤه مجدداً ، بعد مئة عام ، أي بعد هيروشيما ، ومعسكرات هتلر أو ستالين وقصف الفيتنام . فلقد جعل عصرنا آمال البشرية متواضعة ! .... أما أن نجعل من مالرو مخالفاً للنزعة العقلانية ، فهذا ، بالتأكيد ، تفسير معكوس تماماً ؛ فلطالما مجد ، على النقيض من ذلك ، « هذا التمرين الدقيق للفكر ، والذي يدين به الغرب للنزعة العقلانية ، وللعلوم(٣) » . ولا شك أنه في العديد من المجالات (كالفن ، والحب ، والبلاغة ، وحتى الالتزام السياسي (؛ فان حساسيتنا هي التي تستجيب أولاً ؛ ولا نعقلن إلا فيما بعد .... ولكن ينبغي لنا أن نفعل ذلك .

إن طرائق مالرو ، وقد ذكر بها قبل قليل ، هي طرائق العلم

(١) تذييل في نهاية رواية « الظافرون » .

(٢) يتنبأ أنجولرا بحلول السلام النهائي ، والعدالة الاجتماعية التامة في قرننا . ولقد وضع هيغو بالتأكيد تنبؤاته على لسان شخصية شديدة الحماس ، وهو يتهمها بالطوباوية ، بيد أنه كان شخصياً يأمل فعلا أن يتحقق توحيد الدول الأوروبية ، وقيام الجمهورية العالمية نحو عام ١٩٥٠ .

(٣) خطاب في مؤتمر الأليانس العالمي ، بتاريخ ٢١ حزيران ، ١٩٦٠ .

المعاصر ، لأنه ليس هناك طرائق أخرى موثوقة . أما تعريفه للحقيقة فهو شديد القرب من تعريف اينشاين لها ؛ فمالرو يقول(١) : « إن الحقيقة هي ما يمكن إثباته » ، ويقول إينشاين : « الحقيقة هي ما يصمد لاختبار التجربة (٢) » .

إن لدى الأول منهما ، كما لدى الآخر ، التشكك ذاته بالعقائد الجامدة ، و« بالفلسفات » ؛ فليست فلسفة« معينة » غالباً سوى التعميم الذي يجريه واضعها بصورةٍ متعسفة لنفسيته (٣) . وأكثر الفلسفات اتساعاً ، والتي ينبغي أن تبقى مع ذلك أكثرها حذراً ، تظل جزئية . « هناك الكثير من الأشياء في السماء ، وعلى الأرض يا هوراشيو ، بحيث لا تتمكن فلسفتك أن تتخيلها » . إن جملة هاملت هذه تصح على أي شخص كان .

إرادة الاكتشاف :

أما العقائد ، فهي تجمد الفهم . ولئن كان مالرو يلح كثيراً على حرية الاكتشاف التي لابد منها ، بعد أن يقتضي توفير شروط مادية يتمكن من خلالها كل فردٍ من أن يكون محققاً لذاته ؛ فذلك لأن هذه الحرية هي المهددة أكثر من غيرها دائماً ، فهي مهددة من قبل في مجال العلم ، كما هي مهددة خصوصاً في السياسة ، وفي حياتنا اليومية .

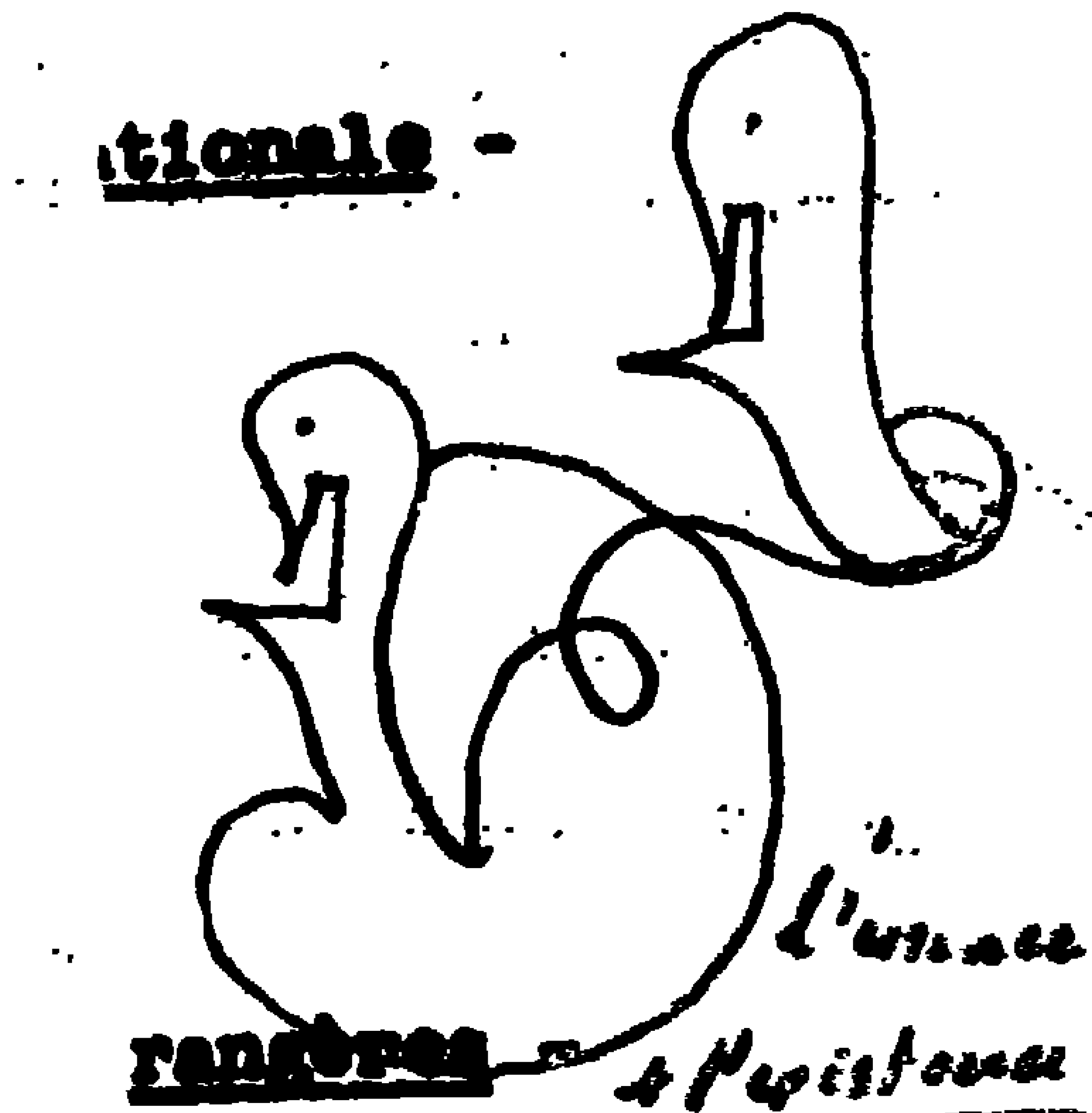
---

(١) تذييل في آخر كتاب « الظافرون » وقد استعار مالرو عبارة ليون برونشفيك .

(٢) لقد ردد فاليري هذا القول عشرات المرات ، ومثال سارتر بهذا الصدد مدهش ، فقد نجح في أن يصنع من معطياته الشخصية منظومة فلسفية كانت قابلة للتصديق ، انظر في هذا الموضوع : الصفحات الأخيرة من كتابه السيري : الكلمات ، الجزء الأول ، غاليمار) .

(٣) اينشتاين : مفاهيم علمية وأخلاقية ، واجتماعية .

إن كل جمود عقائدي هو نزعة محافظة ، ويمكن للعادات أن تكون أيضاً ضروباً من الاستلاب !



إن رسوم مالرو هي رسوم بسيطة جداً على الدوام تقريباً ، وهي غير متوقعة ، ومتهكمة ، وحتى رقيقة – وهنا – الجوهر والوجود – مثلها ، مثل « وصول غريبي الأطوار » – قد رسمت في مجلس الوزراء ، على ورق الجمعية الوطنية (أنظر : الصفحة /٤٠/ من الأصل الفرنسي حيث نجد رسماً مماثلا) .

أن نعرف بالضبط من أين ننطلق ، و« نتثبت » من الأمور ، بل وأن نسأل ونبحث ، دون توقف ، طالما نحن لا نملك مفاتيح العالم ، ونفحص الأمور من جديد ، ثم نسأل المجهول ، ونعيد التحقق ، ونسأل أيضاً – ذلك هو ما طلبه مالرو دوماً . إن العلوم ، والفنون ،

وفن العيش ، والعيش المشترك هي بالضرورة أمور « تتصف بالمراجعة » ؛ فالعيش تلاؤم .

لعل هيغو كان يفضل لو أنه حذف من « البؤساء » تنبؤ أنجولرا الذي كان يشعر بأنه تنبؤ ساذج(١) ، ولكنه تجرأ على إعلان الصيغة التي تجمع مكتشفات الإنسان العظيمة كلها ، وإبداعاته ، وانتصاراته(٢) ، في أي مجال ، دون أن يخشى السخرية :

« يسألونني : إلى أين تذهب ؟ وأنا أجهل ذلك ، ولكنني أمضي » .

(ولم يكن يمنعه ذلك من أن يكون حذراً !) .

وكان مالرو ، وقد رأينا ذلك ، يكتب على هذا النحو ، منذ العشرين من عمره :

« أن يسعى الإنسان نحو هدف غير واضح المعالم ، في نفس الوقت الذي يقدّرُ فيه الأهمية التي يمتلكها لتكبير هذا الهدف ، والإمكانية التي تتوفر له لتحقيق ذلك ، هذا هو التعبير الجلي عن كل ذكاء ، وكل إيمان حقيقي(٣) » .

« كل ذكاء » . إن غزو المجهول هو نقيض الاستسلام للاشعور ،

---

(١) لقد أبقى الجملة أخيراً بناء على إلحاح عدد من المعجبين المتحمسين وغير الحصيفين .

(٢) بدءاً من انتصارات « الاكتشافات الكبرى » ، بحد ذاتها « مكتشفات ملاحي القرن التاسع عشر » ، ومالرو يرجع إليها تحديداً .

(٣) مجلة العمل « أكسيون » ، آذار ، ١٩٢٢ .

وللشعور الباطن ، وللانفعالات السلبية الراضية عن ذاتها في أعماقنا . (فلنحول إلى « وعي » أوسع تجربة ممكنة ، هكذا يطلب غارسيا(١) ! » . (ويقول كاسنير : ما هي الحرية ؟ إن لم تكن « وعي » أقدارنا « وتنظيمها (٢) ») . إن مالرو يحترس من التحليل النفسي ، ويسخر فنسان بيرجيه قائلاً : « إنه علم النفس الإنفرادي » ، مثلما نقول « النشل(٣) » . إنه يقبل أن ندرس اللاشعور بالتأكيد (حرية الاكتشاف!) ولكنه لا يقبل أن نصنع منه قيمة معينة ، وأن نوليه مكاناً متميزاً ؛ فليس اللاشعور هو الذي يجعلنا بشراً . إن ما يصنع منا بشراً هو أن نعرف قوانين اللاشعور لكي نجعله يخدمنا فيما نريد ، مثله مثل أية حتمية من الحتميات التي تجبرنا على السير بحسبها .

تطور مالرو :

كالحتميات الاقتصادية والاجتماعية على سبيل المثال ...

فهل كان مالرو ماركسياً ؟ فلنطرح هذا السؤال ، لأن كل الناس يطرحونه . إن كل فلسفة في نظره هي فلسفة جزئية ، وقد رأينا ذلك ، منذ قليل . ونتيجة لذلك ؛ فالماركسية أيضاً فلسفة جزئية ، وهي بعيدة جداً عن أن تجيب على كل أسئلة البشر . وحتى في ميدان التاريخ ،

(١) الأمل ، الصفحة : ٣٨٩ .

(٢) لا ترد هذه الجملة في الطبعة النهائية « لزمن الاحتقار » ، وربما لأنها شديدة التجريد ، بالنسبة للموقف الذي يجد كاسنير فيه نفسه ، ولكن مالرو يستخدمها مجدداً في « مشاهد مختارة » ، الصفحة : /٤٦/ .

(٣) أشجار جوز الألتنبرغ ، الصفحة : /٩٠/ .

فمالرو لم يعتبر قط أن (صراع الطبقات هو المفتاح « الوحيد(١) ») ، كما يقول ، فهذا يبدو له تبسيطاً للأمور .

غير أن الماركسية كانت تتميز ، في نظره ، بتفوق محقق على عدد من المذاهب الأخرى ، لكونها ، أو لأنها تريد أن تكون ، على الأقل ، تياراً واقعياً علمياً للفكر وللعمل — أي علماً للبنى الاقتصادية ، وإدراكاً لها ، وفي الوقت ذاته صراعاً من أجل تغيير هذه البنى حين تكون سيئة ، وبهدف إقامة بنى جديدة تلعب فيها القوانين دوراً لصالح الإنسان . وهناك جملة شهيرة يقولها الشيوعي كيو في « الوضع الإنساني » ، وهي تلخص المسألة جيداً ، كما تلخص خيار مالرو :

« في الماركسية ، هناك إحساس بحتمية معينة ، وتمجيد لإرادة معينة . وفي كل مرة تمر فيها الحتمية قبل الإرادة ، يتملكني الشك(٢) » .

العمل إلى جانب الشيوعيين :

لقد توجه مالرو إذن ، وخلال فترة طويلة ، نحو الماركسيين الأشد عزماً ، وهم الشيوعيون . ومع أنهم كانوا مقسمين ، وخائبي

---

(١) « مالرو من خلال ذاته » (سوي) ، الصفحة : ٩٤ . ن أكثر ما يعجب مالرو لدى ماركس هو الإرادة والوضوح . « إن الحركة التي تربط الصفحات الأولى من « الإيديولوجيا الألمانية بالمسودات الأخيرة من « رأس المال » هي « المزيد من الوعي » (خطاب ألقاه مالرو في موسكو ، آب ١٩٣٤) .

(٢) « الوضع الإنساني » ، الصفحة : ١٦٤ ، سوف يتناول مالرو مجدداً ، وبعد خمسة وعشرين عاماً ، التعارض نفسه بالضبط ، ولكن في سياق مختلف تماماً . « إما أن نعتقد أن مصير العالم مرتبط ارتباطاً كاملاً بالتطور السياسي والاقتصادي ، أو أن يكون هدفه المحافظة على القيم الإنسانية وخلقها » . (كلمة ألقاها في اليابان ، في كانون الأول ١٩٥٨ ، وقد أوردتها جانين موسوز ، في الفيغارو بتاريخ ١٢/١١/٥٨) .

الأمل ، ومثخنين بالجراح من جراء قرارات الأممية ؛ فقد كان الأمل في الصين إلى جانبهم وحدهم . وبعد استلام هتلر للسلطة ، كان الشيوعيون دوماً ، في أوروبا ، هم أول من أصابه القمع ، وكانوا غالباً الأوائل في النضال .

لقد قاتل مالرو معهم ، ومجد بطولتهم في ألمانيا ، وإسبانيا ، وامتدح خصوصاً إرادة الفعالية العنيدة لديهم ، ونكرانهم لذواتهم أمام ما كان ينبغي أن يفعلوه لينتصروا (إذ أن الكثيرين غيرهم أيضاً كانوا أبطالاً) ، وحسب معرفتي — وبرغم محاكمات موسكو ، ومحاكاتها للعدالة بصورة تثير السخرية ، وبرغم التصفيات الدامية ، والاستبداد الستاليني الذي أخذ يتضح أكثر فأكثر ، وبرغم ما رآه مالرو في إسبانيا نفسها — فهو لم يتكلم كلاماً علنياً قط ضد الشيوعيين ، أو ضد الاتحاد السوفييتي ، قبل نهاية الحرب الأهلية ؛ فقد كان يبدو له أن التهديد النازي وضرورات الاتحاد المناهض للفاشية تفرض السكوت عن تلك الأعمال ، طالما أن استحسانها مستحيل . وقد نصح جيد بالعدول عن نشر كتابه : « الرجوع من الاتحاد السوفييتي » نشراً فورياً (١) . ولكن الاتفاق الألماني — السوفييتي في آب ١٩٣٩ ، والمعاهدة السرية ، ولكن المنظورة ، بين ستالين وهتلر لاقتسام مناطق النفوذ تحل مالرو ، حسب تقديره ، من أي التزام ؛ فالوحدة المناهضة للفاشية التي انكسرت في ميونيخ ، قد تحطمت بصورة تامة . ومنذ ذلك الوقت ، وبالأحرى بعد

(١) ... وكان يتمنى على أية حال أن يتضمن الكتاب في الوقت نفسه : « انتقادات أو أشارات استحسان تجعله غير صالح ليستخدمه الرأسماليون .. التصريح لروجيه استيفان) .

هزيمة ألمانيا واليابان ، سيأخذ مالرو بالإفصاح عن رأيه بوضوح ، فيما يخص النظام الروسي :

« إن الإيديولوجيا الاشتراكية — وماركس أولاً — لم تلق بالعدالة إلى سلة المهملات ، على حد علمي . وحين طلب مني الحزب الشيوعي أن أحمل إلى برلين ، برفقة أندزيه جيد ، الاحتجاجات التي جمعت في أوروبا ضد إدانة ديمتروف الذي كان بريئاً من حريق الرايخستاغ ، لم يكن الأمر يتعلق بالبروليتاريا حصراً . ولربما يكون تطور الستالينية الحالي أمراً لا يمكن تفاديه ؛ ولكننا لم نقاتل كي نستبدل بالرأسمالية تلك السلطة الرابعة التي غدت شرطة الدولة فهل يتقبل المناضل في القاعدة الـ غي . بي . أو(١) بارتياح دائماً . وهل ستقبل محاكمة براغ اليوم العداء للسامية غداً؛ إذا أربكنا الجواب على ذلك ، فلابد أن نكون جاهلين بالتقنيات التي جعلت هذه الأمور مقبولة لدى هؤلاء الناس(٢) » .

إن قطيعة مالرو مع الستالينية ليست ، والحق يقال ، هي الأمر المدهش ؛ فمالرو ، مثله مثل فيكتور سيرج ، وكيستلر ، وكامو ، والعديدين غيرهم ، يرد بسهولة الاتهام الموجه إليه بالخيانة :

« حين يوعز ديمتروف الذي يستلم السلطة الآن بشنق بيتكوف البريء ، فمن الذي يكون قد تغير ، أنا وجيد أم ديمتروف ؟ »

إن الذي صدم بعمق عدداً من قراء مالرو السابقين ، وعدداً من

---

(١) الـ (G. P. U.) هي الشرطة السوفييتية السياسية من ١٩٢٢ حتى ١٩٣٤ (م: ز.ع).

(٢) كتب هذا المقطع عام ١٩٥٤ (مالرو من خلال ذاته ، سوي ، الصفحة ٩٦) ؛ انظر أيضاً : التذييل الوارد في آخر « الظافرون » .

الشبّان اليوم ، هو أنه انتقل بسهولة كبيرة، كما يقولون ، « إلى الجهة المضادة » وأنه أصبح مداح تجمع الشّعب الفرنسي » ومنظمه ، ووزيراً لديغول .

إعادة اكتشاف الأمة

المقاومة

أظن أن الجواب على ما سبق معقد ، غير أننا يمكن أن نفهم الأمر ، حتى ولو لم نسلّم به ، والمقاومة تفسر هذه المرحلة الانتقاليّة .

فمن عام ١٩٤٠ حتى ١٩٤٤ ، في فرنسا التي أخضعت ، والتي توافق حكومتها على تسليم اليهود ، يمتزج النضال من أجل العدالة والحرية بالنضال الوطني ، ولا يسع خيرة الناس في كل مكان إلا أن يتابعوا الكفاح المناهض للنازية ، فتضم هذه الحركة الشيوعيين مجدداً ، وسريعاً ؛ فينشد أراغون :

أعاد حزبي إلي ألوان فرنسا

فيا حزبي شكراً لك ، يا حزبي ، على دروسك (١) ...

أما مالرو فيؤكد : « أثناء المقاومة ، تزوجت فرنسا ، ولست الوحيد في ذلك(٢) » . إن الصورة ليست موفقةً في رأيي ، بيد أنها

---

(١) اراغون : ديانا الفرنسية .

(٢) المذكرات المخالفة ، الصفحة : ١٩٧ ، إن مالرو يحرص على هذه الصورة ، وقد استخدمها مرات عديدة ؛ فمثلا ، بصدد تيتو وستالين ، يقوم مالرو باستحضار مدهش يضع فيه الفتى الثوري ستالين ، وستالين العجوز الكلي القدرة في الكرملين وجهاً لوجه ، حيث يقول : « لقد تزوج تيتو يوغسلافيا ، مثلما تزوجت روسيا أنت » . (كاروفور ٢٧/١٢/ .

وبعد عشرة أعوام من ذلك التاريخ ، سيقول مالرو أيضاً : « ليس تيتو تروتسكياً ، وإذا لم يتزوج الرجلان الأمة نفسها ، فقد تزوجا الشرطة نفسها » . (كاروفور ٢١/آذار لعام ١٩٥٩ .

تدل حقاً على أن المسألة تتعلق بالتزام جديد وعميق لمالرو ؛ *
يتبين ، كما يقول ، أن « الأمة » تظل حقيقة أولى ، خلافاً لما كان يقوله العديد من الماركسيين ؛ وحرب ٣٩ – ٤٥ ليست صراعاً للطبقات ، ولكنها نضال ضد أمبريالية أشد خطورة من غيرها ، وضد نزعة عنصرية معينة . إننا نشهد تدويلاً للثقافة لم يسبق له مثيل ، ولكن « الأسطورة السياسية للأممية تحتضر(١) » في الوقت نفسه . وهذه هي مأساة القرن العشرين ، كما يقول ؛ فأية دلالة في أن يلغي ستالين نشيد الأممية كنشيد رسمي للاتحاد السوفييتي (٢) !

إن قرننا وحده يجبر الناس ، في كل مكان ، على الحماس نفسه للروح الوطنية . وكما مرت الثورة الفرنسية بالضرورة ، عبر الدفاع عن الوطن ، كذلك تمر العدالة الاجتماعية في عام ١٩٥٠ عبر حريات

(١) تذييل في آخر رواية « الظافرون » . إن مالرو لا يلوم ميشليه ، وهيغو ، وجوريس « لأنهم رأوا أن المرء يصبح أكثر إنسانية » بقدر ما يصبح أقل ارتباطاً بوطنه ؛ فلم يكن ذلك خساسة ولا خطأ ، كما يقول ، بل كان ذلك هو شكل الأمل » . غير أنه يحظى جزئياً ، حين ينسب إليهم الموقف التالي : « إن القليل من النزعة الأممية يبعد المرء عن الوطن ، والكثير من النزعة الأممية يعيده إليه » كما كان جوريس يقول (الجيش الجديد ، الصفحة ٣٨١) . أما هيغو ، فهو وإن ترجى قيام الجمهورية العالمية ، وتوقع تشكلها في عام ١٩٥٠ ؛ فقد غنى باستمرار حب الأمة ... وأطلق نداءات لحمل السلاح ضد المحتلين البروسيين ، وهي من أعنف النداءات ، في الأدب الفرنسي كله . وقد أوردتها مجدداً الصحف الفرنسية السرية ، أثناء فترة المقاومة (انظر : القصاص ، السنة الرهيبة ، في : المنتقيات الأدبية ، بورداس ، الصفحات : ١٦١و١٦٣و١٩٣) .

(٢) يقول مالرو : إن نشيد الأممية : « سيبقى مع ذلك مرتبطاً بروسيا ، سواء أرادت ذلك أم لا ، من خلال الحلم الأبدي بالعدالة بين البشر » . (تذييل في نهاية « الظافرون » ، ومن جهة أخرى ؛ فنشيد الأممية لايزال هو نشيد مختلف الأحزاب الشيوعية .

الأوطان بالضرورة ؛ وتتجسد كافة الشعوب المهددة فعلاً في رجل عظيم ، إذا كانت محظوظةً في أن يكون لها مثل هذا الرجل ، حتى وإن كان مخيفاً كستالين ، وتشرشل ، وديغول ، وكمال ، وفيصل ، وتيتو ، وماو ...

« إننا مرتبطون بالوطن ، في السراء وفي الضراء (١) » .

وهكذا يصبح اقتناع مالرو بالأطروحات الماركسية أقل فأقل . ولا يعود مؤمناً بالدور المتميز للبروليتاريا : فماو يجعل الثورة تنتصر ، في الصين ، على يد الفلاحين ، وعن طريق النزعة القومية ، برغم العقيدة الرسمية ، والنصائح الروسية . وتنتقل المبادرة في البلدان الصناعية إلى الشباب الذين تظهر لديهم الحاجة « لتنظيم قيامتهم (٢) »، غير أنهم يحسون اليوم نقائص مجتمع قد أصبحوا على هامشه بأشد ما يكون الإحساس . إن كل دولة تريد على أية حال استقلالها أولاً : كالفييتنام ، والهند ، ومصر ، والجزائر ، والدول السوداء ، وهنغاريا ، وتشيكو سلوفاكيا ورومانيا ... وفرنسا أيضاً .

ويبدو أن مالرو قد فهم فجأة ، أثناء الاحتلال ، لماذا لم يعرف كل من ت . ا. لورنس في العربية السعودية ، وبيركن الذي تسنم عرش قبائل المويس ، وغارين في كانتون ، وفنسان بيرجيه في السهوب

---

(١) تذييل في نهاية « الظافرون » .

(٢) أي يشعرون بضرورة جعل تمردهم فعالا ، وكاشفاً لطموحاتهم الأساسية . ومالرو يستمد من أحداث أيار ٦٨ بعضاً من أطروحات « الأمل » : « شيء هو البلبلة أحياناً ، ويود أن يصبح الإخاء » . إن النزعة الفوضوية لا تبني شيئاً ، ولابد للمرء أن يعرف ماذا يريد ، ويتخذ الوسائل اللازمة لذلك ، محاولا أن يتوقع كافة النتائج .

الأفغانية ، لماذا لم يعرفوا إلا الفشل في النهاية . إن التطعيمات لا تنجح على الأجسام الغريبة . وقد كان لابد لإسبانيا الجمهورية من أن تفترق ، وليس من غير حزنٍ عميق ، عن الألوية الأممية التي ساعدتها ببطولةٍ كبيرةٍ ... ويعطينا ثوريو عام ٩٢ ، والثوريون الروس ، والثوريون الصينيون ، والجمهوريون الإسبان الدرس ذاته ، وهو أنه ينبغي للانسان أن يعمل « أولاً » ، في وطنه الأصلي . ويقر مالرو بأن لا أحد يصنع للآخرين أمتهم » ، ومنذ ذلك الحين ومالرو يبحث عن العظمة الإنسانية في منبعها الوطني . ولئن أعطى الأولوية لفرنسا ، فذلك لأنه بكل بساطةٍ قد ولد فرنسياً ، وفرنسا هي أحد أشكال مصيره(١) ، وتلك هي إحدى مقتضيات نزعته الواقعية .

ويتبين له من ناحية أخرى ، وهذا ما يبهجه ، أن فرنسا لا تكون عظيمة قط إلا حينما تتكلم من أجل الجميع ، بخلاف بعض الدول كبريطانيا العظمى التي تزداد عظمتها غالباً بقدر ما يزداد تفردها . « إن فرنسا ، بالنسبة للعالم ، لم تعد فرنسا الكاتدرائيات ، أو فرنسا الثورة ، أكثر مما هي فرنسا لويس الرابع عشر(٢) » . إن خيار مالرو ، حول هذه النقطة إذن واضح ونهائي ؛ فهو سيبحث عما ينبغي أن تكون عليه الرسالة الفرنسية الجديدة ، وسيحاول أن يحملها إلى الجميع .

الديغولية :

ومن جهةٍ أخرى ، فان أحد الدروس الأكثر بلاغةً في رواية « الأمل » ، هو أن العمل يجب أن يفكر فيه بعبارات عملية— وليس

---

(١) تصريح لجانين موسوز ، بتاريخ ٢٢ نيسان ١٩٦٨ .

(٢) خطاب لمالرو بتاريخ ٢٤ تشرين الثاني لعام ١٩٦٣ ، في نيس .

بعبارات إيمانية ، وعقائدية أو مثالية ، وغالباً ما استهوى المطلق مالرو . أما الطّوباوية فلم تستهوه قط ، وهو لا يعبأ بأن يظهر متنكراً لآرائه ؛ فيجعل من إحدى شخصياته ، وهي شخصية شيوعي(١) ، من ناحية أخرى ، تقول : « من الأفضل للمرء أن يكون غير مخلص من أن يكون عديم الأهلية » ؛ فعلى المرء أن يفعل « ما يستطيع » ، وأفضل ما يستطيع وأن يفوز » :

« إذا فكر المرء ، يا هيرنانديز ، بما ينبغي أن يكون ، بدلاً من أن يفكر بما يمكن أن يفعله ، فهذا هو السم ، حتى وإن كان ما يمكن أن يفعله قبيحاً ، وكما يقول غويا ، فهذا السمّ لا علاج له . .. ولا وجود لأفكارٍ سياسية إلا من خلال مقابلةِ أمرٍ ملموس بأمرٍ ملموس آخر ، وبمقابلة « إمكانيةٍ معينة » بامكانيةٍ أخرى(٢) » .

وهكذا فان مالرو ، في عام ١٩٤٥ ، وبعد ذلك أيضاً ، أثناء السنوات التالية ، لا يرى أية سياسة « ممكنةٍ فعالةٍ » غير السياسة الديغولية ، في وجه السياسة الشيوعية التي يرفضها ، منذ ذلك الحين ؛ فالحزب الاشتراكي يبدو له مثيراً للسخرية ، أما هيريو والحزب الليبرالي فيجعلانه يهز كتفيه(٣) ، واليمين التقليدي « لم يبق منه غير الأنقاض(٤) » . ويشعر مالرو ، كرجلٍ عملي ، بالازدراء نحو الجمهورية الرابعة التي

(١) الأمل ، الصفحة : /٢٠١/ .
(٢) الأمل ، الصفحة : /٢١٣/ .
(٣) المذكرات المخالفة : الصفحة : /١١٥/ .
(٤) التجمع ، العدد : /٧٨/ .

تتورط ، منذ ولادتها ، في الحرب الحمقاء ، حرب الهند الصينية(١) . ويرى أن ديغول هو الوحيد القادر على أن ينتزع الفرنسيين من عفاريتهم ، وأن يفرض سياسة العظمة الصعبة ، سياسة الحرية للجميع ، بما في ذلك أفريقيا السوداء :

« إن السود المتطورين) (باستثناء هواة الوظائف المأجورة منهم) ، لا يريدون السوفييت ، ولا معارضي السوفييت ، بل يريدون تأمين التجهيزات لبلدانهم . إنهم لا يأبهون بالحزب الاشتراكي ، كما لا يأبهون بحركة التجمع الشعبي ، وبالراديكالية ، وبتجمع الشعب الفرنسي ؛ وسوف يتبعون ذلك الذي سيصنع من أفريقيا قارة من قارات القرن العشرين ، في الوقت الذي يعترف فيه بحقوقهم (٢) » .

ومنذ ذلك الحين ، يقرر مالرو أن يعمل بكل قواه في خدمة الديغولية ، دون أن يتطابق موقفه مع الطروحات الديغولية بكاملها . ولقد أسر لداستييه دولا فيجوري ، قبل وفاة هذا الأخير بقليل ، أنه كان يرى في التجمع من أجل فرنسا ، بين عامي ١٩٤٧و١٩٤٨ ، « حركة انتفاضة ثورية » — فسأله داستييه : كيف ؟ أنت تعني « استلام

---

(١) قال مالرو لديغول عام ١٩٤٥ ، حسبما ورد في المذكرات المخالفة : « إذا كنتم تبحثون عن الطريقة التي نحتفظ بها بالهند الصينية ، فأنا لا أقترح شيئاً ، لأننا لن نحتفظ بها . إن كل ما يمكننا إنقاذه هو نوع من إمبراطورية ثقافية ، وموطناً لقيم معينة . ولكن يجب أن نطرح فكرة « الوجود الاقتصادي» التي تتجرأ الصحيفة الرئيسية في سايغون على الكتابة عنه ، في عناوينها اليومية الكبيرة : « الدفاع عن المصالح الفرنسية في الهند — الصينية » ، الصفحة : //١٢٠/ .

(٢) « كاروفور » ، بتاريخ ٧ شباط ١٩٥٠ .

السلطة عن طريق العنف » ؟ فأجاب مالرو ـ نعم ، ولكن ديغول هو الذي رفض ذلك (١) .

« لقد أوصلنا ديغول إلى ضفة الروبيكون(٢) ، ولكن لكي نصطاد في النهر بالصنارة » إن هذه العبارة ليست لمالرو (ولربما تكون لديليك(٣) إلا أنها تعبر عن أفكاره بالتأكيد ؛ فتجمع الشعب الفرنسي يدخل هو أيضاً في لعبة الأحزاب ، ويختلط بصورة تامة تقريباً باليمين ، على الرغم من إرادة زعيمه . وفي عام ١٩٥١ ، يرفض مالرو ، برغم حث ديغول له ، أن يكون مرشحاً في الانتخابات التي كانت ، من ناحية أخرى ، فشلاً ذريعاً ... فيصوت ٢٧ نائباً من تجمع الشعب الفرنسي لصالح بيناي(٤) ، ويبدو أن الديغولية آخذة بالانهيار شيئاً فشيئاً .

أما الجمهورية الرابعة فتنهار تماماً ، وتطرح عليها الحرب الجزائرية مشكلات حلها أكثر صعوبة أيضاً من حرب الهند ـ الصينية(٥) . وهكذا

---

(١) الحدث ، آب ، ١٩٦٧ ، الصفحة : /٦١/ ، والمسارة ذاتها تقال لجانين موسوز في حزيران لعام ٦٧ .

(٢) الروبيكون : هو نهر يفصل بين إيطاليا وفرنسا القديمة ، وقد اجتازه قيصر في زحفه على روما ، والاستخدام هنا يعني : القرار الحاسم والجريء (م.ز.ع) .

(٣) المذكرات المخالفة ، الصفحة : ١٤٣ .

(٤) بيناي : سياسي فرنسي ، ولد عام ١٨٩١ ، وهو نائب مستقل ، وكان رئيساً للمجلس ، ثم وزيراً للمالية ، ثم وسيطاً بين الإدارة والمواطنين (المترجم : ز.ع) .

(٥) يعلن مالرو في « الإكسبريس » بتاريخ ٢٩ كانون الثاني ١٩٥٥ أن « سياسة » تعلن حقوق الإنسان في الوقت الذي ترفض فيه الإقرار بها ، وتأمل بالتوفيق بين الثوار الأفارقة و« كبار المستوطنين » هي سياسة غير مفهومة ... وعلى اليسار أن يختار بين دعوة البلاد إلى عمل معين ، مع تحمل التبعات التي يفرضها عليه هذا العمل ، أو دعوة البلاد إلى إلى حلم ، وهذا ما يقدم له أفضليات « انتخابية كبيرة » . وهنا نتعرف مرة أخرى إضافية بإحدى أطروحات « الأمل » الكبيرة .

فما إنْ يعود ديغول في أيار ٥٨ ، حتّى يهرع مالرو من البندقية، ويقر قائلاً ، وهو يبتسم(١) : « أميلُ إلى الظن بأنني مفيدٌ » . ولكنه لا يقبل أبداً أن يصبح نائباً ، بل يظل الوزير الوحيد الذي لا يتزحزح من منصبه عملياً ، والناطق الرسمي الناقد للنظام الجديد .

وفي هذه المرة أيضاً ، يبدو جلياً أنه لا يوافق على كل الأمور ، فيتعين عليه بخاصة أن يدفع ثمن التزامه للصمت عدداً من المرات ، وثمن بعض مواقفه بين عامي ١٩٣٣ و١٩٣٩. غير أنه يتفق مع النظام في المسألة الجوهرية ، وهي سياسته إزاء الجزائر(٢) . ولا يخرق مالرو أبداً التضامن الحكومي . أما متعصبو منظمة الجيش السري(٣) ، من ناحيةٍ أخرى ، فلا يخطئون التقدير ، ويستهدفون مالرو ، كما يستهدفون ديغول في محاولةٍ منهم لمنع استقلال الجزائر ؛ فتصاب الصغيرة ديلفين رونار بجراحٍ خطيرةٍ ، في المنزل الذي يقطنه مالرو ، على إثر انفجار عبوةٍ ناسفةٍ وضعت للاعتداء عليه (٤) .

ويظل مالرو وزيراً للثقافة حتّى عام ١٩٦٩ (٥) .

---

(١) المذكرات المخالفة ، الصفحة : / ١٢٤ / .

(٢) إن الجزائر هي المشكلة الأكثر خطورة بالنسبة إلينا ، نحن الفرنسيين ،وبالنسبة إليّ خاصة ، هكذا يقول مالرو للصحفيين المكسيكيين (نوفيداديس ٩/٤/٦٠) وتورد هذا الحديث جانين موسوز .

(٣) منظمة عسكرية إرهابية فرنسية ، عملت ضد الديغولية ونهجها في الجزائر . (م.ز.ع) .

(٤) حول هذه الأمور جميعاً ، انظر أعلاه : الصفحات ٣٢ ، وما يليها (في الأصل الفرنسي) .

(٥) ليس المجال مناسباً ، في هذا الكتاب ، لنبحث بالتفصيل عمل مالرو كوزير الثقافة ؛ فلقد عمل الكثير نسبياً بقليل من الإمكانات، وخصوصاً في مجال الفنون التشكيلية :=

ويهزم ديغول في الاستفتاء ، والسبب في ذلك يعود جزئياً إلى أنه كان ينوي ، في تلك المرّة ، وبعد الهزات التي حدثت في أيار ، أن يتعرض للمشكلات الاجتماعية(١) — ويترك مالرو السلطة في الوقت نفسه الذي يغادرها فيه ديغول ، دون تردد(٢) .

المستقبل :

ذلك هو تطور مالرو . فماذا سيفعل اليوم(٣) ؟ وبرغم تجاوزه

= فيرسم شاغال سقف الأوبرا ، وماسون سقف مسرح فرنسا ، ويقدم مايول منحوتات ميدان الفروسية ، ونصب الشهداء في جزيرة المدينة (ليل دولا سيتيه) ، وتقام المعارض الرائعة ، وتتطور بيوت الثقافة ... فقد كانت هذه المهمة الأخيرة تستهوي مالرو بصورة خاصة ، كما يقول ، وكان قد كرس لها جزءاً من حياته ... إنما يبدو لي أن مالرو قد أعاقه أيضاً تمييزه المفرط في شدته ، بين فنون البحث (التي قليلا ما تميل الجماهير إليها بالطبع ، والتي لا تطرح ، على الأغلب ، سوى ألف بحث مقابل أثر فني واحد ، كما يدل عليها اسمها) ، وفنون الإمتاع . فهل وافق ، لهذا السبب ، على أن يترك لآخرين غيره ، إدارة التلفزيون ، بينما ينبغي أن يكون هذا التلفزيون أحد وسائل الثقافة الأساسية في عصرنا ؟ إن فنون الأمتاع هي فنون أيضاً ، وقد كان كل مبدعي القرن العظيم يعلنون رغبتهم في أن « يقدموا المتعة ، ويؤثروا في النفس » ولم يكن نجاحكم في هذا المجال ضئيلا ، كما هي الحال لدينا . إن رفض أو إغفال فنون الإقناع معناه الإلقاء بالعمال ، بعد يومهم أو أسبوعهم المتعب ، نحو تقنيات إشباع الرغبات ، وعزل فنون البحث عزلا خطيراً .. ألم يكن تبييض أوابد باريس إقراراً بأن فن العمارة يجب أن يخلق نوعاً من الفرح بين المواطنين ، وأن يحافظ على قدرته على الإقناع ؟ .

---

(١) انظر أعلاه : الصفحة : ١٥٢ / .

(٢) ومع ذلك ، فهو لا يستقيل في ٢٨ نيسان ، مثل زميله كابيتان ، فيحافظ بذلك على التضامن الحكومي مرة أخرى أيضاً ، ولا يخرج من الوزارة إلا بعد انتخاب الرئيس الجديد للجمهورية ، وتشكيل وزارة شابان — ديلماس .

(٣) لقد عاش مالرو ست سنوات تقريباً ، بعد تأليف ونشر هذا الكتاب (م : ز . ع) .

للستين من عمره ؛ فمن الصعب أن نظن أنه يمكنه البقاء بلا نشاط . إنه يصب سخريته على الراضخين والقانعين – أو المتباهين الضعفاء الذين يكتفون بتوقيع العرائض ، ظناً منهم أنهم يصنعون شيئاً عظيماً لأنهم أداروا مواقعهم باتجاه « التاريخ » ! فالأفكار ، كما يقول مالرو ، يجب أن تعاش ، وإلا أصبحت لا شيء يذكر(١) . إن الإنسان ليس له وجودٌ إلا من خلال نضاله لتحقيق ما في ذاته ، وبالتواصل مع الآخرين .

فأي نضال هذا ؟ وهل يرى مالرو ، اعتباراً من الآن أن أفضل ما لديه ، لابدّ أن يكون كتابة الكتب وحدها ، والعمل على نشر الثقافة لأكبر عدد ممكن من الناس حتى وإن لم يعد وزيراً ؟ – هذا محتمل. وهو يرى على أية حال ، أن ذلك هو إحدى مهماته الأساسية :

« لقد أسر يوماً بقوله(٢) : أريد أن أموت مرتاحاً ... فاذا استطعت أن أقول لنفسي ، حين أموت ، أن هناك خمسمئة ألف شاب جديد قد انفتحت أمامهم ، بفضل عملي ، نافذةٌ سيتخلصون من خلالها من قسوة التقنية ، وعدوانية الدعاية ، ومن الحاجة لجمع المال أكثر فأكثر لينفقوه في أوقات فراغهم التي يمضون أكثرها بصورة مبتذلة أو عنيفة ، إذا استطعت أن أقول لنفسي ذلك ، فسأموت مسروراً ، أؤكد لك ذلك .

.... لايمكنني أن أفرض سرور محبة الفن على الجميع . أستطيع فقط

---

(١) الوضع الإنساني ، الصفحة : /٧٩/ .

(٢) لقد أسر بذلك لفاني ديشان ، في مجلة إيل « Elle » ، في شهر آذار لعام ١٩٦٧ ، وقد قالت : إن مالرو قد أفصح عن نفسه بهلوء ، وبصوت .. باهت ، ورقيق إلى حد ما . إن الانفعال الفني هو فرصة إضافية للتواصل بين الرجل والمرأة ، وبين البشر .

أن أحاول تقديم هذا السرور ، وتوفيره ، لكي يعطى لأولئك الذين يطلبونه » .

« الإخاء من خلال الجهد ، ومن خلال الأمل » : (١)

يتحدث مالرو اليوم ، في المذكرات المخالفة ، عن « الانقلاب الذي كانت حياته الدامية وغير المجدية مفعمة به(٢) » ؛ فحين طرح عليه داستييه دولا فيجوري السؤال الذي لا يحبّ أحدٌ أن يجيب عليه ، وهو : ما العمل السيء الذي قمت به ؟ اعترف مالرو قائلاً : « أعمال القصف التي نفذتها؛فأنا لم أندم عليها في حينها ، واقتضى ذلك مني سنوات؛ غير أن ذكرى أعمال القصف تلك تبقى ماثلةً في نفسي ، مثل عمقٍ غريب ، وقد لا يكون لدي إحساس بعملٍ سيء قمت به في دائرة حياتي الخاصة(٣) ... » .

ويصبح هذا الاعتراف أكثر مأسويةً خصوصاً وأن مالرو ما انفك يؤكد على أن نضال الجمهوريين الإسبان كان عادلاً ، وأن الشيء المهم في حرب من الحروب ليس أن يرضي المرء نفسه ، بل أن يكون منتصراً . فماذا كان ينبغي له أن يفعل في إسبانيا ، عام ١٩٣٦ ، ضد أعمال القصف التي قام بها فرانكو والطليان والألمان ؟ هل يفكر منذ ذلك الحين مثلما يفكر ألفيار العجوز :

« لو كان كل واحد يطبق على نفسه ثلث الجهد الذي يبذله اليوم لتحديد شكل الحكومة ، لأصبح العيش في إسبانيا ممكناً(٤) » .

---

(١) خطاب مالرو بمناسبة الذكرى السنوية للجمهورية ، في ساحة الجمهورية ، بتاريخ ٤ أيلول ١٩٥٨ .
(٢) المذكرات المخالفة ، الصفحة /١٢/ .
(٣) الحدث ، آب ، ١٩٦٧ ، الصفحة : /٦٠/ .
(٤) الأمل ، الصفحة : /٣١٨/ .

« تقول مقدمة (زمن الاحتقار) : من الصعب أن يصبح الإنسان إنساناً ، أما أن يصبح الإنسان إنساناً من خلال تعميق تواصله مع الآخرين فليس أصعب من تنمية اختلافه عنهم » .

إن كافة المشاهد الكبيرة في مؤلفاته هي حقاً تعظيمٌ للإخاء ، كما قيل عنها (١) : كصداقة بيركن وفانيك ، وصداقة غارين والزاوي ، واقتسام السيانور في « الوضع الإنساني » ، وكاسنير ورفاقه الذين يلتقون في محبة الناس ، برغم سجانيهم ، ورواية « الأمل » بكاملها تقريباً : جنود الجيش الشعبي و« الطيارون » ، والفلاحون الذين تتحدُ عواطفهم في المعركة نفسها ، في سبيل كرامتهم ، والتآخي الألماني — الروسي ، في « أشجار جوز الألتانبرغ » ، وفصل جان مولان ، والمبعدين ، في « المذكرات المخالفة » ... فأي مؤلف يمكنه أن يقدم احتفالاً تكريمياً مماثلاً احتفاءً بالتضامن الإنساني ؟

التساؤل :

إن الفن ، بلا شك ، يتيح لمالرو الاستمرار في هذه الطريق — التي لا عنف فيها . وإذ يؤلف مالرو بين جبهة للأوطان ، وللسلم ، ولألوان التواصل البشري ، يعلن اليوم في داكار ، وفي أثينا(٢) ، وفي برازيليا :

« إن الفكر لا يعرف أمةً صغرى ، إنه لا يعرف إلا أمم متآخية »

هذا تأكيدٌ جميل — ولا غنى عنه في زمنٍ تبعث فيه أشكال العنصرية بسهولة كبيرة . ولكن كيف لا ينتظر الشباب خصوصاً

---

(١) غايتان بيكون ، مالرو من خلال نفسه (سوي) .

(٢) في ٢٨ أيار ١٩٥٩ ، أي قبل قيام الديكتاتورية العسكرية الحالية (والتي سقطت فيما بعد : م.ز.ع) .

أن يأتي من رجلٍ مثل مالرو ما هو أكبر بكثير ؟ ويحس شخصياً بما يأخذونه عليه ، فيصوغ لومهم له أمام نفسه ، كعادته ، ومن غير مراعاة :

« فلتقولوا إذن ذلك صراحة » : ما الذي تصنعه بالتماثيل المصرية ، بدلاً من أن تهتم بالمنغاريين والجزائريين ؟ هذا ما تريدون قوله ؟ سوف أبين رأيي في ذلك يوماً ، وربما عما قليل (١) ... » .

إن مالرو يدين بهذا الإيضاح التفصيلي إلى كل قرائه في الواقع : فقد جعلهم متطلبين . وعلى أيه حال ، فهو يكرر لهم دون كللٍ ، وفي وجه أشكال التعصب من كل لونٍ ، أنه لايمكن له ، ولا لأحد ، ولا لأي إنسان ، ولأي مذهبٍ أن يطرح على البشرية أجوبةً جاهزةً . إنه يعرض المشكلة الرئيسية في عصرنا بوضوح :

« إنها إحراز ذلك القسط من العدالة ، والذي يمكن للناس أن يظفروا به ، دون أن يسحقهم الاستبداد البوليسي مقابل ذلك . أهذا صعبٌ ؟ إن كل ما هو صحيح ، في هذا المجال ، صعبٌ دائماً . ولكن من الواضح أنه لايمكن فصل أحد هذين المعطيين عن الآخر (٢) » .

« ليس صحيحاً أنه لايمكن تغيير الوضع العمالي .

ليس صحيحاً أنه ينبغي أن تدفع الحريات ثمناً له (٣) » .

يجب أن نبحث ، ونجرب ، ونتحقق ، ونحاول دائماً ... ومالرو يعرض علينا ، مرةً جديدة ، المثال اليوناني ، بصورةٍ رائعة :

---

(١) مجلة : الإكسبريس ، ١٨ أيلول ، ١٩٦٧ ... غير أن النص يسبق هذا التاريخ بعشرة أعوام ، وهو معاصر التدخل السوفييتي المسلح في بودابست ، ولحرب الجزائر .

(٢) كاروفوز ، ٢١ آذار ، ١٩٥٩ .

(٣) تصريح من مالرو لروجيه استيفان ، في ٥ تشرين الأول ١٩٦٧ .

« للمرة الأولى على هذه الأرض ، أصبحت كلمة « العقل » تعني التساؤل ... » ستقول لكم اليونان القديمة بعد قليل (١) . :

« لقد بحثت عن الحقيقة ، ووجدت العدالة والحرية ، وابتكرت استقلال الفن والفكر . وأنهضت الإنسان الجاثي منذ أربعة آلاف عام ، في كل مكان ليقف في وجه آلهته ، وفي الوقت نفسه ، أوقفته في وجه المستبد ... »

تساؤل وإرادة واكتشاف ، وشجاعة ، وإخاء ، تلك هي إنسانية الأمل التي يتوصل من خلالها إلى السيطرة الدائمة تقريباً على استحواذات الموت والمصير عليه . إن إنجازاته لم تكتمل بعد ، ولسوف تعطينا دون ريب فتوحاتها ومفاجآتها حتى النهاية ؛ فمهمة الناس إنما هي في الظفر بممكناتهم .

* * *

(١) كان هذا الخطاب يمثل المشهد الأول : «صوت وضوء» في الأكروبول ، بتاريخ ٢٨ أيار : ١٩٥٩ .

«٤»

فن مالرو



١ – فنّ الرّواية :

« يقول سانت – بوف : إن الرواية مجالٌ واسعٌ من التجارب التي تنفتح على كافة أشكال العبقرية ، وعلى كل الأساليب . إنها ملحمةُ المستقبل ، ومن المحتمل أن تكون الملحمة الوحيدة التي ستعتد بها الأخلاق المعاصرة ، من الآن فصاعداً .

كان سانت – بوف نافذ البصيرة ؛ ففي القرن التاسع عشر ، كانت روايات : « أدولف » و« ديريارما » ، و« الأب غوريو » ، و« البؤساء » (١) قد أثبتت إمكانية أن تعبر الرواية عن كافة أشكال الحياة والحلم . وقد أكد ذلك زمننا ؛ فبروست ، ومارتان دوغار ، ومورياك ، وكامو – هذا إذا اقتصر حديثنا على الروائيين الفرنسيين – يعيد كل منهم خلق عالم نحس بصدقه ، أما الزائف فيسقط من بين أيدينا .

فما هو الصدق الذي يشكل الصفة الخاصة لروايات مالرو ؟ وماذا تكشف لنا روايات مالرو عن نفسه ، وعن أنفسنا ، وعن العالم ؟

التحقيق الصّحفي :

إنها روايات راهنة ، وتحدثنا عن زمننا ، وهي لم تفقد ، كما أظن ، حضورها القريب ، حتى بعد مرور ثلاثين عاماً عليها . وبينما كان

---

(١) روايات شهيرة من القرن التاسع عشر ، وقد ألفها على التوالي : بينجامان كونستان ، وستندال ، وبالزاك ، وفيكتور هيغو (المترجم : ز.ع) .

دوهاميل ، وجول رومان ، ومارتان دوغار يعيدون إحياء الحرب ، أو فترة ما بعد الحرب ، كان مالرو يخوض غمار المعارك الدائرة ، ويحاول أن يعيشها ، وأن يحييها . لقد تغيرت المشكلات ، ولكن تغيرها كان طفيفاً إلى حد ما ؛ فلا تزال الثورة ، والحرية ، والشيوعية ، والحرب ؛ وما نسميه اليوم بالعالم الثالث تأتي في المقام الأول من الأمور التي تشغل أذهاننا . فنحن ، كالمؤلف ، معنيون بها مباشرة .

لقد كانت روايات مالرو حتى عام ١٩٤٥ قريبة جداً من الأحداث بحيث جعلتنا نرى فيها تحقيقات صحفية وحسب ـ أو روايات «وثائقية» مبنية حسب التقليد الواقعي ، إلا أنها ببساطة أشد منها حداثة .

كان بلزاك وزولا يطمحان أيضاً إلى جعل القراء يكتشفون « أوساطاً » جديدة ؛ فأخذا يقتحمان تلك الأوساط في الوقت نفسه الذي اقتحمتها فيه شخصياتهما الفنية ؛ فجعلانا نساق وراءها ، ومالرو يصنع الشيء نفسه ؛ فهو يعتمد على عنصر التشويق لدينا خصوصاً حين تكون الأحداث في آن واحد غير معروفة بالنسبة إلينا ، وراهنة ، ومؤثرة ، وحين نشعر بأنها شديدة الأهمية ؛ ولربما يتعين علينا أن نعيش أحداثاً مشابهةً لها . زد على ذلك أن الحرب العالمية قد أجبرتنا ، في الواقع ، على أن نعيش تلك الأحداث ! أما مالرو فكان قد تبين مسبقاً الأمور التي ستكون أساسية .

بالإضافة إلى ذلك ؛ فمالرو يريد أن يكون مقنعاً دائماً . ألم يكن الكثيرون ينظرون إلى رواية « الأمل » على أنها تحقيق صحفي كبير ، وكتاب دعائي ، ومؤلف يحمل قضيةً معينةً ، سواء كانوا راضين عنها أم غير راضين . إن « الأمل » هي كلّ ذلك حقاً ... ولا شك أن الروايات الأولى لمالرو قد اتفق لها أن صنفت على يد ناقد مثل تيبوديه ضمن إطار

« الأدب الإغرابي » –باعتبارها مغامرات تجري في الشرق الأقصى!– ولكنه من المؤكد أن « الظافرون» قبلاً و« الوضع الإنساني » ، وسائر الروايات التي أتت بعد ذلك تنتمي إلى أدب التوثيق الأكثر حداثة ، والأشد التزاماً . فحتى « أشجار جوز الألتا نبرغ » يمكن أن تبدو ، عند القراءة الأولى لها ، مثل « تأريخٍ » أخلاقي جيدٍ جداً لوقائع الحرب، ولمعسكرات السجناء ، ولأحاديث بونتينبي .

النزعة الواقعية :

إذن فهناك فعلاً نزعةٌ واقعيةٌ ارتكازية ، ومحددةٌ وراسخة لدى مالرو . وكما أن العقل ، في نظره ، يتمثل أولاً في عدم خلط الأشياء المختلفة . أي أن دورق ماءٍ هو دورق ماء ، كذلك فان رؤيته ووصفه للأشياء يهدفان ، قبل كل شيء إلى الإيضاح . ولئن كان مقصوداً أو مقبولاً أن يكون أسلوب « الطريق الملكية » غزيراً ، وكثيفاً ، ومثيراً للقلق ، على صورة الغابة ، والاستحواذ الذي يسيطر على الشخصيات ؛ فان طابع اليقين في الملاحظات ، وجفافها المقصود ، في الروايات الأخرى ، تسهمان دوماً ، وبصورةٍ قويةٍ ، في التوتر الدرامي . لنفتح « الظافرون » في أيةصفحة منها ، ولنشاهد السيدة كلاين التي تصل إلى جانب جثة زوجها :

« إنها لم تنظر إلينا ، بل تتجه نحو كلاين مباشرةً ، وتصطدم أثناء مرورها بأحد الأجساد الممددة ، فتترنح ... إنها بمواجهته ، وتنظر إليه ، فلا تتحرك ولا تبكي ، ولا تفعل شيئاً . كان هناك ذبابٌ حول

رأسه ، وكانت هناك رائحة . وفي أذني ، يتردد النفس الحار واللاهث ، نفس غارين (١) » .

يعرف مالرو كيف يفرض علينا حضوراً معيناً ، وجواً معيناً ، و« الانتباه البصري » لديه هو انتباه مخرج سينمائي ، ومن خلال ارتباط هذا الانتباه بالحدث ، فهو يمحو أو يظهر الأشياء ، والوجوه ، ويكشف عما يتعين عليها أن تقوله لنا . وإليكم ظهور كيو الأول ، والذي يعطينا عنه معلوماتٍ جوهريةً من خلال الصور نفسها :

« على اليمين ، هناك كيو جيزور الذي وضح المصباح توضيحاً شديداً الزاويتين النازلتين لفمه الذي يشبه فماً في صورةٍ يابانية خشبية ، وذلك حين مر هذا المصباح من فوق رأسه ؛ وحين أخذ يبتعد ، نقل الظلال ، فظهر ذلك الوجه المولد أوروبياً تقريباً، وغدت ذبذبات المصباح أقصر أكثر فأكثر . وعاد إلى الظهور وجها كيو بالتناوب ، واختلاف أحدهما عن الآخر يتناقص (٢) » .

ولكن قوة الواقعية ليست في الوصف فقط ، بل في أن تجعلنا نمتلك الواقع بصورةٍ ما ، وبأن تجعلنا « ندركه » بالعقل ، والحساسية ، والإرادة . فلئن كانت « الأمل » هي أعظم روايات مالرو ، فذلك لأن هذا التحقيق الذي يرفض باستمرار الوهم ، التخيل الروائي ، والتفسير ، يفضي لنا ، مع ذلك ، وفي كل صفحاته ، بالمعنى الذي تدل عليه حرب معينة ، وبالمصير المأسوي للأبطال .

وإذا كان في هذه الرواية قدرة على إدراك ما هو جوهريـــ

(١) الظافرون ، القسم الثالث ، الرجل .

(٢) الوضع الإنساني ، القسم الأول ، الصفحة : /١٩/ .

وصفاء ذهني ، وتعاون كامل بين الشخصيات ، وإخاء ، ومناقشات متحمسة حول ضرورة الحياة والانتصار ، فان انطباعاً يتكون لدينا دائماً بأن الحوادث ، والناس هنا تسلم إلينا كما هي ؛ وكما ينبغي أن تكون لكي تغنينا بخبرة استثنائية .... وفي الوقت ذاته ، « فالأمل » تحتفظ بعفوية الحياة ، وباندفاع العظمة المؤثرة ، وبالحنين إلى القضايا التي نستشف أنها قضايا خاسرة . أفلا زلنا حقاً في مجال الواقعية العبقرية ، حتى في التحقيق الصحفي الذي تمكن منه الكاتب ؟

الطابع المأسوي :

إن مقارنة « الأمل » بروايات مالرو الأخرى التي تتميز عنها ، إلى حد كبير ، من حيث وضوح بنائها ، واختيارها ، وابتكارها ، تجعلنا ندرك في « الأمل » « فنها الخفي » ، وكم وضع فيها مالرو من ذاته ، مثلما كان يضع في أي مؤلف من مؤلفاته .

ليست روايات مالرو تحقيقات صحفية فقط ، بل هي « روايات » ، ومن الصبيانية أن نأخذ عليها الأشياء التي تبتكرها ، إلا أننا نكتشف الابتكار في حينه بدهشة : (فليس الهدف الأول لمالرو هو إحياء « شخصيات فنية » ، بالمعنى المعهود للكلمة) ، فلربما لن يقول أحد قط هذا غارسيا أو مانويل ، أو فنسان بيرجيه ، كما نقول : هذا ترتوف(١) ، وهذه مدام بوفاري ، أو هذا راسكولينكوف(٢) . إن غارين وحده هو الذي يدرس بعمق ، وبصورة حسنة ، وقد أراد

---

(١) ... مع أننا لا نعرف شيئاً على الإطلاق عن الحياة الداخلية لتارتوف ، في مسرحية موليير — ولكن النموذج لا ينسى .

(٢) بطل « الجريمة والعقاب » لدوستويفسكي (م:ز.ع) .

مالرو ذلك . أما الآخرون جميعاً ، فمع أن « حضورهم » يفرض نفسه علينا بقوة ، فمشكلاتهم ، والطريقة التي يعيشون بها مشكلاتهم هي التي تربطنا بهم ، فنحن لا نعرفهم معرفة تامة .

يتبين لنا أيضاً أن تصوير الأوساط ناقص إلى حد كبير ، فلا تجري إعادة بناء المجتمع إبداعياً ، وليس في الرواية نساء ، باستثناء آنا ، في المشهد الجميل النهائي ، في « زمن الاحتقار » . ومن المؤكد أن ماي وفاليريا ليستا شخصيتين عديمتي الأهمية ، بل أن لهما من الدلالة أكثر مما للحياة التي تعيشانها . إنهما موجودتان خصوصاً ، بالنسبة للمؤلف كما بالنسبة للقارىء ، من خلال ارتباطهما بكيو ، وبفيرال... وليس في الرواية شخصيات بلهاء ، وفيها عدد قليل للغاية من الجبناء ، أو من القذرين . أما الحارس في « الوضع الإنساني » ، ورجال الشرطة النازية في « المذكرات المخالفة » فكأنهم منصهرون في حتمية نظام الأشياء .

ومع ذلك فمالرو يعرف النساء ، ويحبهن ، حتى وإن وجدهن « مختلفات(١) » اختلافاً عميقاً . ولقد تزوج ثلاث مرات ، وبنساء مرموقات ، وكان لابد له بالتأكيد أن يعاشر حمقى وقذرين ، ولئن اختار شخصياته من مستوى واحد ، فذلك لان التصوير النفسي في رواياته ليس سوى وسيلة في خدمة أمر آخر .

---

(١) المرأة ، في نظري ، كائن مختلف جداً ، وأنا أتحدث عن الاختلاف ، وليس عن التدني في المستوى — بحيث لا أتوصل إلى تصور شخصية نسائية » . (مالرو يقول ذلك لداستييه دو لافيجوري ، مجلة : الحدث ، آب ، ١٩٦٧ ، الصفحة : ٦٠) ، بعد أن كان داستييه قد أسر إليه قائلا : « لقد تخليت عن طريق ، وعن مجال عمل معين من أجل امرأة » فتردد مالرو ، ثم همس : « لا أظن أنه كان يمكن لي أن أفعل ذلك » .

إن صفاء كيو الذهني ، والغيرة التي يخجل بها ، وثقافة جيزور ، ومحبته الأبوية ، وعقدة العبودية عند إيملريك ، ومشاعر الإخاء لدى كاتوف ، وإمكانات النزعة السّادية لديه ، وسجناء وجنود « أشجار جوز الألتا نبرغ » الراسخين في وجودهم الأسامي ، ومشكلات غارسيا ، ومانويل ، وهيرنانديز ، وألفيار ، تكفي مالرو ليبدع العالم الذي يحتاج إليه . إن ما يرغب في تعميقه ليس « الفرد » بفرديته ، بل « الإنسان » و« الوضع الإنساني » و« الأمل » ، أمل الناس ، وما يمكنهم أن يفعلوه . ومنذ ذلك الحين ، وهو لا يقدم لنا تقريباً غير « أبطال » تجتمع لديهم كفاءة العمل ، والثقافة ، والصفاء الذهني(١) » ، وهو يقدمهم لنا بصورةٍ منطقيةٍ تماماً ؛ فمن خلالهم ، إنما يستطيع التعبير بأكبر قوةٍ ممكنةٍ عن مأسوية القوة والعجز ، وعن الإرادة المؤثرة ، إرادة الكرامة الإنسانية ، وعن ضرورات الفعل ومشكلاته . إن فنّه متماسك إلى أقصى حد .

« يقول مالرو: إن الرواية الحديثة ، في نظري ، وسيلة تعبيرٍ متميّزة عن مأساة الإنسان ، وليست تفسيراً للفرد(٢) » .

ملحمة الوضوح الفكري :

يجعلنا مالرو نلاحظ ، عدة مرات ، أن « المشهد المطلوب إعداده » لدى دوستويفسكي يكون موجوداً أحياناً ، قبل الشخصية الفنّية ، وهو الشيء المهم أولاً .

« ففي المسودة الأولى لرواية « الأبله » ، لا يكون القاتل هو

(١) تذييل في نهاية « الظافرون » .

(٢) مالرو من خلال نفسه ، سوي ، الصفحة : /٦٦/ .

روغوجين ، بل الأمير . وفي هذه الحالة ، تتغير صفات الشخصية تغيراً أساسياً ، وكذلك الحبكة ، غير أن المشهد ودلالته لا يتغيران ؛ فقلّما يهم دوستويفسكي أن يكون الحجر هو الذي يحك الزند ، أو أن يكون الزند هو الذي يحك الحجر ، إذا كانت الشرارة هي ذاتها(١)».

وهذا ينطبق بالأحرى على اقتسام السيانور في « الوضع الإنساني » وعلى « النزول الطويل » باتجاه ليناريس ، في « الأمل » ، وعلى الانتفاضة الأخوية التي يقوم بها الجنود الألمان لإنقاذ الجنود الروس المضروبين بالغاز السّام في « أشجار جوز الألتا نبرغ » ، والتي هي عبارةٌ عن مشاهد ليست مستقلةً عن الشخصيات بالتأكيد ، بل عن حالتها النفسية الفردية . وهكذا ترتفع الرواية بصورةٍ طبيعيةٍ تماماً إلى مستوى التاريخ .

إن واقعية التحقيق ، والتوتر الأقصى للمواقف ، ومأسوية الخيارات الإنسانية تنصهر جيداً في « ملحمةٍ » راهنةٍ بمعنى أكثر تحديداً أيضاً من التعريف التنبؤي لسانت — بوف .

إن ممارسة الصفاء الذهني تفعل فعلها في الاتجاه ذاته ، وشخصيات مالرو واضحة الرؤية ، وتريد أن تكون واضحة الرؤية . وحتى عندما تفقد عزمها ، مثل كلابيك ، فهي تعرف نفسها ، وتتصرف بناءً على ما تراه . فهل يمكن لها أن تكون مختلفة عما هي عليه ؟ كلا ، دون شك . ويحق للقارىء أن يظن أن الكتاب قد انتهى بمجرد كون غارسيا ، ومانويل وكاتوف « مسوقين » ! شأنهم في ذلك شأن كلابيك تماماً ؛ وحتى أن كيو يطرح السؤال على نفسه ، وهو يعني ذاته : « ألا نرى

---

(١) أصوات الصمت ، الصفحة : /٣٣٣/ .

أبداً غير أقدار الآخرين؟(١) » . غير أن الجميع يريدون أن يسيروا حياتهم ، وهم يسيرونها إلى حد بعيد . إن لديهم قناعات معينة ، وليس أهواء معينة ، إلا أنهم يعيشون تلك القناعات بالشدة نفسها التي يتمسك آخرون بأهوائهم بها . إنهم يعيشون قناعاتهم بكل عقولهم ، وكل قوتهم . وغالباً ما يموتون بسببها ، بوعي كامل ومعرفة تامة منهم لذلك . إنهم يموتون ميتة ظافرة مثل كيو ، وكاتوف ، وتشين ، أو بويغ ؛ أو يائسين مثل هيرنانديز . فالأدب ، في نظر مالرو ، هو « فن الوعي » .

إن الجملة التي يقولها غارسيا : « تحويل أوسع تجربة ممكنة إلى وعي(٢) » ربما تكون جملة شهيرة أكثر من اللازم ؛ فهي لا تعبر تعبيراً كاملاً عن المثل الأعلى الأخلاقي عند مالرو ؛ فهذه التجربة يلزمها الوعي أيضاً ، كما يلزمها الرجوع إلى التجربة ، وإدخال هذا الوعي إلى حيز الفعل ، وغارسيا يقوم بذلك . غير أن جملته تعبر تقريباً بصورة تامة عن مثل مالرو الأعلى كروائي ، كما أظن(٣) .... إن مالرو لا يسعى إلى إعادة خلق الحب والسعادة — فلعل الموسيقى وحدها هي التي تتوصل إلى ذلك فعلاً(٤) . وهو لا يتغنى بجمال المرأة — فكيف

(١) الوضع الإنساني ، الصفحة : /١٨٦/ .

(٢) الأمل ، الصفحة : /٣٨٩/ .

(٣) إن الجملة لا تشير إلى الطابع الغنائي .

(٤) يكتب مالرو أن « الأدب يعتبر وسيلة هزيلة ، حين تتعلق المسألة بالسعادة ، إذا ما قابلناه بالموسيقى .. والشعراء كالموسيقيين هم أولئك الذين يستطيعون أيضاً أن يمنحوا الرقة والحنين أكثر ما فيهما من جمال » .

السبيل إلى مضاهاة الرسم ؟ بل يحاول أن ينقل حياتنا الفاعلة إلى مرحلة الوعي .

وهل يرفض من أجل ذلك ما يدق عن الوصف ؟ على العكس ، إنه لا يكف عن تعقبه . ولئن رفض الانجرار خلف « شيطان المطلق » ، فقد احتفظ دوماً بحس الحياة العميقة ، وبحس الخيال ، والمجاهل الشاسعة التي تحتاج لأن تكتشف في العالم ، وفي أنفسنا ، وهو ينقل إلينا هذا الحس . أمّا تلك المقدرة التي يتمتع بها الإنسان على قهر أنانيته الغريزية فتدهشه ؛ والمثقف غارسيا ، والكرام باركاهما أيضا صديقاه :

« إن السر الخفي ، سر العظمة الأكثر تواضعا ليس أعمق من سرّ الموت(١) ... ووجود الحب ، والفن أو البطولة ليس سراً أقل غموضاً من سر الشر (٢) .

ليس بمقدور أحد ألا يموت ، بيد أن الإنسان وحده هو الذي يمكنه أن « يهب » حياته ، وذلك تماماً لأن العالم ليس له معنىً ، وكل تفاهته لا يمكن أن تعاو على قيمة أكثر أعمال العدل والبطولة والمحبة تواضعا (٣) » .

إنّ فتنة العالم خصبة ، ولقد تعرف مالرو واختار ، وهو لا يزال فتىً صغيراً ، ما سيحاول أن يلقي عليه الضوء ، أو ما سيحييه في كل عالم من العوالم التي سيبدعها وهو : نضال الإنسان ، « من غير معونة

---

(١) خطاب ألقاه مالرو بتاريخ ٢١ حزيران لعام ١٩٦٠ ، في مؤتمر الأليانس العالمي .
(٢) خطاب لمالرو بتاريخ ٢٥ آب ، ١٩٥٩ في برازيليا .
(٣) المشهد الأخير الذي كتبه مالرو بنفسه ، في الاقتباس المسرحي لروايته « الوضع الإنساني » ، انظر : الصفحة ١٩٨) .

الآلهة(١) » ، وضد كافة ألوان عجزه لكي يصبح هنامايبتغي أن يكون . وحتّى عندما ترك مالرو الرواية ، فهو لم يحدْ عن ذلك الهدف .

« وقد كتب أيضاً : مسكين هو الروائي الذي يرى في الرواية حكاية « فحسب(٢) » ، أما موضوع رواياته فهو« المغامرة الإنسانية » . وصوته المتفرد في أدبنا هو التأكيد على « الكرامة الإنسانية » ، وفي هذا المجال ، فهو يضاهي أعظم الأدباء شأناً .

٢ – فنّ الأسلوب :

إن أسلوب مالرو معروف بصعوبته ، ولكن ليس من حيث التعابير التي يستخدمها ؛ فهو يستعملها دائماً بمعناها المتداول . ولقد أجاز لنفسه بأن يصنع لبعضٍ منها فقط مصيراً متفرداً ، مثل المصير الذي أعطاه كلمة تحول (METAMORPhose) على سبيل المثال ، في كتاباته على الفن : ولكنه عُني حينذاك بأن يبين رأيه في الموضوع بالتفصيل .

وحين يفاجئنا مالرو عموماً ، تكون مفاجأته لنا بسبب سرعته القصوى فهو يتجاوز الجمل الوسيطة ، حتّى في أسلوبه الكتابي ، كما هي الحال في أسلوب الكلام ؛ وبما أن معونة تبدلات الصوت غير متوفرة هنا ؛ فالقارىء القليل الانتباه ، أو القارىء الذي يتناول المقطع مباشرةً ، دون أن يكون قد انغمس في الحدث ، أو في التأمل ، يقع في شرك السرعه ، فيصعب عليه الفهم ، وهكذا (فالجملة التالية) :

(١) الصفحة الأخيرة من « عتلة المطلق » ، طبعة : سكيرا .
(٢) أصوات الصمت ، الصفحة : /٣٢٣/ .

« لقد حدث الانشقاق . بصورةٍ عرضيةٍ ؟ كان يمكن تأجيله فحسب(١) » . إذا ما قرئت بصوتٍ عالٍ ، ونطق السؤال بلهجةٍ مختلفة ، اتضح الجواب ، برغم الحلقة المتجاوزة : كلا ، إن الإنشقاق لم يكن عرضياً فقط ، وقد أدى إليه تظافرٌ للظروف سيءٌ ، أو نشاط بعض الرجال . وكان يمكن منعه في تلك المرة ، هذا صحيح ، ولكنه كان سيحدث على أية حال بعد ذلك بقليل ... إن إنشاء مالرو هو أقصر إنشاء ممكن .

ومن جهةٍ أخرى ، فلمالرو ، كما لأي كاتبٍ آخر ، عاداته الأسلوبية . وهكذا ، فهو لا يستخدم إطلاقاً ما تسميه مدارس النحو القديمة : « صيغة الشرط الماضية في شكلها الأول(٢) » ، إلا في حالة توافق الأزمنة ، ولكنه ، على العكس من ذلك ، يستخدم « صيغة الشرط الماضية في شكلها الثاني » ، وهي في الواقع ، صيغة نصب الفعل(٣) التي تعتبر لونياتها أكثر تعقيداً بكثير ، وخصوصاً في الجمل التابعة المعربة :

« ماذا كانت تساوي الحياةُ التي ما كان ليقبل أن يموتَ في سبيلها(٤) ؟ » إن الجملة الموصولية لا تعبر هنا فقط عن قيمةٍ شرطيةٍ ،

---

(١) تحول الآلهة ، الصفحة : /١٨٥ / .

(٢) يصعب تقديم ترجمة مقبولة لهذه الصيغة الفعلية الفرنسية التي تدل على عدم إمكانية تحقيق حدث ما ، كالقول : « كان يمكن أن ... » (م:ز.ع) .

(٣) تدل هذه الصيغة على نصب الفعل حقاً ، ولكن ينبغي أن يكون فعل الجملة الابتدائية غير يقيني (م:ز.ع)

(٤) « الوضع الإنساني » ، القسم السادس – الصفحة ٣٦٢ ، تفسر هذه الجملة باقتضابها تفسيراً تاماً تضحية عدد من المؤمنين بحياتهم ، بحيث يعلن الكثيرون بأنها غير منطقية ؛ فكيو يؤثر الموت على حياة تجري المحافظة عليها عن طريق الخيانة ، وهي حياة لن تجلب له أي فرح ، نظراً لما هو عليه ، ولن تستحق أن تعاش ، في نظره .

بل تبرز بقوة إحدى الصفات الأساسية لحياةٍ معينة ، كما يتصورها كيو . والأصوات بحد ذاتها تجعل الصياغة، من ناحيةٍ أخرى ، أكثر جاذبية ، وأشد تأثيراً في النفس .

فنّ الصيَّغ :

وأخيراً فمالرو يتركنا غير متأكدين من الإسم الذي يعود عليه ضميرٌ معين ، ولكن ذلك نادرٌ إلى حد ما ، وهو ينساق مع إيقاع جملةٍ أحياناً على حساب الوضوح : « كانت راشيل بيسبالوف تقول قبلاً ، في عام ١٩٣٨ ، إن لدى مالرو دوماً تلك اللحظة التي يتعب فيها العقل ، وقد أعيته الكلمات ، فيستسلم للموسيقى(١) » ، بيد أن سرعة مالرو عموماً تخدمه خدمةً رائعة ، فيصل ، من غير جهدٍ ، إلى كثافةٍ لم تعد لغتنا تشهدها منذ عهد كورنيي : ولا ينطبق هذا فقط على البدهيات التبسيطية ظاهرياً ، والتي يعطيها قوة الصخر :

« إن حياةً واحدةً لا تساوي شيئاً ، ولكن لا شيء يساوي حياةً واحدة(١) » بل ينطبق أيضاً على الصيغ الجديدة الموحية :

« ليس مؤكداً أن الثقة تقتلع الناس دوماً من الأرض ، غير أنه من المؤكد أن فقدان الثقة يجعلهم يرقدون فيها إلى الأبد (٢) » .

وينطبق على الصرخات التي تلخص وضعاً معيناً . فأي رجلٍ أو أية امرأة معتقلين لم يحتاجا ، مثل كيو ، إلى إطلاق الزفرات الأليمة بسبب عزلهم عن عالم الآخرين ، وعن الحياة :

---

(١) الظافرون ، القسم الثالث ، الإنسان .

(٢) خطاب لمالرو ، في عام ١٩٣٥ ، في الجمعية الدولية للكتاب من أجل الدفاع عن الثقافة .

« أيها السجنُ ، أيها المكان الذي يتوقف فيه الزمن — الذي يستمر في مكانٍ آخر (١) ! » .

وأي مقاتلٍ مجبرٍ ، انطلاقاً من واجبه ، على أن يلجأ إلى العنف ضد القوة ، لم يشعر بالأمنية المثيرة للشجن تتصاعد في نفسه ، وهي أمنية ابن فنسان بيرجيه ، ولم يشعر بندائه الداعي إلى عدالة الأشياء :

« آه ! فليظل النصر حليف أولئك الذين يخوضون الحرب دون أن يحبوها ! » وأي وجدانٍ فرنسي وإنساني لم يهتز ، مثلما اهتز وجدان مالرو ، بعد وجدان ميشليه ، لذلك الاستحضار لذكرى جان دارك :

« يا وجه النصر الوحيد الذي يدعو إلى العطف ...

يا جان التي لا ضريح لك ، أنت التي كنت تعلمين أن قبر الأبطال هو قلب الأحياء ، انظري إلى هذه المدينة الوفية ! يا جان التي لا صورة لك ، لقد أعطيت وجهك المجهول إلى كل ما أحبت فرنسا من أجله(٢).»

فن الحوار :

إن الصيغ التي تأتي بها الحوارات هي صيغ أقل غنائيةً من غيرها . وهذا أمرٌ طبيعي . ولكنها صيغ موضوعةٌ في موقفٍ معين ، بصورةٍ رائعة . ومع أنها يمكن أن تناسب عدة شخصياتٍ غالباً ، فهي تصيب مرماها كالسهام ؛ وخلال مشهدٍ واحد ، يبين الفوضوي بويغ للكاثوليكي كزيمنيس في عام ١٩٣٦ كل حججه ضد الكنيسة الإسبانية :

« حين نجبر الجمهور على العيش في الحضيض ، لا يؤدي به ذلك إلى أن يفكر تفكيراً سامياً » .

---

(١) الوضع الإنساني ، الصفحة : /٣٦١/ .

(٢) أشجار جوز الألتانبرغ ، الصفحه : /٢١١/ .

« لا ينبغي أن نعلّم الناس الذين لم يتلقوا الصفعات منذ ألفي عام أن يديروا خدهم الآخر للصفع ... » .

....

من هو المسيح ؟ إنه فوضوي قد أصاب النجاح ، وهو الوحيد في ذلك . أما بخصوص رجال الدين ، فاني سأقول لك شيئاً ربما لن تفهمه جيداً ، لأنك لم تكن فقيراً قط . إني أكره الإنسان الذي يريد أن يغفر لي أفضل الأعمال التي قمت بها . ونظر إليه نظرةً ثقيلةً ، وكأنه عدو هذه المرة تقريباً ثم قال : « لا أريد أن يغفر لي أحد(١) » .

إن الكلمات ، وحتى الأكثر بساطةً منها ، وأقصر الجمل تكفي مالرو ليبلغ العظمة المأسوية ، وليعبر عن معنى حركةٍ معينة :

— هل أنت متمسك بالحياة ؟

— هذا يتعلق بالكيفية ...

— قيل لي أنك شيوعي بسبب إحساسك بالكرامة ، هل هذا صحيح؟ فما الذي تسميه الكرامة ؟ إنها لا تعني شيئاً .

فرن الهاتف ، وفكر كيو(٢) « الأمر يتعلق بحياتي » . ولكن كوينغ لم يصل الخط .

فقال كيو — إنها نقيض الإذلال ، وعندما يأتي الإنسان من المكان الذي أتيتُ منه ، فالكرامةُ تعني شيئاً ما(٣) » .

---

(١) الأمل ، الصفحات : /٣٨و٣٩ / .

(٢) يعلم كيو أن هناك من يحاول إنقاذه من الخارج ، وهو يعلم أيضاً أن قائد الشرطة يمكنه أن يعفو عنه ... ويستشف ، بعد ذلك بقليل ، أن الاتصالا ت الهاتفية المتقار بة هي عبارة عن لعبة مسرحية معدة لأجله ، لكي يجعلوه يكشف نفسه .

(٣) الوضع الإنساني ، القسم السادس ، الصفحة /٢٤٣/ .

الطّابع الغنائي :

يترك السرد دائماً حريةً أكبر لمؤلفٍ معيّن ؛ ومع ذلك ، فمالرو يوجّهُ جهده بصورةٍ دائمة تقريباً إلى الوصف الأكثر تجريداً ، والأكثر دقّة قبل كل شيء . فيتولد الانفعال من الوقائع ذاتها . وإليكم اللحظة النهائية لنزول الطيارين الجرحى :

« حين وصل غارديه ، خيم صمتٌ على ذلك الحشد الذي كان صامتاً من قبل ، بحيث سمع الناس فجأة هدير السّيول البعيد .

كان كل الجرحى الآخرين يرون الحشد ؛ وكلما كانوا يرونه ، كانوا يجهدون ليبتسموا ، وحتّى قاذف القنابل . أما غارديه ، فلم يكن ينظر . لقد كان حياً، وكان الجمهور يميز ، من وراء المتاريس ، نعشاً سميكاً ، خلف غارديه ؛ فذلك الجريح المغطى بلحافٍ حتى ذقنه ، والمضمد بضمادةٍ مسطحةٍ إلى درجةٍ لا يمكن أن يكون له أنفٌ تحتها ، والمثبتة تحت عصابة رأسٍ معقودةٍ على شكل قلنسوة ، ذلك الجريح ، كان الصورة ذاتها التي كان الفلاحون يكونونها عن الحرب، منذ قرون . إلا أن أحداً لم يكن قد أجبر هذا الجريح على القتال ، وتردد الجرحى لحظة من الزمن ، لأنهم لم يكونوا يعرفون ماذا سيفعلون . ومع ذلك ، فقد حزموا أمرهم على صنع شيء ما ، وفي آخر الأمر ، رفعوا قبضاتهم بصمت(١) ، مثل جرحى فالديليناريس » .

غير أن مالرو لا يستطيع في أغلب الأحيان أيضاً ، ولم يعد يريد أن يكبح نزعته الغنائية . ومهما تكن حدة المأساة — مأساة الناس — فهو يعلم دائماً أن هؤلاء الناس هم نقاطٌ شديدة الصغر في الكون ، وأن

---

(١) تلقى الجنود الألمان الذين يزحفون باتجاه الخطوط الروسية الأمر بالتوقف .

حياتهم حادثٌ عرضي على السطح الرقيق لكوكبٍ صغيرٍ غريب يتدحرج في الرحاب الشاسعة ... ولكن هذا الكوكب هو كوكبهم ، وهو وديعٌ ، والناس إخواته ، وهم جديرون بالمحبّة :

« في الأعالي ، كانت الهجرة الكبيرة للعصافير مستمرةً ، وتحتها كان الجنس البشري الملتصق بتلك المراعي الداكنة ، بانتظار القصف الرومي ، تجمعه وحدةٌ مركّبةٌ مثل وحدة ليالي الصيف التي تصنعها صرخاتٌ بعيدٌ ، وأحلامٌ ، وألوانٌ من الحضور ، ورائحةٌ عميقةٌ لأشجار ، وسنابل قمح مقطوعة ، وإغفاءات قلقةٌ على سطح الأرض ، وتحت الليل الهائل الاتساع ، والذي لا يتحرّك (١) » .

وأخيراً فان مالرو ، الذي لم يعد مُلزماً بمتطلبات الرواية ، في كتبه الأخيرة ، يعنى بموسيقى الجمل من أجل ذاتها ، وينساق معها . إنه يستخدم الوصف أيضاً ، ولكن لكي ينشد مثل روسو ، أو شاتوبريان. إن جُمَلَهُ تتحدّث دوماً عن تاريخ البشر ، وعما أبدعوه ، غير أن لهذه الجمل إيقاعٌ هادىء ، هو إيقاعُ القصائد الطبيعية وانسجامها .

« وتبقى رحلاتُ الحج ... وفي كل مساءٍ من أمسية فصل الأمطار ، حين يتصاعدُ الضباب الساخن من البرك الصغيرة ، ومن وسط سعف النخيل التي تقطر ماءً ، ينبثق النداء الألفي للبوق الصدفي من الأبراج التي تغدو زرقاء ، في أزقّة الأماكن الدينية ، حيث يستيقظ الباعةُ فوق أكوام العشب العطري التي حزموها ، ويخرج الرجال المصطبغون بالرماد الأبيض ، وترقد القرود ، كما في زمن الرامايانا(٢) ....

---

(١) أشجار جوز الألتا نبرغ ، الصفحة : /٢١١/ .

(٢) الرامايانا : اسم نوعي لملاحم هندوسية مقدسة ، جرى تأليفها من القرن الخامس قبل المسيح ، وحتّى القرن الخامس عشر الميلادي ، وموضوعها هو حياة راما ملك أيوديا ، وهو يجسد الإله فيشنو (م:ز:ع) .



« ابتسامة مالرو الذي حاز على الدكتوراه الفخرية من جامعة أوكسفورد » .

وفي الأعلى ، قريباً من القلعة(١) ، هناك بناءٌ زجاجيٌ ، أو قصر أمير سيجمع الروائع الفنية الراقدة اليوم في القطيفة الفيكتورية . ولسوف ينافس هذا البناء متاحف الرباط ، ودمشق المزدهرة . وعبر النوافذ الزجاجية الكبيرة ، ستنظر الوجوه الشهيرة ، منذ عهد خوفو ، وحتى الملكة نفرتيتي ، إلى مدينة الموتى — كما لو أن بلاد الاسلام قد بنت ، على مدى قرون ، أوسع مدينةٍ للموتى ، تقديراً لمقابر الفراعنة . إن النجوم الذهبية الكبيرة ستلتمع التماعاً خفيفاً داخل ظل مدروس ، على جلود الفهود المتكلسة . .. وعلى النقيشات الضئيلة البروز ، وينزلق قاربُ الأبد داخل أدغال البردي . وتتقاطع الأهرامات برغم الضباب الرملي الذي ستجعله الحرارة يرتعش فوق النيل ، كما في زمن عبدة الشمس » .

قال مالرو إن الفن هو الفوز بالمشاعر ، وبوسائل التعبير عنها » ، ويمكن أن نقول ، من غير أن نخشى الخطأ ، إن مالرو نفسه هو أحد أولئك الذين فتحوا لأكبر عددٍ من الناس طريق هذا الفوز ، بحيث يعتبر اليوم ، وسيبقى أحد أكبر كتابنا النموذجيين .

* * *

(١) المذكرات المخالفة ، الصفحة : ٨١ ، يستدعي مالرو إلى الذهن متحف القاهرة المقبل والذي يجب أن يتم بناؤه قريباً من القلعة ، فيطل من الأعلى على مدينة الموتى والأحياء.

ملحقات

مراجع مختارة

مؤلفات مالرو :

لقد أوردنا في الصفحة ١٣ وما يليها (في النص الفرنسي طبعاً) كافة كتابات مالرو الهامة ، وذلك بتاريخ أول صدور لها ، وبناءً على ذلك ، نعطي هنا ثبتاً بالمراجع العملية .

« أ – المراجع التي تباع حالياً (١) .

نقصد بها الطبعات النهائية التي تحتوي اختلافات عن الطبعات الأولى إلى درجةٍ ملحوظة (٢) .

الطريق الملكية ، ٣ فرنكات .

الظافرون ، ٣ فرنكات ، مع تذييل مالرو ، لعام : ١٩٤٨ .

الوضع الانساني – ٣ ف .

الأمل ، ٤ .ف .

مجموعة أفكار ، فنون .

---

(١) الأسعار التي نوردها هنا هي أسعار لوائح تشرين الثاني ١٩٦٩ .

(٢) ما لم تكن هناك إشارة معاكسة ؛ فان ما نورده مأخوذ من الطبعات النهائية حين تكون موجودة ، كطبعة غاليمار المعروفة ، أو كتاب الجيب ، بالنسبة لرواية « الأمل » .

المتحف الخيالي ٦،٨٠ف ، وهذا هو القسم الأول الذي روجع إلى أقصى حدٍ من كتاب « أصوات الصمت » .

غراسيّه إغراءُ الغرب : ٧،٣٠ ف .

الطريق الملكية : ٦ ف .

الظافرون : ٧ ف . مع تذييل مالرو لعام ١٩٤٨

غالّيمار : الوضع الانساني : ١٧،٤٠ ف .

الأمل : ٢٤،٣٠ ف .

المذكرات المخالفة : القسم الأول — ٢٧،٢٠ف

غاليّمار : مشاهد مختارة : ١١ ف ، وقد اختار المشاهد مالرو نفسه من كافة رواياته ، بما في ذلك الروايات التي لا يرغب في إعادة نشرا .

زمن الاحتقار ، واشجار جوز الألتا نبرغ . ويقدم الكتابُ أيضاً المقدمة الشهيرة لزمن الاحتقار ، وصورة إجمالية لسيكولوجيا السينما ، ودراسة حول لاكلو .

الظافرون ، الوضع الانساني ، الأمل ، في مجموعة بليّاد ، ٣٦ ف .

تحول الآلهة ٥٠،٩٠ فرنكاً .

المتحف الخيالي للنحت العالمي(١) ، الجزءان الثاني والثالث ٢٠،٨٠ ف لكل جزء .

---

(١) علينا ألا نخلط بين هذا الكتاب والمتحف الخيالي الذي يشكل القسم الأول من : « أصوات الصمت » والذي نشر بصورة منفصلة ، في مجموعة : أفكار — فنون .

فيرمير دود يلفت كاملاً (نصوص لمالرو ، وبروست ، وكلوديل ، وغوتييه وجيّيه (٩٠ ف .

المثلث الأسود (غويا ، لاكلو ، سان ـ جوست) .

ومن المفروض أن تصدر عام ١٩٧٠ (مع تزيينات برسوم شاغال ، وماسّون والكسييف) الكتب التالية :

١ ــ أقمار من ورق ، وإغراء الغرب ، والظافرون ، والمملكة العجيبة .

٢ ــ الطريق الملكية والوضع الإنساني .

٣ ــ الأمل .

٤ ــ المذكرات المخالفة ، الجزء الأول .

ب ــ مقدمات كتبها مالرو للكتب التالية :

١ً ــ محراب : فوكنر . كتاب الجيب : ٤ ف .

٢ً ــ دم أسود : لغيّو . كتاب الجيب : ٨ ف .

٣ً ــ العلاقات الخطرة : للاكاو : كتاب الجيب : ٤ ف .

٤ً ــ د.ه. لورنس : عشيق الليدي شاترلي : ٤ف .

٥ً ــ ا. أوليفييه : سان ــ جوست ، كتاب الجيب : ٥ .ف .

ج ــ مؤلفات لمالرو غير متوفرة ، ويمكن الرجوع إليها في المكتبات :

١ ــ أقمار من ورق : ١٩٢١ ، غاليري سيمون .

٢ ــ المملكة العجيبة : ١٩٢٨ ، غاليّمار .

٣ ــ في الشبيبة الأوروبية : في كتاب : كتابات ، ١٩٢٧ ، غراسيه .

٤ — زمن الاحتقار ، ١٩٣٥ ، غاليمار ، وقد نشر أيضاً في المجلة الفرنسية الجديدة ، في آذار — أيار ١٩٣٥ ، وعام ١٩٦١ ، في طبعات ليدبيس مع مطبوعات على الحجر لفالتر سبيتزر .

٥ — أشجار جوز الألتا نبورغ ، ١٩٤٦ ، غاليمار .

٦ — أكان ذلك كل ما في الأمر ؟ (فصل وحيد تم نشره في « شيطان المطلق ، ١٩٤٦ ، طبعات البافوا ، أو حرية الفكر ، نيسان — أيار — حزيران ١٩٤٩ .

٧ — زحل ، بحث حول غويا ، ١٩٥٠ ، غاليمار .

٨ — أصوات الصمت ، ١٩٥١ ، غاليمار .

٩ — المتحف الخيالي للنحت العالمي ، المجلد الأول ، ١٩٥٢ ، غاليمار .

١٠ — سومر (مقدمة لكتاب أندريه بارو ، ١٩٦٠ ، غاليمار) .

١١ — خطابات مالرو (مجلة : نهضة ٢٠٠٠ ، العدد الخاص ، رقم ٥ ، تشرين الأول : ١٩٦٧) ، وهي تقدم الخطابات التي ألقاها مالرو في ٢٤ آب ١٩٥٨ و٢٨ أيار و ٢٥ آب لعام ١٩٥٩ و١٨ آذار لعام ١٩٦٠ ، و٣ أيلول لعام ١٩٦٣ و١٨ نيسان و٣١ أيار ، و١٩ كانون الأول لعام ١٩٦٤ ، والأول من أيلول ، و١٥ كانون الأول لعام ١٩٦٥ .

د — مجموعات الدوريات التالية :

المعرفة ، ١٩٢٠

العمل ، ١٩٢٠ و١٩٢١ ، و١٩٢٥ .

الهند الصينية ، الهند الصينية المكبلة ، ١٩٢٥

المجلة الفرنسية الجديدة ، ١٩٢٢ – ٢٣ – ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، و٣٥ .

الكومونة ، ١٩٣٤ – ٣٥ – ٣٦ .

المفترق (كاروفور) ، ١٩٤٦ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٢ .

حرية الفكر ، ١٩٤٩ – ٥٠ – ٥١ – ٥٢ .

الإكسبريس ، كانون الأول ٥٤ ، كانون الثاني – شباط – آذار – ٥٥ ، نيسان ٥٦ ، نيسان ٤٨ .

الجريدة الرسمية ، المناقشات البرلمانية ، خصوصاً مناقشة الموازنة السنوية لوزارة الشؤون الثقافية .

. لوحة شاملة للدراسات الرئيسية حول مالرو :

دراسات ووثائق :

غايتان بيكون : مالرو من خلال نفسه ، ١٩٥٥ ، سوي .

على هامش دراسة غايتان بيكون المتفهمة والمتحمسة ، هناك ملاحظات عديدة لمالرو نفسه تدقق في مواقفه ، وخياراته ، وميوله ، وأحكامه التقويمية .

روجيه ستيفان : نهاية مرحلة الشباب ، ١٩٥٤ ، طبعة المائدة المستديرة .

وهو كتابٌ يحتوي حديثاً هاماً مع مالرو ، عام ١٩٤٥ ، حول جبهة الألزاس .

روجيه ستيفان : صورة المغامر ، ١٩٥٠ ، طبعة غراسيه : وهي دراسات قد وفق المؤلف في توجيهها حول ت.ا. لورنس ، وإرنست فون سالومون ، ومؤلفات مالرو .

جانيت فلانير : « الناس والأوابد » (بالانكليزية) (نشرها : هاربرز إخوان ، نيويورك ، ١٩٥٧) ، وهي أفضل سيرة ذاتية لمالرو ، حسب رأي مالرو نفسه .

جانين موسّوز : مالرو والديغولية ، ١٩٧٠ ، كولان .

دراسة موضوعية وموثقةٌ توثيقاً جيداً جداً ، وتختتمها جانين موسّوز بالتعبير عن رأيها قائلة : « إن ديغولية مالرو تشكل ، مثلما شكلت التزاماته السابقة ، اقتراباً من مثلٍ أعلى لا يتغير وهو : مجيء الإنسان الحرّ إلى عالم الإخاء » .

كلارا مالرو :

وقع خطواتنا : (القسم الأول : تعلم الحياة : ١٩٦٣ ، القسم الثاني : نحن وسنواتنا العشرون ، ١٩٦٦ ؛ القسم الثالث : المعارك والألعاب ، ١٩٦٩ ، طبعة غراسيه) ، وهي مذكرات زوجة مالرو الأولى .

« صورة غريز يلديس » : وهي رواية نشرت لدى غراسيه عام ١٩٤٥ ، و« الصراع غير المتكافيء » ، وهي رواية نشرت لدى جوليار عام ١٩٥٨) وبما أنَّ العلاقات بين كيو وماي في « الوضع الإنساني ، وحبهما ، ومصاعب حبهما ، وعدم إخلاص ماي قد قدمت لنا تقريباً من وجهة نظر كيو فقط الذي عاشها وحده ؛ فقد كان من الممكن أن نتوقع العثور على وجهة النظر المكملة ، وعلى الطابع الذاتي للشخصية الأخرى ، وذلك في مذكرات كلارا مالرو ، ورواياتها حول الموضوع نفسه . وإننا لواجدونها فيها بالتأكيد ، ولكنها وجهة نظر مترددة ، وغامضة ، ومجاملة — وهي نظرةٌ شجاعةٌ ولكن لا عظمة

فيها . وشخصية ماي ، مع أنها لم تكن شخصية قد عاشها المؤلف من داخلها ، فقد كانت أكثر غنىً .

إن ما يثير المشاعر بعمق في مذكرات كلارا مالرو ، هو ذلك الإحساس الذي تعانيه الكاتبة باستمرار من « الاختلاف » مع الشخص الذي تحبه ، والخوف المهيمن بأنه لا يمنحك الثقة الكاملة ، أو أنه لا يعطيك حتى حقك ... ومن هنا ، تأتي الحاجة المستحوذة لتأكيد الذات — والتي غالباً ما تتجاوز هدفها ، ولكي لا تكون هذه المرأة مجرد « امرأة — ظل » .

أندريه فاندوغان :

مرحلة الشباب الأدبي لأندريه مالرو ، ١٩٦٤ ، طبعة بوفير .

فالتر لانغلوا : مغامرة الهند الصينية ، ١٩٦٧ ، طبعة ميركور دوفرانس ، وهما كتابان لا غنى عنهما لدراسة عمل مالرو ومؤلفاته من عام ١٩١٨ ، حتى ١٩٢٧ تقريباً ، ويقدم فالتر لانغلوا كملحق لدراسته أكثر مقالات مالرو العديدة المثيرة للاهتمام ، والتي كتبها في صحيفة الهند الصينية ، وفي الهند الصينية المكبلة عام ١٩٢٥ .

و.م. فروهوك :

أندريه مالرو والخيال المأسوي ، ١٩٦٧ (بالانكليزية) ستانفورد .
بحث يهدف إلى العثور على الحوادث التي عاشها المؤلف فعلاً في رواياته .

جورج برنانوس :

المقابر الكبرى تحت القمر . (١٩٣٨ ، بلون) .

أرثور كيستلر :

وصية إسبانية (١٩٣٨ ، كتاب الجيب) .

جيرالد بريتان :

المتاهة الإسبانية (١٩٦٢ ، رويلو إيبيريكو) .

هوغ توماس :

حرب إسبانيا ، ١٩٦٢ ، لافّون .

برويه ويتمين :

الثورة وحرب إسبانيا ، ١٩٦١ ، طبعةمينوي (منتصف الليل)

ج . غييّر ماز :

تاريخ الحزب الشيوعي الصيني ، ١٩٦٨ ، بايّو .

بول غايّار :

نقاد عصرنا ومؤلفات مالرو (غارنيه ، ١٩٧٠)

أعداد خاصة (في الدوريات) :

فكر : تشرين الأول ، ١٩٤٨ ، العدد (١٠)

عددٌ مفيدٌ جداً في مجال دراسة مالرو ، وطرح التساؤلات حوله ، في الوقت الذي ينخرط فيه مالرو في العمل مع « التجمع من أجل فرنسا » ، وفيه مقالات لألبير بيغان ، وبيير دوبراي ، وكلود إدموند ماغني ، وإيمانويل مونييه ، وغايتان بيكون ، وأندريه روسو ، وروجيه استيفان .

الألزاس الفرنسية :

تشرين الأول ، ١٩٤٨ ، العدد الأول .

عددٌ مخصص بأكمله لفيلق الألزاس ، واللورين الذي كان يقوده العقيد بيرجيه .

المجلة الأدبية :

١٩٦٧ ، العدد الخامس ، والعدد الحادي عشر .

مالرو في إسبانيا (مقالات وصور مثيرة جداً للاهتمام (.

دراسات ييل الفرنسية (بالانكليزية) ،

العدد ١٨ ، لعام ١٩٥٧

إسهامات عديدة جداً فرنسية وأجنبية .

الحدث : آب ، ١٩٦٧ .

حديث بين مالرو وداستييه دولافيجري .

نوموند :

عدد ٢٧ أيلول ، ١٩٦٧ ، أي عند نشر ، المذكرات المخالفة . وفيه مقالات (تعطي نظرةً شاملة جيدة تتضمن آراء حول مالرو في ذلك التاريخ) لكلود بونغوا ، وفرانسوا بوت ، وريمون جان ، وبيير هنري سيمون ، وبيير فيناسّون ـ بونتيه .

* * *

دراســات نقديــة

دراسات من وجهة نظر مسيحيّة :

أندريه بلانشيه :

الأدب والروحاني ، الجزء الأول : المعترك الأدبي ، ١٩٥٩ ، طبعة أوبييه ، وتقديم الأب دولوباك .

« لقد رفض بروميثيوس الرب ، فسقط ... « إن اغتصاب العالم ، الاغتصاب الفني أو غيره – لا يسلّمنا روحه ... إن التقرب من السر الخفي مفقود » .

ب . بواديفر :

أندريه مالرو ، الكتاب الكلاسيكيون للقرن العشرين . ينبغي الحرص على استخدام الطبعات الأخيرة وحدها ؛ فقد أعيدت صياغة هذا الكتاب الصغير الذي يعد مدخلاً لدراسة مالرو في أعوام ١٩٦٣ و١٩٦٧ .

« إن مؤلفات مالرو تقع ضمن منظور شبه ديني ، ومقدس تقريباً ؛ وهو منظور ميتافيزيقي متمركز على الإنسان » .

ادو . غانون : الشرف في صفتنا الإنسانية (بالإنكليزية) ، ١٩٥٧ ، شيكاغو ، طبعات جامعة لويولا .

جوزيف هوفمان: النزعة الإنسانية لدى مالرو ، ١٩٦٣ ، كلينكشيك .

إنها بالتأكيد إحدى أفضل الدراسات الجامعية لمخصصة لمالرو ، والمستندة إلى نصوص دقيقة ، وهي دراسة موضوعية ، ونافذة البصيرة غالباً ، وتدعو دوماً إلى التفكير .

ش . مولر : أدب القرن العشرين والمسيحية ، الجزء الثالث ، ١٩٦٥ . طبعة كاستيرمان .

يميل المؤلف إلى الاعتقاد بأن عدم إيمان مالرو يدل على تجربةٍ دينية خائبة – فمالرو ، مثله مثل فنسان بيرجيه ، لم يجد بدلاً من إنقلاب روحي ، أثناء تناوله الأول ، سوى انتظار هذا الانقلاب (انظر : أشجار جوز الألتا نبرغ ، الصفحة : ٧٩) .

ب.هـ. سيمون : الإنسان يخضع للمحاكمة ، ١٩٤٩ ، لاباكونيير .

شهود الإنسان : ١٩٥١ ، كولان .

دراساتٌ قصيرة ، ولكنها واضحة ، ونقدية بصورة ذكية .

دراسات من وجهة نظر وجودية :

جان – بول سارتر : دراسةٌ قصيرةٌ نشرت كمقدمة لكتاب : صورة المغامر روجيه استيفان ، عام ١٩٥٠ ، طبعة غراسّيه .

هذه الدراسة مدهشةٌ إلى حدٍ كافٍ ، وهي متناقضة أكثر منها ديالكتيكية ، في رأيي .

إن سارتر يرسم في البداية صورةً « للمناضل » فيها إطراءٌ له ظاهرياً ولكنها في الواقع كاريكاتورية ، ثم يرسم صورةً شديدة القسوة للمغامر (بناء على سائر شخصيات مالرو تقريباً) ...

وبعد ذلك ، يبدي رأيه فيهم فيقول : « إن المناضل على حق في كل النواحي ، فقد أعطى ذاته دون أن يعود إلى ذاته ... والمغامر على خطأ ،

لأنه يتخلق بالأنانية ، والكبرياء ، وسوء النية ، وكل عيوب الطبقة البورجوازية » .

ولكن سارتر يتخذ قراره مع ذلك فيقول : « بعد أن صفقت لانتصار المناضل ، فان المغامر هو الذي سأتبعه في وحدته » ...

ويختم دراسته مستنتجاً أن التضاد الذي بنى عليه دراسته هو مصطنع : « فاختيار المغامر أو المناضل هو مسألة معضلة لست مؤمناً بصحتها » .

جان دولوم : الزمن والمصير ، ١٩٥٥ ، غاليمار :

بحث فلسفي مثير للاهتمام انطلاقاً من مفاهيم مالرو .

دراسات من وجهة نظر ماركسية :

ليون تروتسكي : الثورة الدائمة ، ١٩٦٣ ، غاليمار ، مجموعة : أفكار. يحتوي هذا الكتاب على المقالتين اللتين كتبهما تروتسكي ، عام ١٩٣١ ، بصدد « الظافرون » ، انظر : الصفحة ٧٨ (الأصل الفرنسي

إيليا اهرنبورغ : جيد ، مالرو ، ومورياك إلخ ... كما يراهم كاتبٌ من الاتحاد السوفييتي — ١٩٣٤ ، غاليمار .

يعرف إيليا اهرنبورغ فرنسا بصورة جيدة جداً ، كما يعرفُ مؤلفيها وفنانيها . وبطريعة الحال ، فلا يدور كتابه في ذلك التاريخ ، أي عام ١٩٣٤ ، إلا على الروايات الثلاثة الأولى لمالرو .

روجيه غارودي : أدب حفاري القبور ، الجزء الرابع : قناع الموت لدى أندريه مالرو ، ١٩٣٤ ، الطبعات الاجتماعية . أما الحملات النقدية الأخرى فيوجهها غارودي ضد مورياك ، وسارتر ، وكيستلر .

يدل العنوان دلالةً كافية على طبيعة هذا الكتاب الهجائي ، وعلى

لهجته ، والذي لاشك أن غارودي لا يكتبه اليوم بالمداد نفسه ، لو قدر له ذلك .

إن خطابه في الجمعية الوطنية في ٨ كانون الأول لعام ١٩٥٩ ، أثناء مناقشة موازنة الشؤون الثقافية هو خطاب أكثر إثارة للاهتمام بصورة واضحة .

جورج مونان: دروب مالرو، الآداب الفرنسية، ٨ حزيران ١٩٤٦ .

هذا الكتاب مقالة موجزة ، ولكنها واضحة وكثيفة . ويوضح مونان فيها تطور مالرو على النحو التالي : « إن خلفية مالرو العميقة هي باسكال ... فكتبه الأولى واقعة تحت تأثير التأمل الباسكالي المسيطر . ولكنه يتوصل إلى التخلص من هذا الأمل في « الوضع الإنساني » و« زمن الاحتقار » و« الأمل » ... أما في « أشجار جوز الألتا نبرغ » بخاصة ، فيستعيد باسكال السيطرة كلياً على مالرو » . غير أن مونان يقدر أن « بعض جمل مالرو ، في المرحلة الأولى ، قد صنعت من الشيوعيين أكبر مما يستطيع مالرو اليوم أن يصنع من المرتدين عنها » .

ويشير مونان أيضاً إلى القدر الكبير الذي كان مالرو متقدماً به على كتّاب سنوات الأربعينات . إن أكثر إيضاحات « أسطورة سيزيف » إتقاناً تسمى « الطريق الملكية » أو « الظافرون » ؛ فكافة مسائل الالتزام التي يحاول كل من سيمون دوبوفوار ، وسارتر أن يحلاها قد وجدت حلاً لها قبلاً في « الوضع الإنساني » ، وفي « الأمل » ، وأصغر حوار ، في « الأمل » يجيب على كافة الافتتاحيات التي نشرت في « الأزمنة الحديثة » .

كلود روا : توصيفات نقدية : ١٩٤٩ ، غاليمار .

يقول كلودروا : « لا أعلم إن كنت الوحيد الذي أصبح شيوعياً بفضل مالرو جزئياً » ... فما من سطر كتبه مالرو ، وما من كلمة له يمكن أن « تؤسس » بصورة مذهبية موقفاً فاشياً جديداً ، وتؤدي بالقارىء ليتمنى حكومة حازمة ، أو ديكتاتوراً متعالياً في ازدرائه للناس ، ويرتدي قفازاً مخملياً ، وليتمنى سلطة رجال « النظام » ؛ ... ومع ذلك ، فمالرو ، في تقدير كلود روا ، يلجأ إلى ذلك « الكسل الحزين ، كسل الروح ، عام ١٩٤٧ » ألا وهو : الفاشية ... إن الشيطان يحتاج ديغول أقل مما يحتاج ديغول الشيطان . ومالرو يبقى عصياً على التفسير » .

دراسات مبنية على وجهة نظرٍ بنيوية وراثية :

لوسيان غولدمان : « مدخل إلى دراسة بنيوية لروايات مالرو » من كتاب : « من أجل علم اجتماع للرواية » ، غاليمار ، ١٩٦٤ .

وهو عملٌ طويل من البحث الاجتماعي الواقعي (أو « التحليل البنيوي الداخلي ») حول كاتب يعتبر ممثلاً نموذجياً بصورة خاصة للمنهج ؛ فتطوره ، كما يؤكد غولدمان ، يطرح المشكلات الرئيسية التي تثيرها العلاقات بين الثقافة والمرحلة الأكثر حداثة في تاريخ المجتمعات الصناعية الغربية ، وذلك من خلال الدلالة المضاعفة لهذا التطور ، دلالة طبيعته والمخاطر التي يتضمنها .

ولسوء الحظ ، فهذه الدراسة تبدو قليلة الإقناع ، وثقيلةً ومنهجيةً إلى أقصى حدّ .

« الظافرون هي روايةُ العلاقات بين الفرد الإشكالي ، غارين ، والثورة التي تتيح له أن يعطي ، بصورة مؤقتة ومزعزعة ، معنى حقيقياً لوجوده » .

« الوضع الإنساني هي رواية العلاقة بين الجماعة الإشكالية لثوريي شانغ هاي ، والذين باعتبـــارهم أفراداً ، قد وجدوا بصورة نهائيـــة معنى حقيقياً لوجودهم ، في الكفاح ، وفي الهزيمة ، وفي مجمل العمل الثوري الذي يجعل تاكتيك الأممية الشيوعية موتهم وهزيمتهم فيه أمرين لا مفر منهما » .

(« إن زمن الاحتقار » هي قصة العلاقة غير الإشكالية كاسنير الفرد مع الجماعة غير الإشكالية للمقاتلين الثوريين ، وضمناً مع الحزب الشيوعي الذي يشكل جزءاً منهم ، والذي يقودهم) .

« وأخيراً ، فموضوع رواية « الأمل » هو العلاقة غير الإشكالية للشعب الإسباني ، والبروليتاريا العالمية مع الحزب الشيوعي المنظم ، والمعارض للعفوية الثورية » .

(إن غولدمان نفسه هو الذي وضع علامة التشديد على الكلمات ؛ فكلمةُ « إشكالي » كما يوضح ، لا تعني : « الذي يطرح مشكلات » ، بل « الذي يضعه وجوده ، وقيمهُ أمام مشكلاتٍ غير قابلةٍ للحل » .

دراسات مختلفة :

رشيل بيسبالوف : مسارات وتقاطعات ، ١٩٣٨ ، فران .

هي واحدة من أولى الدراسات التي نشرت عن مؤلفات مالرو ، وقد شاخت بعض الشيء .

ش — د. بلند :

أندريه مالرو ، الإنساني المأسوي (بالانكليزية) ، ١٩٦٣ ، الطبعات الجامعية ، في جامعة أوهايو .

أطروحة أمريكية إجمالية ، موثقةٌ توثيقاً جيداً جداً .

أندريه وجان برينكور :

المؤلفات والنور ، ١٩٥٥ ، المائدة المستديرة .

مقارنة واضحة وذاتية لثلاث جماليات : جمالية بروست ، وبرسون ، ومالرو .

أندريه برينكور :

« أندريه مالرو ، أو زمن الصمت » ، ١٩٦٦ ، المائدة المستديرة لمجلة كومبا (الكفاح) ، لماذا لم يهتم مالرو ، وزير الشؤون الثقافية بالتلفزيون ؟

ج . م دوميناك :

« رجوع المأسوي » ، ١٩٦٧ ، طبعة سوي :

وهي دراسة قصيرة جداً ، ولكن الذي يقال فيها يسترعي الاهتمام دائماً ، ودوميناك يرى في مؤلفات مالرو محاولةً بطوليةً لرفض العلمية — وقد أخفقت :

« إن هوراس وبوليوكت يتعاقب عليهما أبطال أعظم منهما أيضاً ، في تاريخ ليس مقتبساً من العصر القديم ، بل مكتوب مسبقاً من أجل ملايين الناس الذين سيدخلون إلى غياهب الزمن السحيق ، وإلى قاعات التعذيب » .

إن هذه المحاولة ، برغم عظمتها ، وبرغم تعمق لا مثيل له ، وبرغم صيغ مبهرة ، لم تحل ، كما يقدر دوميناك ، المعضلة التي حوصر عصرنا فيها ، وهي : التاريخ أم اللامعقول ...

إنها مقارنة غير متوقعة ، ولكنها مقارنة بين مالرو وكلوديل الشاب مؤلف : « الرأس الذهبي » توسّع معرفتنا بهما .

جورج دوتوي : « المتحف الذي لا يمكن تخيله » ، ١٩٥٦ ، طبعة جوزيه كورتي . وهو دحض مطول (٣ مجلدات) لمفاهيم مالرو عن الفن — ولكن هذه الضروب من الدحض غالباً ما تخطىء هدفها ، لأن فكر مالرو لم يفهم جيداً .

بريان . ت . فيتش :

« الشعور بالغرابة لدى مالرو ، وسارتر ، وكامو ، وسيمون دوبوفوار » ، ١٩٤٦ ، طبعة مينار .

س غولبيو : « أندريه مالرو والموت » ، ١٩٦٩ ، طبعة مينار .

ب . هاللدا : « بيرنسون وأندريه مالرو » ، ١٩٦٥ . طبعة مينار .

كلود مورياك : « مالرو ومرض البطل » ، ١٩٤٦ ، طبعة غراسّيه .

هذا الكتاب قسمان : غريزة الحب والبطل . الإثارة الجنسية والبطولة في مؤلفات مالرو (وفي مؤلفات : ت.ا. لورنس — وأندريه بريتون ، وهيمنغواي ، وكيستلر ، وستندال ، إلخ) . إن المؤلف يعرف مالرو معرفة جيدة جداً .

م . ميرلو — بونتي : « العلامات » ١٩٦٠ ، طبعة : غاليمار .

مقالات حول « أصوات الصمت » ، وكذلك حول مالرو وتروتسكي

غايتان بيكون : « أندريه مالرو » ، ١٩٤٥ ، غاليمار .

لقد أهمل هذا الكتاب اليوم بعض الشيء ، منذ أن نشر في طبعة سوي : كتاب : « مالرو من خلال نفسه » (انظر : الصفحة ٢١٢ في

الأصل الفرنسي) ، ولكن قراءته تظل دائماً ذات فائدةٍ تثقيفيةٍ كبيرة جداً .

غايتان بيكون : « استخدام القراءة » ، المجلد الأول ، والثاني ، طبعة : ميركور دوفرانس .

وهو عبارةٌ عن دراسات حول « أصوات الصمت » و« تحول الآلهة » .

دراسات تفصيليّة تدور على كتاب واحد :

(في طبعة : بروفيل دوتوفر (صورة مؤلف (، ١٩٧٠ . طبعة آتييه :

« الوضع الإنساني لمالرو » : هنري ديمازو .

« الأمل لمالرو » : بول غايار .

لمن يقرعُ جرسُ الحزنِ لهيمنغواي : جورج بونفيل .

أفلام وأسطوانات :

أمل (العنوان الأول : سييرا دوتيروييل) ١٩٣٨ — ١٩٣٩ .

السيناريو والحوارات والإخراج لأندريه مالرو . ومساعدوه هم : دوني ماريون ، وماكس أوب . ومديرو آلات التصوير : باج وتوماس . وموسيقا : داريوس ميلود . إنتاج : كوريذيون — موليتييه ، وتويال (انظر أعلاه : الصفحات ١١٦ وما تلاها (الأصل الفرنسي) .

أندريه مالرو : فيلم قصير لليونار كيجيل ، مكرس لمالرو ،

ويحتوي وثائق عديدة مستمدة من أشرطة لأحداث الساعة (إنتاج كلودان C.A.PAC ١٩٥٩) .

المسائل التي تطرحها المذكرات المخالفة : أندريه مالرو يجيب الشباب (أسطوانة 33 . T ، وقد تم تسجيلها بتاريخ ٢٥ تشرين الأول ، ١٩٦٧ . مجموعة : « فرنسيو عصرنا » ، رقم ٦٥ . t . F . ٦٨) .

أندريه مالرو يتحدث مع بيير دوبواديفر ، ١٩٦٧ ، (أسطوانة : ADES. ORT·F) .

* * *

ولد مالرو مع بداية القرن ١٩٠١ وشارك في ثوراته (الصين، الفيتنام، اسبانيا ...) عاش تحولاته الكبرى، حيث وجدت، نجده حاضراً يتقمص الحدث، يعيشه ويجسده، يراه في ابعاده الماضية والمستقبلية، يتصوره، يصوره... ويرويه. فهذا الثائر الجوال فنان تشكيلي، عالم أثري، مفكر... وروائي. رأى العالم فناً وثورة: ثورة انسان يبدل في الأعماق شرطه الانساني. والفن، ماذا عن الفن؟ يتصور مالرو «متحفاً خيالياً» فيه أنبل رؤى الانسان للانسان وأجملها».

ويرى في ديغول التجسيد الأكمل للفرنسي والعبقرية الفرنسية. وهاهو ينضم اليه عام ١٩٥٨ عندما عاد ديغول الى رئاسة الدولة، صار من اركان حكمه، ودشن مع جمهوريته الخامسة عهداً جديداً هو من عهود فرنسا الأكثر اشراقاً.

ويتخلى ديغول عام ١٩٦٩ عن السلطة فيعود مالرو الى «دروب الصمت». (فصمت اللوحة التشكيلية ابلغ من اي كلام آخر).

يبدو أن مالرو كان من خط الذين يرون في الفن مع شوبنهور وغيره خلاص الانسان. واللوحة عنده هي الطريق الأقرب بين انسان ونموذجه الأكمل. ويرحل مالرو عام (١٩٧٦) وهو مايزال يتأمل في غنى هذا العالم الذي رافقه في رحلته الطويلة ويستخدم البيان الفرنسي الأكمل لينقله الينا.

طبع في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٤

سعر النسخة داخل القطر

٩٠ ل.س

في الاقطار العربية مايعادل

١٨٠ ل.س